(٦٧) سورة الملك مكية
وآياتها ثلاثون

● **سورة المُلْك** من السور المكية ، شأنها شأن سائر السور المكية ، التي تعالج موضوع العقيدة في أصولها الكبرى ، وقد تناولت هذه السورة أهدافاً رئيسية ثلاثة وهي « إثبات عظمة الله وقدرته على الإحياء والإماتة .. وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين .. ثم بيان عاقبة المكذبين الجاحدين للبعث والنشور » .

● **ابتدأت** السورة الكريمة بتوضيح الهدف الأول ، فذكرت أن الله جل وعلا بيده المُلْك والسلطان ، وهو المهيمن على الأكوان ، الذي تخضع لعظمته الرقاب وتعنوله الجباه ، وهو المتصرف في الكائنات بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ﴿ تبارك الذي بيده المُلْك .. ﴾ الآيات .

● **ثم تحدثت** عن خلق السموات السبع ، وما زيَّن الله به السماء الدنيا من الكواكب الساطعة ، والنجوم اللامعة ، وكلها أدلة على قدرة الله ووحدانيته ﴿ الذي خلق سبع سموات طباقاً .. ﴾ الآيات .

● **ثم تناولت** الحديث عن المجرمين بشيء من الإسهاب ، وهم يرون جهنم تتلظى وتكاد تتقطع من شدة الغضب والغيظ على أعداء الله ، وقارنت بين مآل الكافرين والمؤمنين ، على طريقة القرآن في الجمع بين الترهيب والترغيب ﴿ إذا أُلقوا فيها سمعوا لها شهيقاً وهي تفور .. ﴾

● **وبعد** أن ساقت بعض الأدلة والشواهد على عظمة الله وقدرته ، حذَّرت من عذابه وسخطه أن يحل بأولئك الكفرة الجاحدين ﴿ أأمنتم مَنْ في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور ..﴾ الآيات .

● **وختمت** السورة الكريمة بالإنذار والتحذير للمكذبين بدعوة الرسول من حلول العذاب بهم في الوقت الذي كانوا يتمنون فيه موت الرسول ﷺ وهلاك المؤمنين ﴿ قل أرأيتم إن أهلكني اللهُ ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم ﴾ ؟ الآيات ويا له من وعيد شديد ، ترتعد له الفرائص ! !

فضلها : تسمى هذه السورة « الواقية » و « المنجية » لأنها تقي قارئها من عذاب القبر فقد قال ﷺ « هي المانعة وهي المنجية ، تنجي من عذاب القبر » أخرجه الترمذي

سورة الملك

ثلاثون آية مكية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾

(سورة الملك) وتسمى (المنجية) لأنها تنجي قارئها من عذاب القبر، وعن ابن عباس أنه كان يسميها: (المجادلة) لأنها تجادل عن قارئها في القبر، وهي ثلاثون آية مكية.

أما قوله: ﴿تَبَٰرَكَ﴾ فقد فسرناه في أول سورة الفرقان، وأما قوله: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ فاعلم أن هذه اللفظة إنما تستعمل لتأكيد كونه تعالى ملكًا ومالكًا، كما يقال: بيد فلان الأمر والنهي والحل والعقد ولا مدخل للجارحة في ذلك. قال صاحب (الكشاف): ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ على كل موجود، ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ﴾ ما لم يوجد من الممكنات ﴿قَدِيرٌ﴾، وقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ **فيه مسائل:**

المسألة الأولى: هذه الآية احتج بها من زعم أن المعدوم شيء، فقال قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ يقتضي كون مقدوره شيئًا، فذلك الشيء الذي هو مقدور الله تعالى، إما أن يكون موجودًا أو معدومًا، لا جائز أن يكون موجودًا، لأنه لو كان قادرًا على الموجود، لكان إما أن يكون قادرًا على إيجاده وهو محال، لأن إيجاد الموجود محال، وإما أن يكون قادرًا على إعدامه وهو محال، لاستحالة وقوع الإعدام بالفاعل، وذلك لأن القدرة صفة مؤثرة فلا بد لها من تأثير، والعدم نفي محض، فيستحيل جعل العدم أثر القدرة، فيستحيل وقوع الإعدام بالفاعل فثبت أن الشيء الذي هو مقدور الله ليس بموجود، فوجب أن يكون معدومًا، فلزم أن يكون ذلك المعدوم شيئًا، واحتج أصحابنا النافون لكون المعدوم شيئًا بهذه الآية فقالوا: لا شك أن الجوهر من حيث إنه جوهر شيء والسواد من حيث هو سواد شيء، والله قادر على كل شيء. فبمقتضى هذه الآية يلزم أن يكون قادرًا على الجوهر من حيث إنه جوهر، وعلى السواد من حيث هو سواد، وإذا كان كذلك كان كون الجوهر جوهرًا، والسواد سوادًا واقعًا بالفاعل، والفاعل المختار لا بد وأن يكون متقدمًا على فعله، فإذًا وجود الله وذاته متقدم على كون الجوهر جوهرًا، أو السواد سوادًا، فيلزم أن لا يكون المعدوم شيئًا وهو المطلوب، ثم أجابوا عن شبهة الخصم بأنا لا نسلم أن الإعدام لا يقع بالفاعل، ولئن سلمنا ذلك، لكن لم يجوز أن يقال المقدور الذي هو معدوم سمي شيئًا، لأجل أنه سيصير شيئًا، وهذا وإن كان مجازًا إلا أنه يجب المصير إليه، لقيام سائر الدلائل الدالة على أن المعدوم ليس بشيء.

المسألة الثانية: زعم القاضي أبو بكر في أحد قوليه أن إعدام الأجسام إنما يقع بالفاعل،

وهذا اختيار أبي الحسن الخياط من المعتزلة، ومحمود الخوارزمي، وزعم الجمهور منا ومن المعتزلة أنه يستحيل وقوع الإعدام بالفاعل، احتج القاضي بأن الموجودات أشياء، والله على كل شيء قدير، فهو إذًا قادر على الموجودات، فإما أن يكون قادرًا على إيجادها وهو محال لأن إيجاد الموجود محال، أو على إعدامها، وذلك يقتضي إمكان وقوع الإعدام بالفاعل.

المسألة الثالثة: زعم الكعبي أنه تعالى غير قادر على مثل مقدور العبد، وزعم أبو علي وأبو هاشم أنه تعالى غير قادر على مقدور العبد، وقال أصحابنا: إنه تعالى قادر على مثل مقدور العبد وعلى غير مقدوره، واحتجوا عليه بأن عين مقدور العبد ومثل مقدوره شيء، والله على كل شيء قدير، فثبت بهذا صحة وجود مقدور واحد بين قادرين.

المسألة الرابعة: زعم أصحابنا أنه لا مؤثر إلا قدرة الله تعالى، وأبطلوا القول بالطبائع على ما يقوله الفلاسفة، وأبطلوا القول بالمتولدات على ما يقوله المعتزلة، وأبطلوا القول بكون العبد موجدًا لأفعال نفسه، واحتجوا على الكل بأن الآية دالة على أنه تعالى قادر على كل شيء، فلو وقع شيء من الممكنات لا بقدرة الله بل بشيء آخر، لكان ذلك الآخر قد منع قدرة الله عن التأثير فيما كان مقدورًا له وذلك محال، لأن ما سوى الله ممكن محدث، فيكون أضعف قوة من قدرة الله، والأضعف لا يمكن أن يدفع الأقوى.

المسألة الخامسة: هذه الآية دالة على أن الإله تعالى واحد، لأنا لو قدرنا إلهًا ثانيًا، فإما أن يقدر على إيجاد شيء أو لا يقدر، فإن لم يقدر ألبتة على إيجاد شيء أصلاً لم يكن إلهًا، وإن قدر كان مقدور ذلك الإله الثاني شيئًا، فيلزم كونه مقدورًا للإله الأول لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فيلزم وقوع مخلوق بين خالقين وهو محال، لأنه إذا كان واحد منهما مستقلاً بالإيجاد، يلزم أن يستغني بكل واحد منهما عن كل واحد منهما، فيكون محتاجًا إليهما، وغنيًا عنهما، وذلك محال.

المسألة السادسة: احتج جهم بهذه الآية على أنه تعالى ليس بشيء فقال: لو كان شيئًا لكان قادرًا على نفسه لقوله: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ لكن كونه قادرًا على نفسه محال، فيمتنع كونه شيئًا، وقال أصحابنا لما دل قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ شَهِيدٌ﴾ [الأنعام: ١٩]على أنه تعالى شيء وجب تخصيص هذا العموم، فإذًا هذه الآية قد دلت على أن العام المخصوص وارد في كتاب الله تعالى، ودلت على أن تخصيص العام بدليل العقل جائز بل واقع.

المسألة السابعة: زعم جمهور المعتزلة أن الله تعالى قادر على خلق الكذب والجهل والعبث والظلم، وزعم النظّام أنه غير قادر عليه، واحتج الجمهور بأن الجهل والكذب أشياء ﴿وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ فوجب كونه تعالى قادرًا غليها.

المسألة الثامنة: احتج أهل التوحيد على أنه تعالى منزه عن الحيز والجهة، فإنه تعالى لو حصل في حيز دون حيز لكان ذلك الحيز الذي حكم بحصوله فيه متميزًا عن الحيز الذي حكم

بأنه غير حاصل فيه، إذ لو لم يتميز أحد الحيزين عن الآخر لاستحال الحكم بأنه تعالى حصل فيه ولم يحصل في الآخر ثم إن امتياز أحد الحيزين عن الآخر في نفسه يقتضي كون الحيز أمرًا موجودًا لأن العدم المحض يمتنع أن يكون مشارًا إليه بالحس وأن يكون بعضه متميزًا عن البعض في الحس، وأن يكون مقصدًا للمتحرك، فإذن لو كان الله تعالى حاصلاً في حيز لكان ذلك الحيز موجودًا، ولو كان ذلك الحيز موجودًا لكان شيئًا ولكان مقدورًا لله لقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وإذا كان تحقق ذلك الحيز بقدرة الله وبإيجاده، فيلزم أن يكون الله متقدمًا في الوجود على تحقق ذلك الحيز، ومتى كان كذلك كان وجود الله في الأزل محققًا من غير حيز ولا جهة أصلاً والأزلي لا يزول ألبتة، فثبت أنه تعالى منزه عن الحيز والمكان أزلاً وأبدًا.

المسألة التاسعة: أنه تعالى قال أولاً: ﴿بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ ثم قال بعده: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ وهذا مشعر بأنه إنما يكون بيده الملك لو ثبت أنه على كل شيء قدير، وهذا هو الذي يقوله أصحابنا من أنه لو وقع مراد العبد ولا يقع مراد الله، لكان ذلك مشعرًا بالعجز والضعف، وبأن لا يكون مالك الملك على الإطلاق، فدل ذلك، على أنه لما كان مالك الملك وجب أن يكون قادرًا على جميع الأشياء.

المسألة العاشرة: القدير مبالغة في القادر، فلما كان قديرًا على كل الأشياء وجب أن لا يمنعه ألبتة مانع عن إيجاد شيء من مقدوراته، وهذا يقتضي أن لا يجب لأحد عليه شيء وإلا لكان ذلك الوجوب مانعًا له من الترك وأن لا يقبح منه شيء وإلا لكان ذلك القبح مانعًا له من الفعل، فلا يكون كاملاً في القدرة، فلا يكون قديرًا، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾. فيه مسائل:

المسألة الأولى: قالوا: الحياة هي الصفة التي يكون الموصوف بها بحيث يصح أن يعلم ويقدر واختلفوا في الموت، فقال قوم: إنه عبارة عن عدم هذه الصفة وقال أصحابنا: إنه صفة وجودية مضادة للحياة واحتجوا على قولهم بأنه تعالى قال: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ﴾ والعدم لا يكون مخلوقًا هذا هو التحقيق، وروى الكلبي بإسناده عن ابن عباس أن الله تعالى خلق الموت في صورة كبش أملح لا يمر بشيء، ولا يجد رائحته شيء إلا مات وخلق الحياة في صورة فارس يلقاه فوق الحمار ودون البغل، لا تمر بشيء ولا يجد ريحها شيء إلا حيى. واعلم أن هذا لا بد وأن يكون مقولاً على سبيل التمثيل والتصوير، وإلا فالتحقيق هو الذي ذكرناه.

المسألة الثانية: إنما قدم ذكر الموت على ذكر الحياة مع أن الحياة مقدمة على الموت لوجوه: أحدها: قال مقاتل: يعني بالموت نطفة وعلقة ومضغة والحياة نفخ الروح، وثانيها:

روى عطاء عن ابن عباس قال: يريد الموت في الدنيا والحياة في الآخرة دار الحيوان، وثالثها: أنه روي عن النبي ﷺ: «أَنَّ مُنَادِيًا يُنَادِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ قِبَلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ فَيَقُولُونَ: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فَيَقُولُ: هَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا قَالُوا: نَعَمْ، ثُمَّ يُؤْتَى بِالْمَوْتِ فِي صُورَةِ كَبْشٍ أَمْلَحَ وَيُذْبَحُ ثُمَّ يُنَادَى يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ خُلُودٌ بِلاَ مَوْتٍ، وَيَا أَهْلَ النَّارِ خُلُودٌ بِلاَ مَوْتٍ فَيَزْدَادُ أَهْلُ الْجَنَّةِ فَرَحًا إِلَى فَرَحٍ، وَيَزْدَادُ أَهْلُ النَّارِ حُزْنًا إِلَى حُزْنٍ»(١) واعلم أنا بينا أن الموت عرض من الأعراض كالسكون والحركة فلا يجوز أن يصير كبشًا بل المراد منه التمثيل ليعلم أن في ذلك اليوم قد انقضى أمر الموت، فظهر بما ذكرناه أن أيام الموت هي أيام الدنيا وهي منقضية، وأما أيام الآخرة فهي أيام الحياة وهي متأخرة فلما كانت أيام الموت متقدمة على أيام الحياة لا جرم قدم الله ذكر الموت على ذكر الحياة، ورابعها إنما قدم الموت على الحياة لأن أقوى الناس داعيًا إلى العمل من نصب موته بين عينيه فقدم لأنه فيما يرجع إلى الغرض له أهم.

المسألة الثالثة: اعلم أن الحياة هي الأصل في النعم ولولاها لم يتنعم أحد في الدنيا وهي الأصل أيضًا في نعم الآخرة ولولاها لم يثبت الثواب الدائم، والموت أيضًا نعمة على ما شرحنا الحال فيه في مواضع من هذا الكتاب، وكيف لا وهو الفاصل بين حال التكليف وحال المجازاة وهو نعمة من هذا الوجه، قال عليه الصلاة والسلام: «أَكْثِرُوا مِنْ ذكر هاذم اللذات» وقال لقوم: «لو أكثرتم ذكر هاذم اللَّذَّاتِ لَشَغَلَكُمْ عَمَّا أَرَى» وسأل عليه الصلاة والسلام عن رجل فأثنوا عليه، فقال: «كَيفَ ذِكْرُهُ الْمَوْتَ؟» قالوا: قليل، قال: «فَلَيْسَ كَمَا تقولون».

قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: الابتلاء هو التجربة والامتحان حتى يعلم أنه هل يطيع أو يعصي، وذلك في حق من وجب أن يكون عالمًا بجميع المعلومات أزلاً وأبدًا محال، إلا أنا قد حققنا هذه المسألة في تأويل قوله: ﴿وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ﴾ [البقرة: ١٢٤] والحاصل أن الابتلاء من الله هو أن يعامل عبده معاملة تشبه (الابْتِلاَءَ) على المختبر.

المسألة الثانية: احتج القائلون بأنه تعالى يفعل الفعل لغرض بقوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ قالوا: هذه اللام للغرض، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [الذاريات: ٥٦] وجوابه أن الفعل في نفسه ليس بابتلاء إلا أنه لما أشبه الابتلاء سمي مجازًا، فكذا هاهنا، فإنه يشبه الغرض وإن لم يكن في نفسه غرضًا، فذكر فيه حرف الغرض.

المسألة الثالثة: اعلم أنا فسرنا الموت والحياة بالموت حال كونه نطفة وعلقة ومضغة، والحياة بعد ذلك فَوَجْهُ الابتلاء على هذا الوجه أن يعلم أنه تعالى هو الذي نقله من الموت إلى

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (التفسير) باب (وأنذرهم يوم الحسرة) (٤/ ١٧٦٠) حديث رقم (٤٤٥٣) ومسلم في (صحيحه) (٤/ ٢١٨٨١/ ٢٨٤٩) كلاهما من طريق أبي صالح عن أبي سعيد الخدري... به.

الحياة وكما فعل ذلك فلا بد وأن يكون قادرًا على أن ينقله من الحياة إلى الموت فيحذر مجيء الموت الذي به ينقطع استدراك ما فات ويستوي فيه الفقير والغني والمولى والعبد، وأما إن فسرناهما بالموت في الدنيا وبالحياة في القيامة فالابتلاء فيهما أتم لأن الخوف من الموت في الدنيا حاصل وأشد منه الخوف من تبعات الحياة في القيامة، والمراد من الابتلاء أنه هل ينزجر عن القبائح بسبب هذا الخوف أم لا.

المسألة الرابعة: في تعلق قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ بقوله: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وجهان: الأول: وهو قول الفراء والزجاج: إن المتعلق بأيكم مضمر والتقدير ليبلوكم فيعلم أو فينظر أيكم أحسن عملاً، والثاني: قال صاحب (الكشاف): ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ في معنى ليعلمكم، والتقدير ليعلمكم أيكم أحسن عملاً.

المسألة الخامسة: ارتفعت (أَيٌّ) بالابتداء ولا يعمل فيها ما قبلها لأنها على أصل الاستفهام فإنك إذا قلت: لا أعلم أيكم أفضل كان المعنى لا أعلم أزيد أفضل أم عمرو، واعلم أن مالا يعمل فيما بعد الألف فكذلك لا يعمل في (أَيٍّ) لأن المعنى واحد، ونظير هذه الآية قوله: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَٰلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] وقد تقدم الكلام فيه.

المسألة السادسة: ذكروا في تفسير ﴿أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وجوهًا: أحدها: أن يكون أخلص الأعمال وأصوبها لأن العمل إذا كان خالصًا غير صواب لم يقبل، وكذلك إذا كان صوابًا غير خالص فالخالص أن يكون لوجه الله، والصواب أن يكون على السنة، وثانيها: قال قتادة: سألت رسول الله ﷺ فقال: «يَقُولُ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَقْلًا» ثم قال: «أَتَمُّكُمْ عَقْلًا أَشَدُّكُم لِلَّهِ خَوْفًا وَأَحْسَنُكُمْ فِيمَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَنَهَى عَنْهُ نَظَرًا»، وإنما جاز أن يفسر حسن العمل بتمام العقل لأنه يترتب على العقل، فمن كان أتم عقلاً كان أحسن عملاً على ما ذكر في حديث قتادة، وثالثها: روي عن الحسن أيكم أزهد في الدنيا وأشد تركًا لها، واعلم أنه لما ذكر حديث الابتلاء قال بعده: ﴿وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أي وهو العزيز الغالب الذي لا يعجزه من أساء العمل، الغفور لمن تاب من أهل الإساءة.

واعلم أن كونه عزيزًا غفورًا لا يتم إلا بعد كونه قادرًا على كل المقدورات عالمًا بكل المعلومات أما أنه لا بد من القدرة التامة، فلأجل أن يتمكن من إيصال جزاء كل أحد بتمامه إليه سواء كان عقابًا أو ثوابًا، وأما أنه لا بد من العلم التام فلأجل أن يعلم أن المطيع من هو والعاصي من هو فلا يقع الخطأ في إيصال الحق إلى مستحقه، فثبت أن كونه عزيزًا غفورًا لا يمكن ثبوته إلا بعد ثبوت القدرة التامة والعلم التام، فلهذا السبب ذكر الله الدليل على ثبوت هاتين الصفتين في هذا المقام، ولما كان العلم بكونه تعالى قادرًا متقدمًا على العلم بكونه عالمًا، لا جرم ذكر أولاً دلائل القدرة، وثانيًا دلائل العلم.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾

أما دليل القدرة فهو قوله: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: ذكر صاحب (الكشاف) في ﴿طِبَاقٗاۖ﴾ ثلاثة أوجه: أولها: طباقًا أي مطابقة بعضها فوق بعض من طابق النعل إذا خصفها طبقًا على طبق، وهذا وصف بالمصدر، وثانيها: أن يكون التقدير ذات طباق، وثالثها: أن يكون التقدير طوبقت طباقًا.

المسألة الثانية: دلالة هذه السموات على القدرة من وجوه: أحدها: من حيث إنها بقيت في جو الهواء معلقة بلا عماد ولا سلسلة، وثانيها: من حيث إن كل واحد منها اختص بمقدار معين مع جواز ما هو أزيد منه وأنقص، وثالثها: أنه اختص كل واحد منها بحركة خاصة مقدرة بقدر معين من السرعة والبطء إلى جهة معينة، ورابعها: كونها في ذواتها محدثة وكل ذلك يدل على استنادها إلى قادر تام القدرة.

وأما دليل العلم فهو قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ حمزة والكسائي (مِنْ تَفَوُّتٍ) والباقون ﴿مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾، قال الفراء: وهما بمنزلة واحدة مثل تَظَهُّر وتَظَاهُر، وتَعَهُّد وتَعَاهُد، وقال الأخفش: (تَفاوُتٍ) أجود؛ لأنهم يقولون: تفاوت الأمر ولا يكادون يقولون: تفوّت، واختار أبو عبيدة: (تَفَوُّتٍ)، وقال: يقال تفوّت الشيء إذا فات، واحتج بما روي في الحديث أن رجلاً تفوّت على أبيه في ماله.

المسألة الثانية: حقيقة التفاوت عدم التناسب كأن بعض الشيء يفوت بعضه ولا يلائمه ومنه قولهم: (تَعَلَّقَ مُتَعَلِّقٌ مُتَفَاوِتٌ وَنَقِيضُهُ مُتَنَاسِبٌ)، وأما ألفاظ المفسرين فقال السدي: من تفاوت أي من اختلاف عيب، يقول الناظر: لو كان كذا كان أحسن، وقال آخرون: التفاوت الفطور بدليل قوله بعد ذلك: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ نظيره قوله: ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٖ﴾[ق: ٦] قال القفال: ويحتمل أن يكون المعنى: ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت في الدلالة على حكمة صانعها وأنه لم يخلقها عبثًا.

المسألة الثالثة: الخطاب في قوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ إما للرسول أو لكل مخاطب وكذا القول في قوله: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣ ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾.

المسألة الرابعة: قوله: ﴿طِبَاقٗاۖ﴾ صفة للسموات، وقوله بعد ذلك: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ﴾ صفة أخرى للسموات والتقدير خلق سبع سموات طباقًا ما ترى فيهن من تفاوت إلا أنه وضع مكان الضمير قوله: ﴿خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تعظيمًا لخلقهن وتنبيهًا على سبب سلامتهن من التفاوت، وهو أنه خلق الرحمن وأنه بباهر قدرته هو الذي يخلق مثل ذلك الخلق المتناسب.

المسألة الخامسة : اعلم أن وجه الاستدلال بهذا على كمال علم الله تعالى هو أن الحس دل أن هذه السموات السبع، أجسام مخلوقة على وجه الإحكام والإتقان، وكل فاعل كان فعله محكمًا متقنًا فإنه لا بد وأن يكون عالمًا، فدل هذه الدلالة على كونه تعالى عالمًا بالمعلومات فقوله: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ إشارة إلى كونها محكمة متقنة.

المسألة السادسة : احتج الكعبي بهذه الآية على أن المعاصي ليست من خلق الله تعالى، قال: لأنه تعالى نفى التفاوت في خلقه، وليس المراد نفي التفاوت في الصغر والكبر والنقص والعيب فوجب حمله على نفي التفاوت في خلقه من حيث الحكمة، فيدل من هذا الوجه على أن أفعال العباد ليست من خلقه على ما فيها من التفاوت الذي بعضه جهل وبعضه كذب وبعضه سفه، الجواب: بل نحن نحمله على أنه لا تَفَوُّت فيه بالنسبة إليه، من حيث إن الكل يصح منه بحسب القدرة والإرادة والداعية، وإنه لا يقبح منه شيء أصلاً، فلم كان حمل الآية على التفاوت من الوجه الذي ذكرتم أولى من حملها على نفي التفاوت من الوجه الذي ذكرناه، ثم إنه تعالى أكد بيان كونها محكمة متقنة، وقال: ﴿ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ والمعنى أنه لما قال: ﴿ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ كأنه قال بعده: ولعلك لا تحكم بمقتضى ذلك بالبصر الواحد، ولا تعتمد عليه بسبب أنه قد يقع الغلط في النظرة الواحدة، ولكن ارجع البصر واردد النظرة مرة أخرى، حتى تتيقن أنه ليس في خلق الرحمن من تفاوت ألبتة. والفطور جمع فطر، وهو الشق يقال: فَطَرَه فانْفَطَر ومنه فطر ناب البعير، كما يقال: شق ومعناه شق اللحم فطلع، قال المفسرون: ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ أي من فروج وصدوع وشقوق، وفتوق، وخروق، كل هذا ألفاظهم.

قوله تعالى: ﴿ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾

أمر بتكرير البصر في خلق الرحمن على سبيل التصفح والتتبع، هل يجد فيه عيبًا وخللاً، يعني أنك إذا كررت نظرك لم يرجع إليك بصرك بما طلبته من وجدان الخلل والعيب، بل يرجع إليك خاسئًا أي مبعدًا من قولك خسأت الكلب إذا باعدته، قال المبرد: الخاسئ المبعد المصغر، وقال ابن عباس: الخاسئ الذي لم ير ما يهوى، وأما الحسير فقال ابن عباس: هو الكليل، قال الليث: الحسر والحسور الإعياء، وذكر الواحدي هاهنا احتمالين أحدهما: أن يكون الحسير مفعولاً من حسر العين بعد المرئي، قال رؤبة:

يَحْسُرُ طرف عيناه فضا (١)

الثاني: قول الفراء: أن يكون فاعلاً من الحسور الذي هو الإعياء، والمعنى أنه وإن كرر النظر وأعاده فإنه لا يجد عيبًا ولا فطورًا، بل البصر يرجع خاسئًا من الكلال والإعياء. **وهاهنا سؤالان:**

---

(١) تقدمت ترجمة رؤبة.

السؤال الأول: كيف ينقلب البصر خاسئًا حسيرًا برجعه كرتين اثنتين، الجواب: التثنية للتكرار بكثرة كقولهم: لبيك وسعديك يريد إجابات متوالية.

السؤال الثاني: فما معنى ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ﴾ الجواب: أمره برجع البصر ثم أمره بأن لا يقنع بالرجعة الأولى، بل أن يتوقف بعدها ويجم بصره ثم يعيده ويعاوده إلى أن يحسر بصره من طول المعاودة فإنه لا يعثر على شيء من فطور.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

اعلم أن هذا هو الدليل الثاني على كونه تعالى قادرًا عالمًا، وذلك لأن هذه الكواكب نظرًا إلى أنها محدثة ومختصة بمقدار خاص، وموضع معين، وسير معين، تدل على أن صانعها قادر ونظرًا إلى كونها محكمة متقنة موافقة لمصالح العباد من كونها زينة لأهل الدنيا، وسببًا لانتفاعهم بها، تدل على أن صانعها عالم، ونظير هذه الآية في سورة الصفات ﴿إِنَّا زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِزِينَةٍ ٱلْكَوَاكِبِ ۝٦ وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَٰنٍ مَّارِدٍ﴾ [الصافات: ٦، ٧]، **وهاهنا مسائل:**

المسألة الأولى: ﴿ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ السماء القربى، وذلك لأنها أقرب السموات إلى الناس ومعناها السماء الدنيا من الناس، والمصابيح السرج سميت بها الكواكب، والناس يزينون مساجدهم ودورهم بالمصابيح، فقيل: ولقد زينا سقف الدار التي اجتمعتم فيها بمصابيح أي بمصابيح لا توازيها مصابيحكم إضاءة، أما قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ فاعلم أن الرجوم جمع رجم، وهو مصدر سمي به ما يرجم به، وذكروا في معرض هذه الآية وجهين: الوجه الأول أن الشياطين إذا أرادوا استراق السمع رجموا بها، فإن قيل: جعل الكواكب زينة للسماء يقتضي بقاءها واستمرارها وجعلها رجومًا للشياطين ورميهم بها يقتضي زوالها والجمع بينهما متناقض، قلنا: ليس معنى رجم الشياطين هو أنهم يرمون بأجرام الكواكب، بل يجوز أن ينفصل من الكواكب شعل ترمى الشياطين بها، وتلك الشعل هي الشهب، وما ذاك إلا قبس يؤخذ من نار والنار باقية، الوجه الثاني: في تفسير كون الكواكب رجومًا للشياطين أنا جعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم الأحكاميون من المنجمين.

المسألة الثانية: اعلم أن ظاهر هذه الآية لا يدل على أن هذه الكواكب مركوزة في السماء الدنيا، وذلك لأن السموات إذا كانت شفافة فالكواكب سواء كانت في السماء الدنيا أو كانت في سموات أخرى فوقها، فهي لا بد وأن تظهر في السماء الدنيا وتلوح منها، فعلى التقديرين تكون السماء الدنيا مزينة بهذه المصابيح.

واعلم أن أصحاب الهيئة اتفقوا على أن هذه الثوابت مركوزة في الفلك الثامن الذي هو فوق كرات السيارات، واحتجوا عليه بأن بعض هذه الثوابت في الفلك الثامن، فيجب أن تكون كلها

هناك، وإنما قلنا: إن بعضها في الفلك الثامن، وذلك لأن الثوابت التي تكون قريبة من المنطقة تنكسف بهذه السيارات، فوجب أن تكون الثوابت المنكسفة فوق السيارات الكاسفة، وإنما قلنا: إن هذه الثوابت لما كانت في الفلك الثامن وجب أن تكون كلها هناك، لأنها بأسرها متحركة حركة واحدة بطيئة في كل مائة سنة درجة واحدة، فلا بد وأن تكون مركوزة في كرة واحدة.

واعلم أن هذا الاستدلال ضعيف، فإنه لا يلزم من كون بعض الثوابت فوق السيارات كون كلها هناك، لأنه لا يبعد وجود كرة تحت القمر، وتكون في البطء مساوية لكرة الثوابت، وتكون الكواكب المركوزة فيما يقارن القطبين مركوزة في هذه الكرة السفلية، إذ لا يبعد وجود كرتين مختلفتين بالصغر والكبر مع كونهما متشابهتين في الحركة، وعلى هذا التقدير لا يمتنع أن تكون هذه المصابيح مركوزة في السماء الدنيا، فثبت أن مذهب الفلاسفة في هذا الباب ضعيف.

المسألة الثالثة: اعلم أن منافع النجوم كثيرة، منها أن الله تعالى زين السماء بها، ومنها أنه يحصل بسببها في الليل قدر من الضوء، ولذلك فإنه إذا تكاثف السحاب في الليل عظمت الظلمة، وذلك بسبب أن السحاب يحجب أنوارها، ومنها أنه يحصل بسببها تفاوت في أحوال الفصول الأربعة، فإنها أجسام عظيمة نورانية، فإذا قارنت الشمس كوكبًا مسخنًا في الصيف، صار الصيف أقوى حرًا، وهو مثل نار تضم إلى نار أخرى، فإنه لا شك أن يكون الأثر الحاصل من المجموع أقوى، ومنها أنه تعالى جعلها علامات يهتدى بها في ظلمات البر والبحر، على ما قال تعالى: ﴿وَعَلَٰمَٰتٍۚ وَبِٱلنَّجۡمِ هُمۡ يَهۡتَدُونَ﴾ [النحل: ١٦] ومنها أنه تعالى جعلها رجومًا للشياطين الذين يخرجون الناس من نور الإيمان إلى ظلمات الكفر، يروى أن السبب في ذلك أن الجن كانت تتسمع لخبر السماء، فلما بعث محمد ﷺ حرست السماء، ورصدت الشياطين، فمن جاء منهم مسترقًا للسمع رمي بشهاب فأحرقه لئلا ينزل به إلى الأرض فيلقيه إلى الناس فيخلط على النبي أمره ويرتاب الناس بخبره، فهذا هو السبب في انقضاض الشهب، وهو المراد من قوله: ﴿وَجَعَلۡنَٰهَا رُجُومٗا لِّلشَّيَٰطِينِۖ﴾ ومن الناس من طعن في هذا من وجوه: أحدها: أن انقضاض الكواكب مذكور في كتب قدماء الفلاسفة، قالوا: إن الأرض إذا سخنت بالشمس ارتفع منها بخار يابس، وإذا بلغ النار التي دون الفلك احترق بها، فتلك الشعلة هي الشهاب، وثانيها: أن هؤلاء الجن كيف يجوز أن يشاهدوا واحدًا وألفًا من جنسهم يسترقون السمع فيحترقون، ثم إنهم مع ذلك يعودون لمثل صنيعهم فإن العاقل إذا رأى الهلاك في شيء مرة ومرارًا وألفًا امتنع أن يعود إليه من غير فائدة، وثالثها: أنه يقال في ثخن السماء فإنه مسيرة خمسمائة عام، فهؤلاء الجن إن نفذوا في جرم السماء وخرقوا اتصاله، فهذا باطل لأنه تعالى نفى أن يكون فيها فطور على ما قال: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ [الملك: ٣] وإن كانوا لا ينفذون في جرم السماء، فكيف يمكنهم أن يسمعوا أسرار الملائكة من ذلك البعد العظيم، ثم إن جاز أن يسمعوا كلامهم من ذلك البعد

العظيم، فلا يسمعوا كلام الملائكة حال كونهم في الأرض، ورابعها: أن الملائكة إنما اطلعوا على الأحوال المستقبلة، إما لأنهم طالعوها في اللوح المحفوظ أو لأنهم تلقفوها من وحي الله تعالى إليهم، وعلى التقديرين فلِمَ لم يسكتوا عن ذكرها حتى لا يتمكن الجن من الوقوف عليها، وخامسها: أن الشياطين مخلوقون من النار، والنار لا تحرق النار بل تقويها، فكيف يعقل أن يقال: إن الشياطين زجروا عن استراق السمع بهذه الشهب، وسادسها: أنه كان هذا الحذف لأجل النبوة فلِمَ دام بعد وفاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وسابعها: أن هذه الرجوم إنما تحدث بالقرب من الأرض، بدليل أنا نشاهد حركتها بالعين ولو كانت قريبة من الفلك، لما شاهدنا حركتها كما لم نشاهد حركات الكواكب، وإذا ثبت أن هذه الشهب إنما تحدث بالقرب من الأرض، فكيف يقال: إنها تمنع الشياطين من الوصول إلى الفلك، وثامنها: أن هؤلاء الشياطين لو كان يمكنهم أن ينقلوا أخبار الملائكة من المغيبات إلى الكهنة، فلم لا ينقلون أسرار المؤمنين إلى الكفار، حتى يتوصل الكفار بواسطة وقوفهم على أسرارهم إلى إلحاق الضرر بهم؟ وتاسعها: لِمَ لم يمنعهم الله ابتداء من الصعود إلى السماء حتى لا يحتاج في دفعهم عن السماء إلى هذه الشهب؟.

والجواب عن السؤال الأول: أنا لا ننكر أن هذه الشهب كانت موجودة قبل مبعث النبي ﷺ لأسباب أخر، إلا أن ذلك لا ينافي أنها بعد مبعث النبي عليه الصلاة والسلام قد توجد بسبب آخر وهو دفع الجن وزجرهم. يروى أنه قيل للزهري: أكان يرمى في الجاهلية قال: نعم، قيل: أفرأيت قوله تعالى: ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾ [الجن: ٩] قال: غلظت وشدد أمرها حين بعث النبي ﷺ.

والجواب عن السؤال الثاني: أنه إذا جاء القدر عمي البصر، فإذا قضى الله على طائفة منها الحرق لطغيانها وضلالتها، قيض لها من الدواعي المطمعة في درك المقصود ما عندها تُقْدِم على العمل المفضي إلى الهلاك والبوار.

والجواب عن السؤال الثالث: أن البعد بين السماء والأرض مسيرة خمسمائة عام، فأما ثخن الفلك فلعله لا يكون عظيمًا.

وأما الجواب عن السؤال الرابع: ما روى الزهري عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب عليه السلام عن ابن عباس قال: بينا النبي ﷺ جالسًا في نفر من أصحابه إذ رمي بنجم فاستنار، فقال: «مَا كُنتُمْ تَقُولُونَ فِي الْجَاهِلِيَّةِ إِذَا حَدَثَ مِثْلُ هَذَا ؟»، قالوا: كنا نقول يولد عظيم أو يموت عظيم. قال عليه الصلاة والسلام: «فَإِنَّهَا لاَ تُرْمَى لِمَوْتِ أَحَدٍ وَلاَ لِحَيَاتِهِ، وَلَكِنَّ رَبَّنَا تَعَالَى إِذَا قَضَى الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ سَبَّحَتْ حَمَلَةُ الْعَرْشِ، ثُمَّ سَبَّحَ أَهْلُ السَّمَاءِ، وَسَبَّحَ أَهْلُ كُلِّ سَمَاءٍ حَتَّى يَنْتَهِيَ التَّسْبِيحُ إِلَى هَذِهِ السَّمَاءِ، وَيَسْتَخْبِرُ أَهْلُ السَّمَاءِ حَمَلَةَ الْعَرْشِ، مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ فَيُخْبِرُونَهُمْ، وَلاَ يَزَالُ ذَلِكَ الْخَبَرُ مِنْ سَمَاءٍ إِلَى سَمَاءٍ إِلَى أَنْ يَنْتَهِيَ الْخَبَرُ إِلَى هَذِهِ

السَّمَاءِ، وَيَتَخَطَّفُ الْجِنُّ فَيُزَمْزِمُونَ، فَمَا جَاءُوا بِهِ فَهُوَ حَقٌّ، وَلَكِنَّهُمْ يَزِيدُونَ فِيهِ»(١) .

والجواب عن السؤال الخامس: أن النار قد تكون أقوى من نار أخرى، فالأقوى يبطل الأضعف.

والجواب عن السؤال السادس: أنه إنما دام لأنه عليه الصلاة والسلام أخبر ببطلان الكهانة، فلو لم يدم هذا العذاب لعادت الكهانة، وذلك يقدح في خبر الرسول عن بطلان الكهانة.

والجواب عن السؤال السابع: أن البعد على مذهبنا غير مانع من السماع، فلعله تعالى أجرى عادته بأنهم إذا وقفوا في تلك المواضع سمعوا كلام الملائكة.

والجواب عن السؤال الثامن: لعله تعالى أقدرهم على استماع الغيوب عن الملائكة وأعجزهم عن إيصال أسرار المؤمنين إلى الكافرين.

والجواب عن السؤال التاسع: أنه تعالى يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، فهذا ما يتعلق بهذا الباب على سبيل الاختصار، والله أعلم.

واعلم أنه تعالى لما ذكر منافع الكواكب وذكر أن من جملة المنافع أنها رجوم للشياطين، قال بعد ذلك: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي أعتدنا للشياطين بعد الإحراق بالشهب في الدنيا عذاب السعير في الآخرة، قال المبرد: سعرت النار فهي مسعورة وسعير كقولك: مقبولة وقبيل، واحتج أصحابنا على أن النار مخلوقة الآن بهذه الآية؛ لأن قوله: ﴿وَأَعْتَدْنَا﴾ إخبار عن الماضي.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝٦﴾

اعلم أنه تعالى بيَّن في أول السورة أنه قادر على جميع الممكنات، ثم ذكر بعده أنه وإن كان قادرًا على الكل إلا أنه إنما خلق ما خلق لا للعبث والباطل بل لأجل الابتلاء والامتحان، وبيَّن أن المقصود من ذلك الابتلاء أن يكون عزيزًا في حق المصرين على الإساءة غفورًا في حق التائبين ومن ذلك كان كونه عزيزًا وغفورًا لا يثبتان إلا إذا ثبت كونه تعالى كاملاً في القدرة والعلم بين ذلك بالدلائل المذكورة، وحينئذ ثبت كونه قادرًا على تعذيب العصاة فقال: ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ أي ولكل من كفر بالله من الشياطين وغيرهم عذاب جهنم، ليس الشياطين المرجومون مخصوصين بذلك، وقرئ: ﴿عَذَابَ جَهَنَّمَ﴾ بالنصب عطف بيان على قوله: ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ﴾[الملك: ٥] ثم إنه تعالى وصف ذلك العذاب بصفاته كثيرة.

قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾

الصفة الأولى: قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾.

﴿أُلْقُوا﴾ طرحوا كما يطرح الحطب في النار العظيمة ويرمى به فيها، ومثله قوله: ﴿حَصَبُ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (١/ ٢١٨) حديث رقم (١٨٨٢) عبد بن حميد في (مسنده) (١/ ٢٢٨) حديث رقم (٦٨٣) كلاهما من طريق الزهري عن علي بن حسين عن ابن عباس... به.

﴿جَهَنَّمَ﴾ [الأنبياء: ٩٨] وفي قوله: ﴿سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا﴾ وجوه: أحدها: قال مقاتل: سمعوا لجهنم شهيقًا، ولعل المراد تشبيه صوت لهب النار بالشهيق، قال الزجاج: سمع الكفار للنار شهيقًا، وهو أقبح الأصوات، وهو كصوت الحمار، وقال المبرد: هو والله أعلم تنفس كتنفس المتغيظ وثانيها: قال عطاء: سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقًا، وثالثها: سمعوا من أنفسهم شهيقًا، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦] والقول هو الأول.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ قال الليث: كل شيء جاش فقد فار، وهو فور القدر والدخان والغضب والماء من العين، قال ابن عباس: تغلي بهم كغلي المرجل، وقال مجاهد: تفور بهم كما يفور الماء الكثير بالحب القليل، ويجوز أن يكون هذا من فور الغضب، قال المبرد: يقال تركت فلانًا يفور غضبًا، ويتأكد هذا القول بالآية الآتية.

الصفة الثالثة: قوله: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ﴾ يقال: فلان يتميز غيظًا، ويتعصف غيظًا وغضب فطارت منه شعلة في الأرض وشعلة في السماء إذا وصفوه بالإفراط فيه. وأقول لعل السبب في هذا المجاز أن الغضب حالة تحصل عند غليان دم القلب والدم عند الغليان يصير أعظم حجمًا ومقدارًا فتتمدد تلك الأوعية عند ازدياد مقادير الرطوبات في البدن، فكلما كان الغضب أشد كان الغليان أشد، فكان الازدياد أكثر، وكان تمدد الأوعية وانشقاقها وتميزها أكثر، فجعل ذكر هذه الملازمة كناية عن شدة الغضب، فإن قيل: النار ليست من الأحياء، فكيف يمكن وصفها بالغيظ قلنا: الجواب من وجوه: أحدها: أن البنية عندنا ليست شرطًا للحياة فلعل الله يخلق فيها وهي نار حياة، وثانيها: أنه شبّه صوت لهبها وسرعة تبادرها بصوت الغضبان وحركته، وثالثها: يجوز أن يكون المراد غيظ الزبانية.

قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ إِنْ أَنْتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾

الصفة الرابعة: قوله تعالى: ﴿كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾.

الفوج: الجماعة من الناس والأفواج الجماعات في تفرقة، ومنه قوله: ﴿فَتَأْتُونَ أَفْوَاجًا﴾ [النبأ: ١٨] و﴿خَزَنَتُهَا﴾ مالك وأعوانه من الزبانية ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ وهو سؤال توبيخ، قال الزجاج: وهذا التوبيخ زيادة لهم في العذاب، **وفي الآية مسألتان:**

المسألة الأولى: احتجت المرجئة على أنه لا يدخل النار أحد إلا الكفار بهذه الآية، قالوا: لأنه تعالى حكى عن كل من ألقي في النار أنهم قالوا: كذبنا النذير، وهذا يقتضي أن من لم يكذب الله ورسوله لا يدخل النار، واعلم أن ظاهر هذه الآية يقتضي القطع بأن الفاسق المصر لا يدخل النار، وأجاب القاضي عنه بأن النذير قد يطلق على ما في العقول من الأدلة المحذرة المخوفة، ولا أحد يدخل النار إلا وهو مخالف للدليل غير متمسك بموجبه.

المسألة الثانية: احتج القائلون بأن معرفة الله وشكره لا يجبان إلا بعد ورود السمع بهذه الآية وقالوا: هذه الآية دلت على أنه تعالى إنما عذبهم لأنه أتاهم النذير، وهذا يدل على أنه لو لم يأتهم النذير لما عذبهم.

ثم إنه تعالى حكى عن الكفار جوابهم عن ذلك السؤال من وجهين:

الأول: قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

واعلم أن قوله: ﴿بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا﴾ اعتراف منهم بعدل الله، وإقرار بأن الله أزاح عللهم ببعثة الرسل، ولكنهم كذبوا الرسل وقالوا: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ **ففيه مسألتان:**

المسألة الأولى: في الآية وجهان: الوجه الأول: وهو الأظهر أنه من جملة قول الكفار وخطابهم للمنذرين، الوجه الثاني: يجوز أن يكون من كلام الخزنة للكفار، والتقدير أن الكفار لما قالوا ذلك الكلام قالت الخزنة لهم: ﴿إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾.

المسألة الثانية: يحتمل أن يكون المراد من الضلال الكبير ما كانوا عليه من ضلالهم في الدنيا، ويحتمل أن يكون المراد بالضلال الهلاك، ويحتمل أن يكون سمى عقاب الضلال باسمه.

قوله تعالى: ﴿وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾

هذا هو الكلام الثاني مما حكاه الله تعالى عن الكفار جوابًا للخزنة حين قالوا: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ [الملك: ٨] والمعنى لو كنا نسمع الإنذار سماع من كان طالبًا للحق أو نعقله عقل من كان متأملاً متفكرًا لما كنا من أصحاب السعير، وقيل: إنما جمع بين السمع والعقل، لأن مدار التكليف على أدلة السمع والعقل **وفي الآية مسائل:**

المسألة الأولى: احتج أصحابنا بهذه الآية في مسألة الهدى والإضلال بأن قالوا لفظة (لو) تفيد امتناع الشيء لامتناع غيره فدلت الآية على أنه ما كان لهم سمع ولا عقل، لكن لا شك أنهم كانوا ذوي أسماع وعقول صحيحة، وأنهم ما كانوا صم الأسماع ولا مجانين، فوجب أن يكون المراد أنه ما كان لهم سمع الهداية ولا عقل الهداية.

المسألة الثانية: احتج بهذه الآية من قال: الدين لا يتم إلا بالتعليم فقال: إنه قدم السمع على العقل تنبيهًا على أنه لا بد أولاً من إرشاد المرشد وهداية الهادي، ثم إنه يترتب عليه فهم المستجيب وتأمله فيما يلقيه المعلم، والجواب: أنه إنما قدم السمع لأن المدعو إذا لقي الرسول فأول المراتب أنه يسمع كلامه ثم إنه يتفكر فيه، فلما كان السمع مقدمًا بهذا السبب على التعقل والتفهم لا جرم قدم عليه في الذكر.

المسألة الثالثة: قال صاحب (الكشاف): ومن بدع التفاسير أن المراد لو كنا على مذهب أصحاب الحديث أو على مذهب أصحاب الرأي، ثم قال كأن هذه الآية نزلت بعد ظهور هذين

المذهبين، وكأن سائر أصحاب المذاهب والمجتهدين قد أنزل الله وعيدهم.

المسألة الرابعة: احتج من فضل السمع على البصر بهذه الآية، وقالوا: دلت الآية على أن للسمع مدخلاً في الخلاص عن النار والفوز بالجنة، والبصر ليس كذلك، فوجب أن يكون السمع أفضل.

قوله تعالى: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ١١﴾

واعلم أنه تعالى لما حكى عن الكفار هذا القول قال: ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ قال مقاتل: يعني بتكذيبهم الرسول وهو قولهم: ﴿فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ﴾ [الملك: ٩] وقوله: ﴿بِذَنۢبِهِمۡ﴾ فيه قولان: أحدهما: أن الذنب هاهنا في معنى الجمع، لأن فيه معنى الفعل، كما يقال: خرج عطاء الناس، أي عطياتهم هذا قول الفراء، والثاني: يجوز أن يراد بالواحد المضاف الشائع، كقوله: ﴿وَإِن تَعُدُّواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ﴾ [إبراهيم: ٣٤].

ثم قال: ﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ قال المفسرون: فبعدًا لهم اعترفوا أو جحدوا، فإن ذلك لا ينفعهم، والسحق البعد، وفيه لغتان: التخفيف والتثقيل، كما تقول في العُنُق والطُّنُب، قال الزجاج: سُحْقًا منصوب على المصدر، والمعنى أسحقهم الله سحقًا، أي باعدهم الله من رحمته مباعدة، وقال أبو علي الفارسي: كان القياس سحاقًا، فجاء المصدر على الحذف كقولهم: عمرك الله.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢ وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار أتبعه بوعد المؤمنين فقال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ وفيه وجهان: الوجه الأول: أن المراد: إن الذين يخشون ربهم وهم في دار التكليف والمعارف النظرية وبهم حاجة إلى مجاهدة الشيطان ودفع الشبه بطريق الاستدلال، الوجه الثاني: أن هذا إشارة إلى كونه متقيًا من جميع المعاصي لأن من يتقي معاصي الله في الخلوة اتقاها حيث يراه الناس لا محالة، واحتج أصحابنا بهذه الآية على انقطاع وعيد الفساق فقالوا: دلت الآية على أن من كان موصوفًا بهذه الخشية فله الأجر العظيم، فإذا جاء يوم القيامة مع الفسق ومع هذه الخشية، فقد حصل الأمران فإما أن يثاب ثم يعاقب وهو بالإجماع باطل أو يعاقب ثم ينقل إلى دار الثواب وهو المطلوب.

واعلم أنه تعالى لما ذكر وعيد الكفار ووعد المؤمنين على سبيل المغايبة رجع بعد ذلك إلى خطاب الكفار فقال: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾. **وفيه وجهان:**

الوجه الأول: قال ابن عباس: كانوا ينالون من رسول الله فيخبره جبريل فقال بعضهم لبعض أسروا قولكم لئلا يسمع إله محمد فأنزل الله هذه الآية.

القول الثاني: أنه خطاب عام لجميع الخلق في جميع الأعمال، والمراد أن قولكم وعملكم على أي سبيل وجد، فالحال واحد في علمه تعالى بهذا فاحذروا من المعاصي سرًّا كما تحترزون عنها جهرًا فإنه لا يتفاوت ذلك بالنسبة إلى علم الله تعالى، وكما بيَّن أنه تعالى عالم بالجهر وبالسر بيَّن أنه عالم بخواطر القلوب.

ثم إنه تعالى لما ذكر كونه عالمًا بالجهر وبالسر وبما في الصدور ذكر الدليل على كونه عالمًا بهذه الأشياء فقال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾. **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: أن معنى الآية أن من خلق شيئًا لا بد وأن يكون عالمًا بمخلوقه، وهذه المقدمة كما أنها مقررة بهذا النص فهي أيضًا مقررة بالدلائل العقلية، وذلك لأن الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين على سبيل القصد، والقاصد إلى الشيء لا بد وأن يكون عالمًا بحقيقة ذلك الشيء فإن الغافل عن الشيء يستحيل أن يكون قاصدًا إليه، وكما أنه ثبت أن الخالق لا بد وأن يكون عالمًا بماهية المخلوق لا بد وأن يكون عالمًا بكميته، لأن وقوعه على ذلك المقدار دون ما هو أزيد منه أو أنقص لا بد وأن يكون بقصد الفاعل واختياره، والقصد مسبوق بالعلم فلا بد وأن يكون قد علم ذلك المقدار وأراد إيجاد ذلك المقدار حتى يكون وقوع ذلك المقدار أولى من وقوع ما هو أزيد منه أو أنقص منه، وإلا يلزم أن يكون اختصاص ذلك المقدار بالوقوع دون الأزيد أو الأنقص ترجيحًا لأحد طرفي الممكن على الآخر لا لمرجح وهو محال، فثبت أن من خلق شيئًا فإنه لا بد وأن يكون عالمًا بحقيقة ذلك المخلوق وبكميته وكيفيته، وإذا ثبتت هذه المقدمة فنقول: تمسك أصحابنا بهذه الآية في بيان أن العبد غير موجد لأفعاله من وجهين:

الوجه الأول: قالوا: لو كان العبد موجدًا لأفعال نفسه لكان عالمًا بتفاصيلها، لكنه غير عالم بتفاصيلها فهو غير موجد لها، بيان الملازمة من وجهين: الأول: التمسك بهذه الآية، الثاني: أن وقوع عشرة أجزاء من الحركة مثلاً ممكن ووقوع الأزيد منه والأنقص منه أيضًا ممكن، فاختصاص العشرة بالوقوع دون الأزيد ودون الأنقص، لا بد وأن يكون لأجل أن القادر المختار خصه بالإيقاع، وإلا لكان وقوعه دون الأزيد والأنقص وقوعًا للممكن المحدث من غير مرجح، لأن القادر المختار إذا خص تلك العشرة بالإيقاع فلا بد وأن يكون عالمًا بأن الواقع عشرة لا أزيد ولا أنقص، فثبت أن العبد لو كان موجدًا لأفعال نفسه لكان عالمًا بتفاصيلها وأما أنه غير عالم بتفاصيلها فلوجوه أحدها: أن المتكلمين اتفقوا على أن التفاوت بين الحركة السريعة والبطيئة لأجل تخلل السكنات، فالفاعل للحركة البطيئة قد فعل في بعض الأحياز حركة وفي بعضها سكونًا مع أنه لم يخطر ألبتة بباله أنه فعل هاهنا حركة وهاهنا سكونًا، وثانيها: أن فاعل حركة لا يعرف عدد أجزاء تلك الحركات إلا إذا عرف عدد الأحياز التي بين مبدأ المسكنة ومنتهاها وذلك يتوقف على علمه بأن الجواهر الفردية التي تتسع لها تلك المسافة من أولها إلى آخرها كم هي؟ ومعلوم أن ذلك غير معلوم، وثالثها: أن النائم والمغمى عليه قد يتحرك من جنب إلى جنب مع

أنه لا يعلم ماهية تلك الحركة ولا كميتها، ورابعها: أن عند أبي علي، وأبي هاشم، الفاعل إنما يفعل معنى يقتضي الحصول في الحيز، ثم إن ذلك المعنى الموجب مما لا يخطر ببال أكثر الخلق، فظهر بهذه الدلالة أن العبد غير موجد لأفعاله، الوجه الثاني: في التمسك بهذه الآية على أن العبد غير موجد أن نقول: إنه تعالى لما ذكر أنه عالم بالسر والجهر وبكل ما في الصدور قال بعده: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ وهذا الكلام إنما يتصل بما قبله لو كان تعالى خالقًا لكل ما يفعلونه في السر والجهر، وفي الصدور والقلوب، فإنه لو لم يكن خالقًا لها لم يكن قوله: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ مقتضيًا كونه تعالى عالمًا بتلك الأشياء، وإذا كان كذلك ثبت أنه تعالى هو الخالق لجميع ما يفعلونه في السر والجهر من أفعال الجوارح ومن أفعال القلوب، فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد: ألا يعلم من خلق الأجسام والعالم الذي خلق الأجسام هو العالم بهذه الأشياء؟ قلنا: إنه لا يلزم من كونه خالقًا لغير هذه الأشياء كونه عالمًا بها، لأن من يكون فاعلاً لشيء لا يجب أن يكون عالمًا بشيء آخر، نعم يلزم من كونه خالقًا لها كونه عالمًا بها لأن خالق الشيء يجب أن يكون عالمًا به.

المسألة الثانية: الآية تحتمل ثلاثة أوجه: أحدها: أن يكون ﴿مَنْ خَلَقَ﴾ في محل الرفع والمنصوب يكون مضمرًا، والتقدير ألا يعلم من خلق مخلوقه، وثانيها: أن يكون من خلق في محل النصب ويكون المرفوع مضمرًا، والتقدير ألا يعلم الله من خلق، والاحتمال الأول أولى لأن الاحتمال الثاني يفيد كونه تعالى عالمًا بذات من هو مخلوقه، ولا يقتضي كونه عالمًا بأحوال من هو مخلوقه والمقصود من الآية هذا لا الأول، وثالثها: أن تكون ﴿مَنْ﴾ في تقدير (ما) كما تكون ما في تقدير (من) في قوله: ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا﴾ [الشمس: ٥] وعلى هذا التقدير تكون (ما) إشارة إلى ما يسره الخلق وما يجهرونه ويضمرونه في صدورهم وهذا يقتضي أن تكون أفعال العباد مخلوقة لله تعالى.

أما قوله: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ فاعلم أنهم اختلفوا في ﴿ٱللَّطِيفُ﴾ فقال بعضهم: المراد العالم، وقال آخرون: بل المراد من يكون فاعلاً للأشياء اللطيفة التي تخفى كيفية عملها على أكثر الفاعلين، ولهذا يقال: إن لطف الله بعباده عجيب ويراد به دقائق تدبيره لهم وفيهم، وهذا الوجه أقرب وإلا لكان ذكر الخبير بعده تكرارًا.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن تعلق هذه الآية بما قبلها هو أنه تعالى بيَّن بالدلائل كونه عالمًا بما يسرون وما يعلنون، ثم ذكر بعده هذه الآية على سبيل التهديد، ونظيره من قال لعبده الذي أساء

إلى مولاه في السر : يا فلان أنا أعرف سرك وعلانيتك فاجلس في هذه الدار التي وهبتها منك، كل هذا الخير الذي هيأته لك ولا تأمن من تأديبي، فإني إن شئت جعلت هذه الدار التي هي منزل أمنك ومركز سلامتك منشأ للآفات التي تتحير فيها ومنبعًا للمحن التي تهلك بسببها، فكذا هاهنا، كأنه تعالى قال: أيها الكفار اعلموا أني عالم بسركم وجهركم، فكونوا خائفين مني محترزين من عقابي، فهذه الأرض التي تمشون في مناكبها، وتعتقدون أنها أبعد الأشياء عن الإضرار بكم، أنا الذي ذللتها إليكم وجعلتها سببًا لنفعكم، فامشوا في مناكبها، فإنني إن شئت خسفت بكم هذه الأرض، وأنزلت عليها من السماء أنواع المحن، فهذا هو الوجه في اتصال هذه الآية بما قبلها.

المسألة الثانية: الذلول من كل شيء: المنقاد الذي يذل لك، ومصدره الذل، وهو الانقياد واللين، ومنه يقال: دابة ذلول، وفي وصف الأرض بالذلول أقوال: أحدها: أنه تعالى ما جعلها صخرية خشنة بحيث يمتنع المشي عليها، كما يمتنع المشي على وجوه الصخرة الخشنة، وثانيها: أنه تعالى جعلها لينة بحيث يمكن حفرها، وبناء الأبنية منها كما يراد، ولو كانت حجرية صلبة لتعذر ذلك، وثالثها: أنها لو كانت حجرية، أو كانت مثل الذهب أو الحديد، لكانت تسخن جدًّا في الصيف، وكانت تبرد جدًّا في الشتاء، ولكانت الزراعة فيها ممتنعة، والغراسة فيها متعذرة، ولما كانت كفاتًا للأموات والأحياء ورابعها: أنه تعالى سخرها لنا بأن أمسكها في جو الهواء، ولو كانت متحركة على الاستقامة، أو على الاستدارة لم تكن منقادة لنا.

المسألة الثالثة: قوله: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ أمر إباحة، وكذا القول في قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾.

المسألة الرابعة: ذكروا في مناكب الأرض وجوهًا: أحدها: قال صاحب (الكشاف): المشي في مناكبها مَثَلٌ لفرط التذليل، لأن المنكبين وملتقاهما من الغارب أرق شيء من البعير، وأبعده من إمكان المشي عليه، فإذا صار البعير بحيث يمكن المشي على منكبه، فقد صار نهاية في الانقياد والطاعة، فثبت أن قوله: ﴿فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا﴾ كناية عن كونها نهاية في الذلولية، وثانيها: قول قتادة والضحاك وابن عباس: إن مناكب الأرض جبالها وآكامها، وسميت الجبال مناكب، لأن مناكب الإنسان شاخصة والجبال أيضًا شاخصة، والمعنى أني سهلت عليكم المشي في مناكبها، وهي أبعد أجزائها عن التذليل، فكيف الحال في سائر أجزائها، وثالثها: أن مناكبها هي الطرق، والفجاج والأطراف والجوانب وهو قول الحسن ومجاهد والكلبي ومقاتل، ورواية عطاء عن ابن عباس، واختيار الفراء، وابن قتيبة قال: مناكبها جوانبها، ومنكبا الرجل جانباه، وهو كقوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ بِسَاطٗا ۝١٩ لِّتَسۡلُكُواْ مِنۡهَا سُبُلٗا فِجَاجٗا﴾ [نوح: ١٩، ٢٠] أما قوله: ﴿وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦ﴾ أي مما خلقه الله رزقًا لكم في الأرض: ﴿وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ﴾ يعني ينبغي أن يكون مكثكم في الأرض، وأكلكم من رزق الله مكث من يعلم أن مرجعه إلى الله، وأكل من يتيقن أن مصيره إلى الله، والمراد تحذيرهم عن الكفر والمعاصي في السر والجهر، ثم إنه تعالى بيَّن أن

بقاءهم مع هذه السلامة في الأرض إنما كان بفضل الله ورحمته، وأنه لو شاء لقلب الأمر عليهم، ولأمطر عليهم من سحاب القهر مطر الآفات. فقال تقريرًا لهذا المعنى:

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ۝١٦﴾

واعلم أن هذه الآيات نظيرها قوله تعالى: ﴿قُلۡ هُوَ ٱلۡقَادِرُ عَلَىٰٓ أَن يَبۡعَثَ عَلَيۡكُمۡ عَذَابٗا مِّن فَوۡقِكُمۡ أَوۡ مِن تَحۡتِ أَرۡجُلِكُمۡ﴾[الأنعام: ٦٥] وقال: ﴿فَخَسَفۡنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلۡأَرۡضَ﴾[القصص: ٨١].

واعلم أن المشبهة احتجوا على إثبات المكان لله تعالى بقوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾، والجواب عنه أن هذه الآية لا يمكن إجراؤها على ظاهرها باتفاق المسلمين، لأن كونه في السماء يقتضي كون السماء محيطًا به من جميع الجوانب، فيكون أصغر من السماء، والسماء أصغر من العرش بكثير، فيلزم أن يكون الله تعالى شيئًا حقيرًا بالنسبة إلى العرش، وذلك باتفاق أهل الإسلام محال، ولأنه تعالى قال: ﴿قُل لِّمَن مَّا فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۖ قُل لِّلَّهِۚ﴾[الأنعام: ١٢] فلو كان الله في السماء لوجب أن يكون مالكًا لنفسه وهذا محال، فعلمنا أن هذه الآية يجب صرفها عن ظاهرها إلى التأويل، ثم فيه وجوه: أحدها: لم لا يجوز أن يكون تقدير الآية: أأمنتم من في السماء عذابه، وذلك لأن عادة الله تعالى جارية بأنه إنما ينزل البلاء على من يكفر بالله ويعصيه من السماء فالسماء موضع عذابه تعالى، كما أنه موضع نزول رحمته ونعمته، وثانيها: قال أبو مسلم: كانت العرب مقرين بوجود الإله، لكنهم كانوا يعتقدون أنه في السماء على وفق قول المشبهة، فكأنه تعالى قال لهم: أتأمنون من قد أقررتم بأنه في السماء، واعترفتم له بالقدرة على ما يشاء أن يخسف بكم الأرض، وثالثها: تقدير الآية: من في السماء سلطانه وملكه وقدرته، والغرض من ذكر السماء تفخيم سلطان الله وتعظيم قدرته، كما قال: ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِي ٱلۡأَرۡضِۖ﴾[الأنعام: ٣] فإن الشيء الواحد لا يكون دفعة واحدة في مكانين، فوجب أن يكون المراد من كونه في السموات وفي الأرض نفاذ أمره وقدرته، وجريان مشيئته في السموات وفي الأرض، فكذا هاهنا، ورابعها: لم لا يجوز أن يكون المراد بقوله: ﴿مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ الملك الموكل بالعذاب، وهو جبريل عليه السلام، والمعنى أن يخسف بهم الأرض بأمر الله وإذنه. وقوله: ﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾ قالوا معناه: إن الله تعالى يحرك الأرض عند الخسف بهم حتى تضطرب وتتحرك، فتعلو عليهم وهم يخسفون فيها، فيذهبون والأرض فوقهم تمور، فتلقيهم إلى أسفل السافلين، وقد ذكرنا تفسير المور فيما تقدم.

قوله تعالى: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾

ثم زاد في التخويف فقال: ﴿أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ حَاصِبٗاۖ﴾.

قال ابن عباس: كما أرسل على قوم لوط فقال: ﴿إِنَّآ أَرۡسَلۡنَا عَلَيۡهِمۡ حَاصِبًا﴾[القمر: ٣٤] والحاصب:

ريح فيها حجارة وحصباء، كأنها تقلع الحصباء لشدتها، وقيل: هو سحاب فيها حجارة.

ثم هدد وأوعد فقال: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾.

قيل في النذير هاهنا إنه المنذر، يعني محمدًا عليه الصلاة والسلام وهو قول عطاء عن ابن عباس والضحاك، والمعنى فستعملون رسولي وصدقه، لكن حين لا ينفعكم ذلك، وقيل: إنه بمعنى الإنذار، والمعنى فستعلمون عاقبة إنذاري إياكم بالكتاب والرسول، و(كَيْفَ) في قوله: ﴿كَيْفَ نَذِيرِ﴾ ينبئ عما ذكرنا من صدق الرسول وعقوبة الإنذار.

واعلم أنه تعالى لما خوَّف الكفار بهذه التخويفات أكد ذلك التخويف بالمثال والبرهان، أما المثال فهو أن الكفار الذين كانوا قبلهم شاهدوا أمثال هذه العقوبات بسبب كفرهم فقال:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ ۚ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ ۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ يعني عادًا وثمود وكفار الأمم، وفيه وجهان: أحدهما: قال الواحدي: ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي إنكاري وتغييري، أليس وجدوا العذاب حقًّا، والثاني: قال أبو مسلم: النكير عقاب المنكر، ثم قال: وإنما سقط الياء من نذيري، ومن نكيري حتى تكون مشابهة لرؤوس الآي المتقدمة عليها، والمتأخرة عنها. وأما البرهان فهو أنه تعالى ذكر ما يدل على كمال قدرته، ومتى ثبت ذلك ثبت كونه تعالى قادرًا على إيصال جميع أنواع العذاب إليهم؛ وذلك البرهان من وجوه:

البرهان الأول: هو قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ وَيَقْبِضْنَ﴾.

﴿صَٰٓفَّٰتٍ﴾ أي باسطات أجنحتهن في الجو عند طيرانها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضممنها إذا ضربن بها جنوبهن. فإن قيل: لم قال: ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ولم يقل: وقابضات، قلنا: لأن الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصل في السباحة مد الأطراف وبسطها وأما القبض فطارئ على البسط للاستظهار به على التحرك، فجيء بما هو طارئ غير أصلي بلفظ الفعل على معنى أنهن صافات، ويكون منهن القبض تارة بعد تارة، كما يكون من السابح.

ثم قال تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ وذلك لأنها مع ثقلها وضخامة أجسامها لم يكن بقاؤها في جو الهواء إلا بإمساك الله وحفظه، **وهاهنا سؤالان:**

السؤال الأول: هل تدل هذه الآية على أن الأفعال الاختيارية للعبد مخلوقة لله، قلنا: نعم، وذلك لأن استمساك الطير في الهواء فعل اختياري للطير.

ثم إنه تعالى قال: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فدل هذا على أن فعل العبد مخلوق لله تعالى.

السؤال الثاني: أنه تعالى قال في النحل: ﴿أَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ مُسَخَّرَٰتٍ فِى جَوِّ ٱلسَّمَآءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ [النحل: ٧٩] وقال هاهنا: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ فما الفرق؟ قلنا: ذكر في

النحل أن الطير مسخرات في جو السماء فلا جرم كان إمساكها هناك محض الإلهية، وذكر هاهنا أنها صافات وقابضات، فكان إلهامها إلى كيفية البسط، والقبض على الوجه المطابق للمنفعة من رحمة الرحمن.

ثم قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ وفيه وجهان: الوجه الأول: المراد من البصير، كونه عالمًا بالأشياء الدقيقة، كما يقال: فلان بصير في هذا الأمر، أي حذق، والوجه الثاني: أن نجري اللفظ على ظاهره فنقول: إنه تعالى شيء، والله بكل شيء بصير، فيكون رائيًا لنفسه ولجميع الموجودات، وهذا هو الذي يقوله أصحابنا من أنه تعالى يصح أن يكون مرئيًا وأن كل الموجودات كذلك، فإن قيل: البصير إذا عدي بالباء يكون بمعنى العالم، يقال: فلان بصير بكذا إن كان عالمًا به، قلنا: لا نسلم، فإنه يقال: إن الله سميع بالمسموعات، بصير بالمبصرات.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

اعلم أن الكافرين كانوا يمتنعون عن الإيمان، ولا يلتفتون إلى دعوة الرسول عليه الصلاة والسلام، وكان تعويلهم على شيئين: أحدهما: القوة التي كانت حاصلة لهم بسبب مالهم وجندهم، والثاني: أنهم كانوا يقولون: هذه الأوثان، توصل إلينا جميع الخيرات، وتدفع عنا كل الآفات وقد أبطل الله عليهم كل واحد من هذين الوجهين، أما الأول فبقوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ ۚ﴾ وهذا نسق على قوله: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ [الملك: ١٧] والمعنى أم من يشار إليه من المجموع، ويقال: هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الله إن أرسل عذابه عليكم، ثم قال: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ أي من الشيطان يغرهم بأن العذاب لا ينزل بهم.

أما الثاني فهو قوله: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ﴾.

والمعنى: من الذي يرزقكم من آلهتكم إن أمسك الله الرزق عنكم، وهذا أيضًا مما لا ينكره ذو عقل، وهذا أنه تعالى لو أمسك أسباب الرزق كالمطر والنبات وغيرهما لما وجد رازق سواه فعند وضوح هذا الأمر قال تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ والمراد أصروا وتشددوا مع وضوح الحق، في عتو أي في تمرد وتكبر ونفور، أي تباعد عن الحق وإعراض عنه، فالعتو بسبب حرصهم على الدنيا وهو إشارة إلى فساد القوة العملية، والنفور بسبب جهلهم، وهذا إشارة إلى فساد القوة النظرية.

واعلم أنه تعالى لما وصفهم بالعتو والنفور، نبه على ما يدل على قبح هذين الوصفين فقال تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال الواحدي: أكبَّ مطاوع كبَّه، يقال: كَبَبْتُه فأكبَّ ونظيره: قشعت الريح

السحاب فأقشع، قال صاحب (الكشاف): ليس الأمر كذلك، وجاء شيء من بناء أفعل مطاوعًا، بل قولك: أكب معناه دخل في الكب وصار ذا كب، وكذلك أقشع السحاب دخل في القشع، وأنفض أي دخل في النفض، وهو نفض الوعاء فصار عبارة عن الفقر وألام دخل في اللوم، وأما مطاوع كب وقشع فهو انكب وانقشع.

المسألة الثانية: ذكروا في تفسير قوله: ﴿يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ وجوهًا: أحدها: معناه أن الذي يمشي في مكان غير مستو بل فيه ارتفاع وانخفاض فيعثر كل ساعة ويخر على وجهه مكبًا فحاله نقيض حال من يمشي سويًا أي قائمًا سالمًا من العثور والخرور، وثانيها: أن المتعسف الذي يمشي هكذا وهكذا على الجهالة والحيرة لا يكون كمن يمشي إلى جهة معلومة مع العلم واليقين، وثالثها: أن الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيتعسف ولا يزال ينكب على وجهه لا يكون كالرجل السوي الصحيح البصر الماشي في الطريق المعلوم، ثم اختلفوا فمنهم من قال: هذا حكاية حال الكافر في الآخرة، قال قتادة: الكافر أكب على معاصي الله فحشره الله يوم القيامة على وجهه، والمؤمن كان على الدين الواضح فحشره الله تعالى على الطريق السوي يوم القيامة، وقال آخرون: بل هذا حكاية حال المؤمن والكافر والعالم والجاهل في الدنيا، واختلفوا أيضًا فمنهم من قال: هذا عام في حق جميع المؤمنين والكفار، ومنهم من قال: بل المراد منه شخص معين، فقال مقاتل: المراد أبو جهل والنبي عليه الصلاة والسلام، وقال عطاء عن ابن عباس: المراد أبو جهل وحمزة بن عبد المطلب وقال عكرمة هو أبو جهل وعمار بن ياسر.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

البرهان الثاني: على كمال قدرته قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾.

اعلم أنه تعالى لما أورد البرهان أولاً من حال سائر الحيوانات، وهو وقوف الطير في الهواء، أورد البرهان بعده من أحوال الناس وهو هذه الآية، وذكر من عجائب ما فيه حال السمع والبصر والفؤاد، ولقد تقدم شرح أحوال هذه الأمور الثلاثة في هذا الكتاب مرارًا فلا فائدة في الإعادة، واعلم أن في ذكرها هاهنا تنبيهًا على دقيقة لطيفة، كأنه تعالى قال: أعطيتكم هذه الإعطاءات الثلاثة مع ما فيها من القوى الشريفة، لكنكم ضيعتموها فلم تقبلوا ما سمعتموه ولا اعتبرتم بما أبصرتموه، ولا تأملتم في عاقبة ما عقلتموه، فكأنكم ضيعتم هذه النعم وأفسدتم هذه المواهب، فلهذا قال: ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ وذلك لأن شكر نعمة الله تعالى هو أن يصرف تلك النعمة إلى وجه رضاه، وأنتم لما صرفتم السمع والبصر والعقل لا إلى طلب مرضاته فأنتم ما شكرتم نعمته ألبتة.

قوله تعالى: ﴿ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ ﴾

البرهان الثالث: قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.

اعلم أنه تعالى استدل بأحوال الحيوانات أولاً ثم بصفات الإنسان ثانيًا وهي السمع والبصر والعقل، ثم بحدوث ذاته ثالثًا وهو قوله: ﴿هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ واحتج المتكلمون بهذه الآية على أن الإنسان ليس هو الجوهر المجرد عن التحيز والكمية على ما يقوله الفلاسفة وجماعة من المسلمين؛ لأنه قال: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فبيّن أنه ذرأ الإنسان في الأرض، وهذا يقتضي كون الإنسان متحيزًا جسمًا، واعلم أن الشروع في هذه الدلائل إنما كان لبيان صحة الحشر والنشر ليثبت ما ادعاه من الابتلاء في قوله: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ﴾ [الملك: ٢] ثم لأجل إثبات هذا المطلوب، ذكر وجوهًا من الدلائل على قدرته، ثم ختمها بقوله: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ ولما كانت القدرة على الخلق ابتداء توجب القدرة على الإعادة لا جرم قال بعده: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ فبيّن بهذا أن جميع ما تقدم ذكره من الدلائل إنما كان لإثبات هذا المطلوب.

واعلم أنه تعالى لما أمر محمدًا ﷺ بأن يخوفهم بعذاب الله حكى عن الكفار شيئين أحدهما: أنهم طالبوه بتعيين الوقت.

وهو قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قال أبو مسلم: إنه تعالى قال: يقول بلفظ المستقبل فهذا يحتمل ما يوجد من الكفار من هذا القول في المستقبل، ويحتمل الماضي، والتقدير: فكانوا يقولون هذا الوعد.

المسألة الثانية: لعلهم كانوا يقولون ذلك على سبيل السخرية، ولعلهم كانوا يقولونها إيهامًا للضعفة أنه لما لم يتعجل فلا أصل له.

المسألة الثالثة: الوعد المسؤول عنه ما هو؟ فيه وجهان: أحدهما: أنه القيامة، والثاني: أنه مطلق العذاب، وفائدة هذا الاختلاف تظهر بعد ذلك إن شاء الله.

ثم أجاب الله عن هذا السؤال بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾.

والمراد أن العلم بالوقوع غير العلم بوقت الوقوع، فالعلم الأول حاصل عندي، وهو كاف في الإنذار والتحذير، أما العلم الثاني فليس إلا لله، ولا حاجة في كوني نذيرًا مبينًا إليه.

قوله تعالى: ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾ ﴾

ثم إنه تعالى بيّن حالهم عند نزول ذلك الوعد فقال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾، **وفيه مسائل:**

المسألة الأولى: قوله ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ الضمير للوعد، والزلفة: القرب، والتقدير: فلما رأوه قربًا ويحتمل أنه لما اشتد قربه، جعل كأنه في نفس القرب. وقال الحسن: معاينة، وهذا معنى وليس بتفسير، وذلك لأن ما قرب من الإنسان رآه معاينة.

المسألة الثانية: قوله: ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ قال ابن عباس: اسودت وعلتها الكآبة والقترة، وقال الزجاج: تبين فيها السوء، وأصل السوء القبح، والسيئة ضد الحسنة، يقال: ساء الشيء يسوء فهو سيئ إذا قبح، وسيىء يساء إذا قبح، وهو فعل لازم ومتعد فمعنى سيئت وجوههم قبحت بأن علتها الكآبة وغشيها الكسوف والقترة وكلحوا، وصارت وجوههم كوجه من يقاد إلى القتل.

المسألة الثالثة: اعلم أن قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ إخبار عن الماضي، فمن حمل الوعد في قوله: ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ [الملك: ٢٥] على مطلق العذاب سهل تفسير الآية على قوله فلهذا قال أبو مسلم في قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ يعني أنه لما أتاهم عذاب الله المهلك لهم كالذي نزل بعاد وثمود سيئت وجوههم عند قربه منهم، وأما من فسر ذلك الوعد بالقيامة كان قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ معناه فمتى ما رأوه زلفة، وذلك لأن قوله: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ إخبار عن الماضي وأحوال القيامة مستقبلة لا ماضية فوجب تفسير اللفظ بما قلناه، قال مقاتل: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ أي لما رأوا العذاب في الآخرة قريبًا.

وأما قوله تعالى: ﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ ففيه مسائل:

المسألة الأولى: قال بعضهم: القائلون هم الزبانية، وقال آخرون: بل يقول بعضهم لبعض ذلك.

المسألة الثانية: في قوله: ﴿تَدَّعُونَ﴾ وجوه: أحدها: قال الفراء: يريد تدعون من الدعاء أي تطلبون وتستعجلون به، وتَدَّعُون وتَدْعُون واحد في اللغة مثل تَذَّكَرُون وتَذْكُرون وتَدَّخِرُون وتَدْخُرُون، وثانيها: أنه من الدعوى معناه: هذا الذي كنتم تبطلونه أي تدعون أنه باطل لا يأتيكم أو هذا الذي كنتم بسببه ﴿تَدَّعُونَ﴾ أنكم لا تبعثون، وثالثها: أن يكون هذا استفهامًا على سبيل الإنكار، والمعنى أهذا الذي تدعون، لا بل كنتم تدعون عدمه.

المسألة الثالثة: قرأ يعقوب الحضرمي (تَدْعُونَ) خفيفة من الدعاء، وقرأ السبعة ﴿تَدَّعُونَ﴾ مثقلة من الادِّعَاء.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أن هذا الجواب هو من النوع الثاني مما قاله الكفار لمحمد ﷺ حين خوفهم

بعذاب الله، يروى أن كفار مكة كانوا يدعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] وقال: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾ [الفتح: ١٢] ثم إنه تعالى أجاب عن ذلك من وجهين:

الوجه الأول: هو هذه الآية، والمعنى قل لهم: إن الله تعالى سواء أهلكني بالإماتة أو رحمني بتأخير الأجل، فأي راحة لكم في ذلك، وأي منفعة لكم فيه، ومن الذي يجيركم من عذاب الله إذا نزل بكم، أتظنون أن الأصنام تجيركم أو غيرها، فإذا علمتم أن لا مجير لكم فهلا تمسكتم بما يخلصكم من العذاب وهو العلم بالتوحيد والنبوة والبعث.

الوجه الثاني: في الجواب قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ۖ فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾.

والمعنى أنه الرحمن آمنا به وعليه توكلنا فيعلم أنه لا يقبل دعاءكم وأنتم أهل الكفر والعناد في حقنا، مع أنا آمنا به ولم نكفر به كما كفرتم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لا على غيره كما فعلتم أنتم حيث توكلتم على رجالكم وأموالكم، وقرئ (فَسَتَعْلَمُونَ) على المخاطبة، وقرىء بالياء ليكون على وفق قوله: ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾.

واعلم أنه لما ذكر أنه يجب أن يتوكل عليه لا على غيره، ذكر الدليل عليه، فقال تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾.

والمقصود أن يجعلهم مقرين ببعض نعمه ليريهم قبح ما هم عليه من الكفر، أي أخبروني إن صار ماؤكم ذاهبًا في الأرض فمن يأتيكم بماء معين، فلا بد وأن يقولوا: هو الله، فيقال لهم حينئذ: فلم تجعلون من لا يقدر على شيء أصلاً شريكًا له في المعبودية؟ وهو كقوله: ﴿أَفَرَءَيْتُمُ ٱلْمَآءَ ٱلَّذِى تَشْرَبُونَ ﴿٦٨﴾ ءَأَنتُمْ أَنزَلْتُمُوهُ مِنَ ٱلْمُزْنِ أَمْ نَحْنُ ٱلْمُنزِلُونَ﴾ [الواقعة: ٦٨-٦٩] وقوله: ﴿غَوْرًا﴾ أي غائرًا ذاهبًا في الأرض يقال: غار الماء يغور غورًا، إذا نضب وذهب في الأرض، والغور هاهنا بمعنى الغائر سمي بالمصدر كما يقال: رجل عدل ورضا، والمعين الظاهر الذي تراه العيون فهو من مفعول العين كمبيع، وقيل: المعين الجاري من العيون من الإمعان في الجري كأنه قيل: ممعن في الجري، والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

سورة المُلْك

مكيَّةٌ في قول الجميع. وتُسَمَّى: الواقية والمُنْجِيَة. وهي ثلاثون آية[1] روى الترمذيُّ عن ابن عباس قال: ضَرَب رجلٌ من أصحاب رسول الله ﷺ خِباءَه على قبر، وهو لا يحسب أنَّه قبر، فإذا قبرُ إنسانٍ يقرأ سورةَ المُلْك حتى خَتَمَها، فأتى النبيَّ ﷺ فقال: يا رسولَ الله، ضربتُ خبائي على قبر، وأنا لا أحسب أنَّه قبر، فإذا قبرُ إنسانٍ يقرأ سورة المُلْك حتى ختمها! فقال رسولُ الله ﷺ: «هي المانعةُ، هي المُنْجِيةُ؛ تُنْجيه من عذاب القبر». قال: حديثٌ حسن غريب[2].

وعنه قال: قال رسول الله ﷺ: «وَدِدْتُ أنَّ «تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ المُلْكُ» في قلب كلِّ مؤمن». ذكره الثعلبي[3].

وعن أبي هريرة قال: قال النبيُّ ﷺ: «إنَّ سورةً من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية، شفعت لرجلٍ حتى أخرجته من النار يوم القيامة، وأدخلته الجنَّة وهي سورة تبارك». خَرَّجه الترمذيُّ بمعناه، وقال فيه: حديث حسن[4].

وقال ابن مسعود: إذا وُضع الميِّت في قبره فيؤتَى من قِبلَ رجليه، فيُقال: ليس

---

(١) الكشاف ٤/ ١٣٣ .

(٢) سنن الترمذي (٢٨٩٠)، وكلامه بتمامه: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه، وفي الباب عن أبي هريرة. اهـ . وفيه يحيى بن عمرو النكري وهو ضعيف. وذكر الحديث الذهبيُّ في ميزان الاعتدال ٤/ ٣٩٩ وعدَّه من مناكير يحيى.

(٣) أخرجه الطبراني في الكبير (١١٦١٦). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٧ : وفيه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف. وأخرجه الحاكم في مستدركه ١/ ٥٦٥ من طريق حفص بن عمر المدني وقال: هذا إسناد عند اليمانيين صحيح، ولم يخرجاه. وتعقبه الذهبي فقال: حفص واه.

(٤) سنن الترمذي (٢٨٩١)، وأخرجه أيضاً بمثل لفظ الترمذي: أحمد (٧٩٧٥)، وأبو داود (١٤٠٠)، والنسائي في الكبرى (١١٦١٢)، وابن ماجه (٣٧٨٦). وهو بلفظ المصنف عند الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٩٧ .

لكم عليه سبيل، فإنَّه كان يقومُ بسورة الملك على قدميه. ثم يُؤتَى من قِبل رأسه، فيقول لسانه: ليس لكم عليه سبيل، إنَّه كان يقرأُ بي[١] سورةَ الملك، ثمَّ قال: هي المانعةُ من عذاب القبر[٢]، وهي في التوراة سورةُ الملك؛ من قرأها في ليلةٍ فقد أكثر وأطيب[٣]. ورُوي أنَّ من قرأها كلَّ ليلةٍ لم يضرَّه الفتان.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ①﴾

﴿تَبَٰرَكَ﴾ تفاعل؛ من البركة. وقد تقدَّم[٤]. وقال الحسن: تقدَّس. وقيل: دام. فهو الدائمُ الذي لا أوَّل لوجوده، ولا آخر لدوامه.

﴿ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ أي: ملكُ السماوات والأرض في الدنيا والآخرة[٥]. وقال ابن عباس: بيده الملك؛ يُعِزُّ من يشاء، ويُذِلُّ من يشاء، ويُحيي ويُميت، ويُغني ويُفقِر، ويُعطي ويمنع[٦]. وقال محمدُ بن إسحاق: له ملك النبوَّة التي أعزَّ بها من اتبعه، وذلَّ بها من خالفه. ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ من إنعامٍ وانتقام[٧].

(١) في (ف) في، وليست في (د) و(ظ) و(ف). والمثبت من (خ) و(ز) و(م).

(٢) في النسخ عدا (ظ): عذاب الله.

(٣) في (د) والمستدرك وشعب الإيمان: أطنب. والمثبت من بقية النسخ والمصادر الآتية، وقول ابن مسعود أخرجه عبد الرزاق في مصنفه (٦٠٢٥)، ومن طريقه الطبراني في المعجم الكبير (٨٦٥١)، وأخرجه الحاكم في مستدركه ٢/ ٤٩٨، وعنه البيهقي في شعب الإيمان (٢٥٠٩). قال الحاكم: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي وقال: الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ١٢٨ : وفيه عاصم بن بهدلة، وهو ثقة. وفيه ضعف، وبقية رجاله رجال الصحيح.

(٤) ٩/ ٢٤٤ و ١٥/ ٣٦٤ - ٣٦٥ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٤٩ .

(٦) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٨/ ٣١٩ مختصراً.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٤٩ . وكلام محمد بن إسحاق منه.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قيل: المعنى خلقكم للموت والحياة؛ يعني: للموت في الدنيا، والحياة في الآخرة[١].

وقدَّم الموتَ على الحياة؛ لأنَّ الموتَ إلى القهر أقرب؛ كما قدَّم البناتِ على البنين فقال: ﴿يَهَبُ لِمَن يَشَآءُ إِنَٰثًا﴾ [الشورى: ٤٩].

وقيل: قدَّمه لأنَّه أقدم؛ لأنَّ الأشياء في الابتداء كانت في حكم الموت؛ كالنُّطْفَة والتراب ونحوه[٢].

وقال قتادة: كانَ رسول الله ﷺ يقول: «إنَّ الله تعالى أذلَّ بني آدم بالموت، وجعلَ الدنيا دارَ حياةٍ ثمَّ دارَ مَوْت، وجعل الآخرةَ دار جزاءٍ ثم دار بقاء»[٣].

وعن أبي الدَّرْدَاء أنَّ النبيَّ ﷺ قال: «لولا ثلاثٌ ما طأطأ ابنُ آدم رأسَه: الفقر، والمرض، والموت، وإنَّه مع ذلك لَوَثَّاب»[٤].

المسألة الثانية: ﴿ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ قُدِّمَ الموتُ على الحياة، لأنَّ أقوى الناس داعياً إلى العمل مَن نَصَب موتَه بين عينيه؛ فَقُدِّم لأنَّه فيما يرجع إلى الغرضِ المسوق له الآيةُ أهمّ[٥].

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٠.

(٢) مجمع البيان ٢٩/ ٦، وينظر تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٥٠. وأخرجه عبد الرزاق في تفسيره ٢/ ٢٩١، والطبري مختصراً ٢٢/ ٦٣٦ و ٢٣/ ١١٨، وابن أبي حاتم كما في تفسير ابن كثير ٨/ ١٧٦، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٧: لعبد بن حميد وابن المنذر وابن أبي حاتم. وهو مرسل.

(٤) لم نقف عليه عن أبي الدرداء، وذكره أبو نعيم في حلية الأولياء ٧/ ٢٧٧ من قول سفيان بن عيينة.

(٥) الكشاف ٤/ ١٣٤.

قال العلماء: الموتُ ليسَ بعدمٍ مَحْضٍ، ولا فَناءٍ صِرْف، وإنَّما هو انقطاعُ تعلُّقِ الروح بالبدن ومفارقته، وحيلولةٌ بينهما، وتبدُّلُ حالٍ، وانتقالٌ من دار إلى دار. والحياةُ عكس ذلك[(١)]. وحُكي عن ابن عباس والكَلْبي ومُقاتل: أنَّ الموتَ والحياة جسمان، فجعل الموت في هيئة كبشٍ لا يمرُّ بشيءٍ ولا يجدُ ريحَه إلا مات، وخَلق الحياة على صورة فرسٍ أنثى بلْقاء - وهي التي كان جبريل والأنبياء عليهم السلام يركبونها - خطوها[(٢)] مدُّ البصر، فوقَ الحمار ودون البغل، لا تمرُّ بشيءٍ يجدُ ريحها إلا حَيِيَ، ولا تطأُ على شيء إلا حَيِيَ. وهي التي أخذ السَّامِرِيُّ من أثرها فألقاه على العجل فَحَيِيَ[(٣)]. حكاه الثعلبيّ والقُشَيري عن ابن عباس[(٤)]. وحكى المَاوَرْدِي[(٥)] معناه عن مقاتل والكلبيّ.

قلت: وفي التنزيل ﴿قُلْ يَتَوَفَّىٰكُم مَّلَكُ ٱلْمَوْتِ ٱلَّذِى وُكِّلَ بِكُمْ﴾ [السجدة: ١١]، ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ [الأنفال: ٥٠]، ثمَّ ﴿تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا﴾ [الأنعام: ٦١]، ثمَّ قال: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ [الزمر: ٤٢]. فالوسائطُ ملائِكةٌ مكرَّمون صلوات الله عليهم. وهو سبحانه المميت على الحقيقة، وإنَّما يُمَثَّل الموت بالكبش في الآخرة[(٦)] ويذبح على الصراط؛ حسب ما ورد به الخبر الصحيح[(٧)]. وما ذُكِر عن ابن عباس يحتاجُ إلى خبرٍ صحيح يَقطع العذر. والله أعلم.

وعن مقاتل أيضاً: خلق الموت؛ يعني: النُّطْفَة والعَلَقَة والمُضْغَة، وخلق الحياة؛

---

(١) ينظر المفهم ٧/ ١٤٥ .

(٢) في (ق) و(م) خطوتها.

(٣) سلف الخبر ١٤/ ١٢٧ .

(٤) وذكره البغوي ٤/ ٣٦٩ .

(٥) في النكت والعيون ٦/ ٥٠ ، ولفظة: حكى. من (ظ).

(٦) وقعت العبارة في (خ) و(ز) و(ف) و(ق): أما إنه يمثل الموت بالكبش في الآخرة، وفي (ظ): أما إنه جاء بمثل الموت من الآخرة بكبش. والمثبت من (د) و(م).

(٧) أخرجه مسلم في صحيحه (٢٨٤٩).

يعني: خَلَق إنساناً ونَفَخ فيه الروح فصار إنساناً[١].

قلت: وهذا قولٌ حسن؛ يدلُّ عليه قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ وتقدَّم الكلام فيه في سورة الكهف[٢].

وقال السُّدِّيّ في قوله تعالى: ﴿الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أكثرُكم للموت ذكراً، وأحسنُ استعداداً، ومنه أشدُّ خوفاً وحذراً[٣].

وقال ابن عمر: تلا النبيُّ ﷺ: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ حتى بلغ: ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾، فقال: «أَوْرَعُ عن محارم الله، وأسرعُ في طاعة الله»[٤].

وقيل: معنى «لِيَبْلُوَكُمْ»: ليعاملَكم معاملةَ المختبر، أي: ليبلُوَ العبدَ بموت من يَعِزُّ عليه؛ ليُبيِّن صبره، وبالحياة؛ ليُبيِّن[٥] شكره. وقيل: خَلَق الله الموتَ للبعث والجزاء، وخَلَق الحياةَ للابتلاء. فاللام في «لِيَبْلُوَكُمْ» تتعلق بخلق الحياة لا بخلق الموت؛ ذكره الزَّجَّاج[٦]. وقال الفَرَّاء والزَّجَّاج أيضاً[٧]: لم تقع البَلْوَى على «أيّ»؛ لأنَّ فيما بين البلوى و«أيّ» إضمارُ فعل؛ كما تقول: بلوتُكم لأنظرَ أيُّكم أطوع. ومثلُه قوله تعالى: ﴿سَلْهُمْ أَيُّهُم بِذَلِكَ زَعِيمٌ﴾ [القلم: ٤٠] أي: سَلْهم، ثمَّ انظرْ أيُّهم. فـ«أيُّكم»[٨] رُفِع بالابتداء، و«أَحْسَنُ» خبره[٩]. والمعنى: ليبلوكم فيعلم أو فينظر

---

(١) تفسير أبي الليث ٣/٣٨٦، وتفسير الرازي ٣٠/ ٥٥.

(٢) ١٣/٢٠٨ - ٢٠٩.

(٣) أخرجه البيهقي في شعب الإيمان (١٠٧٨٨)، وذكره الماوردي في تفسيره ٦/ ٥٠.

(٤) هو حديث ضعيف وسلف ١١/ ٧٦.

(٥) في (ظ): ليتبين. في الموضعين.

(٦) في معاني القرآن ٥/ ١٩٧.

(٧) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٩، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٧.

(٨) في (خ) و(ظ) و(ف) و(ق): فأيهم، وسقطت اللفظة من (د)، والمثبت من (م).

(٩) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩ وكلام الفراء السالف منه.

أيُكم(١) أحسنُ عملاً.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ في انتقامه ممن عصاه. ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمن تاب إليه(٢).

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ أي: بعضُها فوق بعض. والملتزقُ منها أطرافها؛ كذا رُوي عن ابن عباس. و«طِبَاقاً» نعتٌ لـ «سَبْع»؛ فهو وصفٌ بالمصدر. وقيل: مصدرٌ بمعنى المطابقة، أي: خَلَق سبعَ سماواتٍ، وطبَّقها تطبيقاً أو مطابقة. أو على: طُوبقت طِباقاً(٣).

وقال سيبويه: نصب «طباقاً» لأنَّه مفعولٌ ثان.

قلت: فيكون «خَلَقَ» بمعنى جعل وصَيَّر.

وطِباق جمع طَبَق؛ مثل جَمَل وجِمال. وقيل: جمع طبقة. وقال أبَان بن تَغْلِب: سمعتُ بعضَ الأعراب يذمُّ رجلاً فقال: شَرُّهُ طِباق، وخيرُه غير باق(٤).

ويجوز في غير القرآن سبعَ سماوات طباقٍ؛ بالخفض على النعت لسماوات(٥). ونظيره ﴿وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ﴾ [يوسف: ٤٣].

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ قراءةُ حمزةَ والكسائيّ: «مِن تَفَوُّتٍ» بغير ألف مشدَّدة. وهي قراءةُ ابن مسعود وأصحابه(٦). الباقون: «منْ تَفَاوُتٍ» بألف. وهما

(١) لفظة: أيكم. من(ظ) وهو الموافق لإعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٧٦ والكلام منه.

(٢) لفظة: إليه. ليست في (د) و(م). والمثبت موافق لتفسير البغوي ٤/ ٣٦٩.

(٣) ينظر الكشاف ٤/ ١٣٤.

(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٨٨.

(٦) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨، وقراءة حمزة والكسائي في السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢.

لغتان[١]؛ مثل التعاهد والتعهُّد، والتحمُّل والتحامل، والتظهُّر والتظاهر، وتصاغر وتصغّر وتضاعف وتضعّف، وتباعد وتبعّد؛ كلُّه بمعنًى.

واختار أبو عبيد «من تَفَوُّت»، واحتجَّ بحديث عبد الرحمن بن أبي بكر: «أَمِثْلِي يُتَفَوَّتُ عليه في بَنَاتِهِ»[٢]!

النَّحَّاس[٣]: وهذا أمرٌ مردودٌ على أبي عبيد؛ لأنَّ يُتفوّت: يُفتات بهم. «وتفاوت» في الآية أشبه. كما يقال: تباين يقال: تفاوتَ الأمرُ: إذا تباين وتباعد، أي: فات بعضُها بعضاً. أَلَا ترى أنَّ قبلَه قولَه: تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾. والمعنى: ما ترى في خلق الرحمن من اعوجاجٍ ولا تناقضٍ ولا تباين - بل هي[٤] مستقيمةٌ مستويةٌ دالَّة على خالقها - وإنْ اختلفت صُوَره وصفاته.

وقيل: المرادُ بذلك السماوات خاصة، أي: ما ترى في خلق السماوات من عَيْب[٥].

وأصله من الفَوْت؛ وهو أنْ يفوتَ شيءٌ شيئاً، فيقع الخلل لقلَّة استوائها[٦]؛ يدلُّ

---

(١) هو قول الفراء في معاني القرآن له ٣/ ١٧٠ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٤/ ٤٦٨ .

(٢) قطعة من خبر تزويج عائشة رضي الله عنها لحفصة بنت عبد الرحمن من المنذر بن الزبير، وعبد الرحمن غائب بالشام؛ أخرجه مالك ٢/ ٥٥٥ ، وعبد الرزاق (١١٩٤٧)، وسعيد بن منصور (١٦٦٦٢)، وابن أبي شيبة ٤/ ١٣٤ بلفظ يُفتات. بدل يتفوت. وهما بمعنى. قال ابن الأثير في النهاية (فوت): يقال تفَوّت فلان على فلان في كذا، وافتات عليه إذا انفرد برأيه دونه في التصرف فيه . اهـ.

غير أن الحديث الذي احتج به أبو عبيد في غريب الحديث ٢/ ٢٢٨ ونقله عنه الرازي في تفسيره ٣٠/ ٥٧ هو حديث عائشة: قالت: تفوت رجل بمال نفسه على أبيه... أخرجه ابن أبي حاتم في العلل ١/ ٤٧٠ ، وابن عدي في الكامل ٢/ ٦١١ .

(٣) لم نقف على كلامه، ولعله في معانيه، وهو بنحوه في إعراب القرآن له ٤/ ٤٦٨، وذكر فيه اختيار أبي عبيد السالف.

(٤) في (ظ): كل شيء من سماء وغيرها. بدل: بل هي.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨ .

(٦) تفسير غريب القرآن لابن قتيبة ص٤٧٤ .

عليه قول ابن عباس ﷺ: من تَفَرُّق[١]. وقال أبو عبيدة[٢]: يقال: تفوَّت الشيءُ، أي: فات.

ثم أَمَر بأنْ ينظروا في خلقه، ليعتبروا به، فيتفكروا في قدرته فقال: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ أي: أُردُد طَرْفَكَ إلى السماء. ويقال: قلِّب البصر في السماء. ويقال: اِجْهَدْ بالنظر إلى السماء. والمعنى متقارب. وإنما قال: «فَارْجِعِ» بالفاء، وليس قبلَه فعلٌ مذكور؛ لأنَّه قال: «ما تَرَى».

والمعنى: انظر ثمَّ ارجع البصر؛ هل ترى من فُطور؟ قاله قتادة[٣].

والفُطور: الشّقوق، عن مجاهد والضحاك. وقال قتادة: من خَلَل. السُّدِّيّ: من خُروق. ابن عباس: من وَهْن[٤]. وأصلُه من التّفطُّر والانفطار، وهو الانشقاق. قال الشاعر:

بَنَى لكُمُ بِلا عَمَدٍ سماءً ... وَزيَّنَها فما فيها فُطورُ[٥]

وقال آخر:

شَقَقْتِ القلبَ ثمَّ ذَرَرْتِ فيه ... هَواكِ فَلِيم فالتَامَ الفُطُورُ
تَغلْغَل حيثُ لم يبلُغْ شرابٌ ... ولا سَكَرٌ ولم يبلُغْ سرور[٦]

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥١ .

(٢) في (ظ) أبو عبيد.

(٣) النكت والعيون ٦/ ٥١ ولفظه فيه: معناه فانظر إلى السماء.

(٤) النكت والعيون ٦/ ٥١ .

(٥) هو في البحر ٨/ ٢٩٨ بلفظ: وسواها. بدل: وزينها.

(٦) البيتان لعبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود كما في مجالس ثعلب ص٢٣٦ ، وشرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٣/ ١٣٥٤ ، والأغاني ٩/ ١٥١ ، باختلاف يسير وتقديم وتأخير. قال الخطيب التبريزي في شرح الحماسة ٣/ ١٦٧ : فليم يحتمل وجهين: أحدهما ـ وهو الأشبه ـ: أن يريد لئم من الالتئام... والآخر: أن يكون ليم من اللأم، أي: لما عوتب كتم ما به فالتأم فطوره.

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا وَهُوَ حَسِيرٞ ۝٤﴾

قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ كَرَّتَيۡنِ﴾ «كرتينِ» في موضع المصدر؛ لأن معناه رجعتين، أي: مَرَّةً بعد أخرى. وإنَّما أَمَر بالنظر مرتين؛ لأنَّ الإنسان إذا نظر في الشيء مرةً لا يرى عَيْبَه ما لم ينظر إليه مرةً أُخرى. فأخبرَ تعالى أنَّه ـ وإنْ نظر في السماء مرتين ـ لا يرى فيها عيباً، بل يتحيَّر بالنظر إليها؛ فذلك قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾ أي: خاشعاً صاغراً متباعداً عن أنْ يَرى شيئاً من ذلك.

يقال: خسأتُ الكلبَ، أي: أبعدته وطردته. وخسأَ الكلبُ بنفسه؛ يتعدَّى ولا يتعدَّى. وانخسأ الكلبُ أيضاً. وخَسَأ بصرُه خَسْأً وخُسوءاً، أي: سَدِر[١]، ومنه قوله تعالى: ﴿يَنقَلِبۡ إِلَيۡكَ ٱلۡبَصَرُ خَاسِئٗا﴾[٢]. وقال ابن عباس: الخاسئ الذي لم ير ما يهوى[٣].

﴿وَهُوَ حَسِيرٞ﴾ أي: قد بلغ الغايةَ في الإعياء. فهو فعيل[٤] بمعنى فاعل؛ من الحُسور الذي هو الإعياء. ويجوز أنْ يكون مفعولاً من حسره بُعْدُ الشيء[٥]، وهو معنى قول ابن عباس. ومنه قولُ الشاعر:

مَن مَدَّ طَرْفاً إلى ما فوقَ غايتِهِ ارْتدّ خَسْآنَ منه الطَّرْفُ قد حَسَرا[٦]

يقال: قد حَسَر بَصَرُه يَحْسِر حُسوراً، أي: كَلَّ وانقطعَ نظرُه من طول مَدًى، وما أشبه ذلك، فهو حَسيرٌ ومحسورٌ أيضاً[٧]. قال:

---

(١) أي: لم يكد يبصر. اللسان (سدر).

(٢) الصحاح (خسأ).

(٣) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/٥٨ .

(٤) قوله: فعيل، من (ظ).

(٥) ذكر الاحتمالين الأخيرين الرازي في تفسيره ٣٠/٥٩ وعزاهما للواحدي.

(٦) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/٥٢ .

(٧) الصحاح (حسر).

نظرتُ إليها بالمُحَصَّبِ من مِنًى فعادَ إليَّ الطَّرْفُ وهو حسيرُ[١]

وقال آخر يصف ناقة:

فشَطْرَها نَظَرُ العينين محسورُ

نصب «شطرها» على الظرف، أي: نحوَها[٢].

وقال آخر:

والخيلُ شُعْثٌ ما تزال جيادُها حَسْرَى تغادرُ بالطَّريق سِخالَها[٣]

وقيل: إنَّه النادم. ومنه قول الشاعر:

ما أنا اليومَ على شيءٍ خَلَا يا ابنة القين تَوَلَّى بِحَسِرْ[٤]

والمرادُ بـ «كَرَّتَيْنِ» هاهنا التكثير. والدليلُ على ذلك: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ وذلك دليلٌ على كثرة النظر[٥].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ﴾ جمع مصباح، وهو السراج. وتُسَمَّى الكواكبُ مصابيحَ لإضاءتها[٦].

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) الصحاح (حسر)، وشطر البيت المذكور هو لقيس بن خويلد الهذلي، وصدره: إن الحسير بها داءٌ مخامرها. وذكره أبو عبيدة في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٢ .

(٣) البيت للأعشى، وهو في ديوانه ص٨١ وفيه: بالخيل شعثاً، بدل: والخيل شعث، و: رُجْعا، بدل: حسرى. وهو برواية المصنف عند الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٢ .

(٤) البيت للمَرَّار بن منقذ كما في المفضليات ص٨٢ . وفيه: مضى، بدل: خلا، و: القوم، بدل: القين، وهو برواية المصنف في النكت والعيون ٦/ ٥٢ .

(٥) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/ ١٣٥ ، ومجمع البيان ٢٩/ ٧ .

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٧ ، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٠ .

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا﴾ أي: جعلنا شُهُبَها؛ فحذف المضاف. دليلُه ﴿إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾[الصافات: ١٠]. وعلى هذا فالمصابيحُ لا تزول ولا يُرجم بها. وقيل: إنَّ الضميرَ راجعٌ إلى المصابيح على أنَّ الرجم من أنفُس الكواكب، ولا يسقطُ الكوكب نفسُه، إنَّما ينفصلُ منه شيءٌ يُرْجَم به من غير أنْ ينقص ضوءه ولا صورته؛ قاله أبو عليّ[1] جواباً لمن قال: كيف تكون زينةً وهي رجومٌ لا تبقى؟

قال المهدَوِيّ: وهذا على أنْ يكون الاستراقُ من موضع الكواكب، والتقديرُ الأوّل على أنْ يكون الاستراقُ من الهوى[2] الذي هو دونَ موضع الكواكب.

القُشَيْري: وأمثلُ من قول أبي عليّ أنْ نقول: هي زينةٌ قبل أنْ يُرجَم بها الشياطين. والرُّجوم: جمعُ رَجْم، وهو مصدرٌ سُمِّيَ به ما يرجم به[3].

قال قتادة: خَلَق اللّه تعالى النجومَ لثلاث: زينةً للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلاماتٍ يُهتدَى بها في البرِّ والبحر والأوقات. فمن تأوَّل فيها غيرَ ذلك فقد تكلَّف ما لا علم له به، وتعدَّى وظلم[4].

وقال محمدُ بن كعب: والله ما لأحد من أهل الأرض في السماء نجم، ولكنَّهم يتَّخذونَ الكهانةَ سبيلاً[5]، ويتَّخذون النُّجومَ عِلَّةً[6].

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ﴾ أي: أعتدنا للشياطين أشدَّ الحريق؛ يقال: سَعَرْتُ النار؛ فهي مسعورةٌ وسعير؛ مثل: مقتولة وقتيل. ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾.

---

(١) هو الجبائي. وذكر معنى كلامه الطبرسي في مجمع البيان ٢٩/ ٧ . وينظر الكشاف ٤/ ١٣٥ .

(٢) كذا في النسخ، ولعلها: الهواء، ويعني به الفراغ.

(٣) تفسير الرازي ٣٠/ ٥٩ .

(٤) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٣ ، وأخرجه أيضاً ابن أبي حاتم ٩/ ٢٩١٣ (١٦٥٣٦)، وأبو الشيخ في العظمة (٧٠٦) مطولاً.

(٥) لفظة: سبيلاً. من (د) و(م) وليست في باقي النسخ والمصادر.

(٦) أخرجه ابن أبي حاتم ٩/ ٢٨٣١ (١٦٠٤٧)، وأبو الشيخ في العظمة (٧١٠)، وفيهما وفي الدر المنثور ٣/ ٣٥: يتبعون الكهنة.

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا وَهِيَ تَفُورُ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا﴾ يعني الكفار. ﴿سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾ أي: صَوْتاً. قال ابن عباس: الشهيق لجهنم عندَ إلقاء الكفَّار فيها؛ تَشْهَق إليهم شهقةَ البغلة للشعير، ثم تَزفِرُ زفرةً لا يبقى أحدٌ إلَّا خاف. وقيل: الشَّهيقُ من الكفَّار عند إلقائهم في النار[١]؛ قاله عطاء[٢]. والشَّهيق في الصَّدر، والزَّفِير في الحَلْق. وقد مضى في سورة هود[٣].

﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾ أي: تَغْلِي، ومنه قولُ حسان[٤]:

تركتُم قِدْرَكُم لا شيءَ فيها ... وقِدْرُ القوم حاميةٌ تفورُ

قال مجاهد: تفورُ بهم كما يَفور الحَبُّ القليلُ في الماء الكثير[٥]. وقال ابن عباس: تَغْلي بهم غليَ المِرْجَل[٦]؛ وهذا من شدَّة لَهَب النار من شدَّة الغضب؛ كما تقول: فلانٌ يفور غَيْظاً.

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩ وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١٠ فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ۝١١﴾

قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِۖ﴾ يعني: تتقطَّع وينْفصِلُ بعضُها من بعض؛ قاله سعيد بن جُبَير[٧]. وقال ابنُ عباس والضَّحَّاك وابنُ زيد: تتفرَّق. «مِنَ الْغَيْظِ»: من شدَّة

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣.

(٢) وقول عطاء ـ كما ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ٦٣ ـ: سمعوا لأهلها ممن تقدم طرحهم فيها شهيقاً.

(٣) ١١/ ٢١١ - ٢١٢.

(٤) بل هو من قول جبل بن جوال الثعلبي يخاطب به حسان بن ثابت ﷺ. ينظر سيرة ابن هشام ٢/ ٢٧٣، وديوان حسان ص١١٠، وسلف ١١/ ١١٦.

(٥) ذكره الواحدي ٤/ ٣٢٧، والبغوي ٤/ ٣٧٠.

(٦) ذكره الرازي في تفسيره ٣٠/ ٦٣.

(٧) النكت والعيون ٦/ ٥٣.

الغيظ على أعداء الله تعالى. وقيل: «مِنَ الْغَيْظِ»: من الغليان[١]. وأصل «تميّزُ»: تتميز ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾أي: جماعةٌ من الكفار. ﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ﴾ على جهة التوبيخ والتقريع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ أي: رسولٌ في الدنيا ينذركم هذا اليوم حتى تحذروا. ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ أنذرنا وخوَّفنا .﴿فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ﴾ أي: على ألسنتكم .﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ يا معشرَ الرسل ﴿إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ﴾ اعترفوا بتكذيب الرُّسل. ثمَّ اعترفوا بجهلهم[٢]؛ فقالوا وهم في النَّار: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ من النذر ـ يعني الرسل ـ ما جاؤوا به ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ عنهم. قال ابن عباس: لو كنَّا نسمعُ الهدى أو نَعقله[٣]، أو: لو كنَّا نَسمع سماعَ من يَعِي ويفكِّر، أو نعقلُ عقْلَ من يُميِّز وينظر[٤]. ودلَّ هذا على أنَّ الكافر لم يُعْطَ من العقل شيئاً. وقد مضى في «الطُّور» بيانه[٥] والحمد لله.

﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ يعني ما كنَّا من أهل النَّار. وعن أبي سعيدٍ الخُدرِيّ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «لقد نَدِم الفاجرُ يومَ القيامة قالوا: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ فقال الله تعالى: ﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾»[٦]. أي: بتكذيبهم الرسل. والذنبُ هاهنا بمعنى الجمع؛ لأنَّ فيه معنى الفعل. يقال: خَرَج عطاءُ النَّاس، أي: أَعْطِيَتهم[٧].

﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: فبُعْداً لهم من رحمة الله. وقال سعيدُ بن جُبَير وأبو

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣. وتفسير الطبري ٢٣/ ١٢٤ - ١٢٥ .

(٢) الوجيز للواحدي (بحاشية مراح لبيد) ٢/ ٣٨٩ - ٣٩٠ .

(٣) ذكره البغوي في تفسيره ٤/ ٣٧١ .

(٤) معاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٩ .

(٥) ١٩/ ٥٣٤ .

(٦) أخرجه الحارث في مسنده (زوائد الهيثمي) (٨٤٠) من طريق داود بن المحبر. قال الحافظ ابن حجر في المطالب العالية ٣/ ١٣ : [أحاديث] كتاب العقل لداود بن المحبر أودعها الحارث بن أبي أسامة في مسنده، وهي موضوعة كلها، لا يثبت منها شيء.

(٧) في (ظ): أعطياتهم، والكلام بنحوه في تفسير الطبري ٢٣/ ١٢٦ .

صالح: هو وادٍ في جهنَّم يُقال له: السُّحْق[١]. وقرأ الكسائيُ وأبو جعفر: «فَسُحُقاً» بضَمِّ الحاء[٢]، ورُوِيَت عن عليّ[٣]. الباقون بإسكانها، وهما لغتان مثل السُّحْتُ والرُّعْبُ. الزَّجَّاج[٤]: وهو منصوبٌ على المصدر، أي: أسحقَهم الله سُحقاً، أي: باعدَهم بُعْداً. قال امرؤُ القيس:

يـجـولُ بـأطـراف الـبـلاد مُـغـرِّبـاً ... وتَسْحَقُه رِيحُ الصَّبَا كُلَّ مَسْحَقِ[٥]

وقال أبو عليّ[٦]: القياسُ: إسحاقاً، فجاء المصدر على الحذف؛ كما قيل:

وإن أهـلِـك فـذلـك كـان قَـدْري[٧]

أي: تقديري.

وقيل: إنَّ قوله تعالى: ﴿إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾ من قول خزنة جهنَّم لأهلها[٨].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ نظيره: ﴿مَّنۡ خَشِيَ ٱلرَّحۡمَٰنَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٣، وقول سعيد بن جبير أخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٦.

(٢) قراءة الكسائي في السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢، وقراءة أبي جعفر ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٢١٧ من رواية ابن جماز عنه.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٠٠.

(٤) في معاني القرآن ٥/ ١٩٩.

(٥) ديوان امرئ القيس ص١٧١، وفيه: بآفاق. بدل: بأطراف. قال شارحه: وتسحقه: أي تبعده وتذهب به.

(٦) في الحجة ٦/ ٣٠٧.

(٧) هو عجز بيت صدره: فإن يبرأ فلم أنفث عليه. ذكره صاحب المفضليات ص٧٠، ونسبه لرجل من عبد القيس. وذكره أبو علي في الحجة ٢/ ١٢٩، وابن الشجري في أماليه ٢/ ١١٠ دون نسبة. وفي المصادر: يهلك. بدل: أهلك.

(٨) الكشاف ٤/ ١٣٦، والمحرر الوجيز ٥/ ٣٤٠.

[ق:٣٣]. وقد مضى الكلام فيه. أي: يخافون الله، ويخافون عذابَه الذي هو بالغيب، وهو عذابُ يوم القيامة[١]. ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ كَبِيرٌ﴾ وهو الجنة.

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾ اللفظُ لفظ الأمر، والمرادُ به الخبر، يعني: إنْ أخفيتُم كلامَكم في أمر محمدٍ ﷺ، أو جهرتم به؛ فـ ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٢] يعني بما في القلوب من الخير والشر.

ابن عباس: نزلت في المشركين كانوا ينالون من النبيّ ﷺ، فيخبرُه جبريلُ عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسِرُّوا قولَكم كي لا يسمعَ ربُّ محمد[٣]، فنزلت: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِۦٓ﴾، يعني: أسِرُّوا قولَكم في أمر محمدٍ ﷺ، وقيل: في سائر الأقوال. أوِ اجْهَرُوا بِهِ: أعلنوه.

﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ذاتُ الصدور ما فيها؛ كما يسمَّى ولدُ المرأة وهو جنين: «ذا بطنها».

ثم قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ يعني: ألَا يعلمُ السرَّ من خَلَق السرَّ؟! يقول: أنا خلقتُ السرَّ في القلب، أفلا أكونُ عالماً بما في قلوب العباد؟! وقال أهل المعاني: إنْ شئتَ جعلت «مَن» اسماً للخالق جلَّ وعزَّ؛ ويكون المعنى، ألا يعلم الخالقُ خلقَه. وإنْ شئتَ جعلتَه اسماً للمخلوق، والمعنى: ألَا يعلم اللهُ مَن خلق. ولابدَّ أنْ يكون الخالقُ عالماً بما خلقَه وما يخلقه[٤].

---

(١) ينظر الوسيط للواحدي ٤/٣٢٨، والمحرر الوجيز ٥/٣٤٠.

(٢) الكلام بنحوه في الكشاف ٤/١٣٧، ومجمع البيان ٢٩/١٣.

(٣) ذكره الواحدي في أسباب النزول ص٤٧٠، والوسيط ٤/٣٢٩، والبغوي في تفسيره ٤/٣٧١.

(٤) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/٦٨.

قال ابن المسيّب: بينما رجلٌ واقفٌ باللَّيل في شجرٍ كثير، وقد عَصَفت الريح، فوقعَ في نفس الرجل: أترى الله يعلم ما يَسقط من هذا الورق؟ فنودي من جانب الغَيْضة بصوتٍ عظيم: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾.

وقال الأستاذ أبو إسحاق الإسفرايِيني: مِن أسماء صفات الذَّات ما هو للعلم:

منها: «العَلِيمُ»، ومعناه: تعميمُ جميع المعلومات.

ومنها: «الخَبِيرُ»، ويختصُّ بأنْ يَعلم ما يكون قبلَ أنْ يكون.

ومنها: «الحَكِيم»، ويختصُّ بأنْ يعلمَ دقائقَ الأوصاف.

ومنها: «الشهيد»، ويختصُّ بأنْ يَعلم الغائبَ والحاضر، ومعناه أنَّه لا[١] يغيبُ عنه شيءٌ.

ومنها: «الحافظ»، ويختصُّ بأنَّه لا ينسى.

ومنها: «المُحْصِي»، ويختصُّ بأنَّه لا تَشْغله الكثرةُ عن العلم؛ مثل ضوء النُّور، واشتدادِ الريح، وتساقطِ الأوراق؛ فيَعلمُ عند ذلك [عدد] أجزاءِ الحركات في كلِّ ورقة. وكيف لا يَعلم وهو الذي يَخلق؟! وقد قال: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾[٢].

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ أي: سهلة تستقرُّون[٣] عليها. والذَّلول: المنقادُ الذي يَذِلُّ لك، والمصدر: الذِّل؛ وهو اللِّينُ والانقياد[٤]. أي: لم

(١) في (د): إذ لا. وفي (خ) و(ز) و(ف) و(ق) و(م): أن لا. والمثبت من (ظ) وشعب الإيمان.

(٢) شعب الإيمان ١/١٢١ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في (ظ): يستقر.

(٤) ينظر تفسير الرازي ٣٠/٦٨ .

يجعل الأرضَ بحيثُ يمتنع المشيُ فيها بالحزونة والغِلظة[١]. وقيل: أي: ثَبَّتها بالجبال لئلَّا تزولَ بأهلها؛ ولو كانت تتكفَّأُ متمايلةً لما كانت منقادةً لنا. وقيل: أشارَ إلى التمكُّن من الزرع والغرس، وشقِّ العيون والأنهار وحفر الآبار.

﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ هو أمرُ إباحة[٢]، وفيه إظهار الامتنان. وقيل: هو خبرٌ بلفظ الأمر، أي: لكي تمشوا في أطرافِها ونواحيها، وآكامها وجبالها[٣].

وقال ابن عباس وقتادةُ وبُشَير بن كعب[٤]: «في مَنَاكِبِهَا»: في جبالها[٥]. ورُوِيَ أنَّ بُشَير بن كعب كانت له سُرِّيّة فقال لها: إنْ أَخْبرتِني ما مناكب الأرض فأنت حرَّة. فقالت: مناكبُها جبالُها. فصارت حرَّة، فأرادَ أنْ يتزوَّجها، فسألَ أبا الدرداء فقال: دَعْ ما يَرِيبُك إلى ما لا يَرِيبُك[٦].

مجاهد: في أطرافها. وعنه أيضاً: في طرقها وفِجاجها[٧]. وقاله السُّدِّيُّ والحسن[٨]. وقال الكَلْبي: في جوانبها. ومَنْكِبَا الرجل: جانباه[٩]. وأصلُ المَنْكِب الجانب، ومنه مَنْكِب الرجل، والريح النكباء، وتَنَكَّب فلانٌ عن فلان[١٠]. يقول:

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٦٩ .

(٣) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٨٨ .

(٤) هو أبو أيوب الحميري العدوي البصري، العابد، أحد المخضرمين، وثَّقه النسائي وغيره، وكان أحد القراء والزهاد. سير أعلام النبلاء ٤/ ٣٥١ .

(٥) النكت والعيون ٦/ ٥٤ .

(٦) تفسير أبي الليث ٣/ ٣٨٨ ، وأخرجه الطبري بنحوه ٢٣/ ١٢٨ . وقول أبي الدرداء: «دع ما يريبك إلى ما لايريبك» هو قطعة من حديث مرفوع أخرجه أحمد (١٧٢٣)، والترمذي (٢٥١٨)، والنسائي في المجتبى ٨/ ٣٢٧ . عن الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٧) تفسير مجاهد ٢/ ٦٨٥ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٢٩ .

(٨) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٤ عن مجاهد والسدي، وذكره عن الحسن البغويُّ ٤/ ٣٧١ .

(٩) وهو قول ابن قتيبة في غريب القرآن ص٤٧٥ ، ونقله عنه أبو الليث في تفسيره ٣/ ٣٨٨ ، والبغوي ٤/ ٣٧١ ، والرازي ٣٠/ ٦٩ . وقول الكلبي كما ذكره البغوي ٤/ ٣٧١ . مناكبها: أطرافها.

(١٠) تفسير البغوي ٤/ ٣٧١ .

امشوا حيثُ أردتم فقد جعلتُها لكم ذَلولاً لا تمتنع.

وحَكى قتادة عن أبي الجلد: أنَّ الأرضَ أربعةٌ وعشرون ألف فرسخ؛ فللسودان اثنا عشر ألفاً، وللروم ثمانيةُ آلاف، وللفرس ثلاثةُ آلاف، وللعرب ألف[1].

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ أي: مما أحلَّه لكم؛ قاله الحسن. وقيل: مما أنبتَه[2] لكم. ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: المرجع. وقيل: معناه أنَّ الذي خلق السماء لا تفاوتَ فيها، والأرضَ ذَلولاً قادرٌ على أنْ يُنشِرَكم[3].

قوله تعالى: ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

قال ابن عباس: أمِنتم عذابَ من في السماء إنْ عصيتموه[4]. وقيل: تقديره أمِنتم[5] من في السماء قدرتُه وسلطانُه وعرشُه ومملكتُه[6]. وخصَّ السماء ـ وإنْ عَمَّ مُلْكُه ـ تنبيهاً على أنَّ الإله الذي تنفذُ قدرتُه في السماء، لا من يعظِّمونَه في الأرض. وقيل: هو إشارةٌ إلى الملائكة[7]. وقيل: إلى جبريل، وهو المَلَكُ المُوَكَّل بالعذاب[8].

قلت: ويَحتمل أنْ يكون المعنى: أمنتم خالقَ مَن في السماء أنْ يخسفَ بكم الأرض كما خسفَها بقارون.

﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تَذهبُ وتجيء. والمَوْر: الاضطرابُ بالذهاب والمجيء. قال الشاعر:

---

(١) النكت والعيون ٦/ ٥٤ .

(٢) في (م) أتيته، والمثبت من النسخ الخطية والنكت والعيون ٤/ ٥٥ والكلام منه.

(٣) الكلام بنحوه في معاني القرآن للزجاج ٥/ ٢٠٠ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧١ ، وزاد المسير ٨/ ٣٢٢ .

(٥) في (م) أألمتم. في الموضعين.

(٦) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٧٠ .

(٧) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٦/ ٥٥ عن ابن بحر.

(٨) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٢٩ ، وتفسير الرازي ٣٠/ ٧٠ .

رَمَيْنَ فأقْصَدْنَ القلوبَ ولن ترى دماً مائراً إلَّا جَرَى في الحَيَازمِ[١]

جمع حَيْزوم، وهو وسطُ الصدر. وإذا خُسِف بإنسانٍ دارت به الأرض، فهُو المَوْر.

وقال المحققون: أمنتم مَن فوق السماء؛ كقوله: ﴿فَسِيحُواْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [التوبة: ٢] أي: فوقَها، لا بالمماسَّة والتحيُّز، لكن بالقهر والتدبير. وقيل: معناه: أمنتم مَنْ على السماء؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِى جُذُوعِ ٱلنَّخْلِ﴾ [طه: ٧١] أي: عليها[٢]. ومعناه أنَّه مُدبِّرها ومالكُها؛ كما يقال: فلانٌ على العراق والحجاز، أي: واليها وأميرها. والأخبارُ في هذا الباب كثيرةٌ صحيحةٌ منتشرة، مشيرةٌ إلى العلوّ؛ لا يدفعها إلَّا مُلْحِدٌ أو جاهلٌ معاند؛ والمرادُ بها: توقيرُه وتنزيهُه عن السُّفل والتَّحت. ووصفه بالعلوّ والعظمة، لا بالأماكن والجهات والحدود؛ لأنَّها صفات الأجسام. وإنَّما تُرفع الأيدي بالدعاء إلى السماء؛ لأنَّ السماءَ مَهْبِطُ الوحي، ومَنزِلُ القطر، ومَحِلُّ القُدس، ومعدنُ المُطهَّرين من الملائكة، وإليها تُرفعُ أعمالُ العباد، وفوقها عرشُه وجنَّته؛ كما جعلَ الله الكعبةَ قِبلةً للصَّلاة[٣]، ولأنَّه خَلقَ الأمكنةَ وهو غير محتاجٍ إليها، وكان في أزله قبل خلق المكان والزمان ولا مكان له ولا زمان. وهو الآن على ما عليه كان.

وقرأ قُنْبل عن ابن كَثير: «النُّشور وامنتم» بقلبِ الهمزة الأولى واواً وتخفيف الثانية[٤]. وقرأ الكوفيون والبصريون وأهلُ الشام سوى أبي عمرو وهشام بالتحقيق[٥]

---

(١) البيت لأبي حية النمري، وهو في الكامل ١/ ١٠٠، والأمالي ٢/ ٢٨١ قال في رغبة الآمل ١/ ٢٣٢: فأقصدن القلوب: أصبنها؛ من قولهم: قصدت الرجل: إذا طعنته أو رميته فلم تخطئ مقاتله. دماً مائراً: سائلاً، من مار الدم يمور: سال.

(٢) ينظر الأسماء والصفات للبيهقي ٢/ ٣٢٤، والمفهم ٢/ ١٤٤.

(٣) في (م): للدعاء والصلاة.

(٤) يعني في الوصل. السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ) و(م): بالتخفيف وهو خطأ.

في الهمزتين، وخفَّف الباقون[١]. وقد تقدَّم جميعُه[٢].

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارةً من السماء كما أرسلَها على قوم لوط وأصحاب الفِيل. وقيل: ريحٌ فيها حجارةٌ وحَصْباء. وقيل: سحابٌ فيه حجارة. ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري. وقيل: النذيرُ بمعنى المنذر؛ يعني: محمداً ﷺ، أي: فستعلمون صدقَه وعاقبةَ تكذيبكم[٣].

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني: كفار الأمم؛ كقوم نوحٍ وعادٍ وثمود، وقومِ لوطٍ، وأصحابِ مَدْيَن، وأصحابِ الرَّسِّ، وقومِ فرعون. ﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري. وقد تقدَّم[٤].

وأثبتَ وَرْش الياء في «نذيري، ونكيري» في الوصل. وأثبتَها يعقوب في الحالين. وحذفَ الباقون اتِّباعاً للمصحف[٥].

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ﴾ أي: كما ذلَّل الأرضَ للآدميّ،

---

(١) غير أن أبا عمرو البصري وقالون يدخلان ألفاً بينهما. ولهشام التسهيل والتحقيق مع الإدخال فيهما، ولورش وجه آخر: الإبدال مع القصر. ينظر السبعة ص٦٤٤، والتيسير ص٢١٢، والنشر ١/٣٦٣ - ٣٦٤.

(٢) ١/٢٨٢ - ٢٨٣.

(٣) ينظر تفسير الرازي ٣٠/ ٧٠.

(٤) ١٤/ ٤١٤.

(٥) التيسير ص٢١٣، والنشر ٢/ ٣٨٩.

ذلَّل الهواءَ للطيور. و«صَافَّات» أي: باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوِّ عند طيرانها؛ لأنَّهنَّ إذا بسطنَها صَففْنَ قوادمها[1] صَفاً. ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ أي: يضربْنَ بها جُنُوبَهُنَّ.

قال أبو جعفر النحاس: يقال للطائر إذا بسط جناحيه: صافٌّ، وإذا ضَمَّهما فأصابا جَنْبَه: قابضٌ؛ لأنَّه يقبضُهما. قال أبو خِرَاش:

يبادر جُنْحَ الليل فهو مُوائل[2] يَحُثُّ الجناح بالتَّبَسُّطِ والقَبْضِ[3]

وقيل: ويقبضنَ أجنحتَهُنَّ بعد بسطها: إذا وقفنَ من الطيران. وهو معطوفٌ على «صَافَّاتٍ» عطفَ المضارع على اسم الفاعل؛ كما عطفَ اسم الفاعل على المضارع في قول الشاعر:

باتَ يُغَشِّيها[4] بعَضْبٍ باتر يَقْصِدُ في أسْوُقِها وجائرِ[5]

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ أي: ما يُمسِكُ الطيرَ في الجوِّ وهي تطير إلَّا اللهُ عزَّ وجلَّ. ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ﴾.

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ ۚ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ قال ابن عباس: حزبٌ وَمَنَعَةٌ لكم[6].

---

(١) في (د) و(ز) و(م): قوائمها، وفي (ق) قواه، والمثبت من (خ) والكشاف ٤/ ١٣٨، والكلام منه. وقوادم الطير: مقاديم ريشه، وهي عشرٌ في كل جناح، الواحدة قادمة. الصحاح (قدم).

(٢) موائل: من واءل فلان مواءلة ووئالاً: لجأ وخلص، ووائل الطائر: لاوذ بشيءٍ خوفاً من الصقر. المعجم الوسيط (وأل). ووقع في المصادر الآتية: مهابذ بدل: موائل. قال أبو علي القالي: المهابذ: المجاهد في العدو والسير، ويقال: أهذب وأهبذ؛ إذا اجتهد في الإسراع.

(٣) البيت في ديوان الهذليين ٢/ ١٥٩، والكامل ٢/ ٧١٤، والأمالي ١/ ٢٧١.

(٤) في (م) يعشيها. بالمهملة، وكذا رواية البيت في خزانة الأدب ٥/ ١٤٠. قال البغدادي: يعشيها: أي يطعمها العَشاء.. قال: ورأيت في أمالي ابن الشجري [٢/ ٤٣٧] في نسخة صحيحة قد صححها أبو اليُمن الكندي، وعليها خطوط العلماء وإجازاتهم: «بات يغشيها» بالغين المعجمة من الغِشاء كالغِطاء، بكسر أولهما وزناً ومعنىً، أي: يشملُها ويَعُمُّها.

(٥) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤٢، والعضب: السيف، ويقصد أي: توسَّط ولم يجاوز الحد، وأسوق: جمع قلة لساق، وهي ما بين الركبة والقدم. خزانة الأدب ٥/ ١٤١ - ١٤٢.

(٦) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٢.

﴿يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ فيدفع عنكم ما أرادَ بكم إنْ عصيتُموه. ولفظُ الجُنْد يُوَحَّد؛ ولهذا قال: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ﴾ وهو استفهامُ إنكار، أي: لا جندَ لكم يدفعُ عنكم عذابَ الله ﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: مِنْ سوى الرحمن.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ من الشياطين؛ تغرُّهم بأنْ لا عذابَ ولا حساب[١].

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ ۚ بَل لَّجُّوا۟ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾ أي: يعطيكم منافعَ الدنيا. وقيل: المطر من آلهتكم. ﴿إِنْ أَمْسَكَ﴾ يعني: الله تعالى رزقَه. ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ أي: تمادَوا وأصروا. ﴿فِى عُتُوٍّ﴾: طغيان ﴿وَنُفُورٍ﴾ عن الحق.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ﴾ ضرب الله مثلاً للمؤمن والكافر؛ «مُكِبًّا» أي: مُنكّساً رأسَه لا ينظر أمامَه ولا يمينَه ولا شمالَه؛ فهو لا يأمنُ من العثور والانكباب على وجهه؛ كمن يمشي سوِيّاً معتدلاً ناظراً ما بين يديه وعن يمينه وعن شماله[٢]. قال ابن عباس: هذا في الدنيا. ويجوزُ أنْ يريدَ به الأعمى الذي لا يهتدي إلى الطريق فيعتسِفُ[٣]؛ فلا يزال يَنْكبُّ على وجهه، وأنَّه ليس كالرجل السوِيِّ الصحيح البصر[٤] الماشي في الطريق المهتدي له. وقال قتادة: هو الكافر أكبَّ على معاصي الله في الدنيا، فحشَره الله يومَ القيامة على وجهه. وقال ابن عباس والكَلْبيّ: عَنَى بالذي يمشي مُكِباً على وجهه أبا جهل، وبالذي يمشي سَوِيّاً رسولَ الله ﷺ.

---

(١) الوسيط للواحدي ٤/ ٣٣٠، وتفسير البغوي ٤/ ٣٧٢ بنحوه.

(٢) الكلام بنحوه في النكت والعيون ٦/ ٥٦.

(٣) العسف والاعتساف: السير بغير هداية والأخذ على غير طريق. اللسان (عسف)

(٤) في (د) و(ق) و(م): البصير، وفي (ز): البصري، وفي (ظ) الباصر والمثبت من (خ) و(ف) وهو الموافق للكشاف ٤/ ١٣٩. والكلام منه.

وقيل: أبو بكر. وقيل: حمزة[١]. وقيل: عمَّار بن ياسِر؛ قاله عكرمة[٢].

وقيل: هو عامٌّ في الكافر والمؤمن؛ أي: إنَّ الكافرَ لا يدري أعلى حقٍّ هو أم على باطل، أي: أهذا الكافرُ أهدى، أو المسلمُ الذي يمشي سَوِيّاً معتدلاً يُبصرُ الطريقَ وهو ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ وهو الإسلام؟[٣].

ويقال: أكبَّ الرجلُ على وجهه؛ فيما لا يتعدَّى بالألف. فإذا تعدَّى قيل: كبَّه الله لوجهه؛ بغير ألف[٤].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ أمر نبيَّه أنْ يُعرِّفَهم قُبح شركهم مع اعترافهم بأنَّ اللهَ خلقهم. ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ يعني القلوب ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: لا تشكرون هذه النِّعم، ولا تُوحِّدون الله تعالى[٥]. تقول: قلَّما أفعلُ كذا، أي: لا أفعله.

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم في الأرض؛ قاله ابن عباس. وقيل: نشرَكُم فيها وفرَّقكُم على ظهرها؛ قاله ابن شجرة[٦]. ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ حتى يجازِيَ كُلًّا بعمله.

---

(١) الكشاف ٤/١٣٩، دون قوله: وقيل: أبو بكر.

(٢) النكت والعيون ٦/٥٦.

(٣) في (خ) و(ز) و(ف): وهو على طريق مستقيم وهو الإسلام.

(٤) الكلام بنحوه في المحرر الوجيز ٥/٣٤٣.

(٥) ينظر الوسيط للواحدي ٤/٣٣٠.

(٦) النكت والعيون ٦/٥٦.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ أي: متى يوم القيامة؟ ومتى هذا العذابُ الذي تَعِدوننا به؟ وهذا استهزاءٌ منهم. وقد تقدَّم[1].

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝٢٦﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ أي: قُلْ لهم يا محمد: عِلْمُ وقتِ قيام الساعة عند الله؛ فلا يَعْلمه غيره. نظيرُه: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧] الآية.

﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أي: مخوِّف ومُعلم لكم.

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ۝٢٧﴾

قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً﴾ مصدرٌ بمعنى مُزْدلفاً، أي: قريباً؛ قاله مجاهد[2]. الحسن: عِياناً[3]. وأكثر المفسرين على أنَّ المعنى: فلمَّا رأوه يعني العذاب؛ وهو عذابُ الآخرة. وقال مجاهد: يعني عذابَ بدر[4]. وقيل: أي: رأوا ما وُعِدوا من الحشر قريباً منهم. ودلَّ عليه ﴿تُحْشَرُونَ﴾. وقال ابن عباس: لما رأَوا عملَهم السَّيِّىء قريباً.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: فُعِلَ بها السوء. وقال الزجاج[5]: تُبُيِّن فيها السوء، أي: ساءَهم ذلك العذاب، وظهر على وجوههم سِمَةٌ تدلُّ على كفرهم؛ كقوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾ [آل عمران:١٠٦][6].

---

(١) ٥/١١ .

(٢) تفسير مجاهد ٢/ ٦٨٦ ، وأخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٦ .

(٣) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٥ .

(٤) تفسير البغوي ٤/ ٣٧٣ .

(٥) في معاني القرآن ٥/ ٢٠١ .

(٦) النكت والعيون ٦/ ٥٧ .

وقرأ نافعٌ وابن مُحَيْصِن وابنُ عامر والكسائيُّ: «سيئت» بإشمام الضَّمِّ[(١)]. وكَسَر الباقون بغير إشمامٍ طلباً للخِفَّة. ومن ضمَّ لاحظَ الأصل.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ قال الفرّاء[(٢)]: «تَدَّعُونَ»: تفتعلون من الدعاء. وهو قولُ أكثر العلماء، أي: تَتمنَّون وتسألون. وقال ابنُ عباس: تَكْذِبون؛ وتأويلُه: هذا الذي كنتم مِن أجله تَدَّعون الأباطيل والأحاديث؛ قاله الزجاج[(٣)].

وقراءةُ العامة: «تدَّعون» بالتشديد، وتأويلُه ما ذكرناه. وقرأ قتادةُ وابنُ أبي إسحاق والضَّحَّاك ويعقوب[(٤)]: «تَدْعون» مخفَّفَةً. قال قتادة: هو قولهم: ﴿رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا﴾ [ص:١٦]. وقال الضَّحَّاك: هو قولهم: ﴿ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ الآية [الأنفال: ٣٢][(٥)].

وقال أبو العباس: «تَدَّعُونَ»: تستعجلون؛ يقال: دعوتُ بكذا: إذا طلبتَه؛ وادَّعيت: افتعلت منه.

النَّحَّاس: «تَدَّعُونَ، وتَدْعُون» بمعنىً واحد؛ كما يقال: قَدَر واقتدَر، وعَدَى واعتَدَى؛ إلَّا أنَّ في «افتعل» معنى شيء بعد شيء، و«فَعَل» يقع عل القليل والكثير.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾ أي: قل لهم يا محمد ـ يريدُ مشركي مكَّة، وكانوا يَتمنَّوْن موتَ محمدٍ ﷺ؛ كما قال تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ

(١) التيسير ص١٢٥ عن نافع وابن عامر والكسائي.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ١٧١ بنحوه.

(٣) في معاني القرآن ٥/ ٢٠١ . وفيه: والأكاذيب. بدل: والأحاديث.

(٤) قراءة يعقوب ـ وهو من العشرة ـ في النشر ٢/ ٣٨٩ ، وقراءة قتادة والضحاك في تفسير الطبري ١٣٧/٢٣ ، والمحتسب ٢/ ٣٢٥ .

(٥) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٧ .

﴿ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠] ـ: أرأيتم إنْ مِتْنَا، أو رُحِمْنَا فأُخِّرت آجالُنا، فمن يجيرُكم من عذاب الله؟ فلا حاجةَ بكم إلى التربُّص بنا، ولا إلى استعجال قيام الساعة.

وأسكنَ الياء في «أهلكني»: ابنُ مُحَيْصِن، والْمُسَيَّبِيُّ، وشيبةُ، والأعمشُ، وحمزة[1]. وفتحَها الباقون. وكلُّهم فتحَ الياء في «ومَنْ معيَ» إلَّا أهلَ الكوفة؛ فإنَّهم سكَّنُوها، وفتحَها حَفْص كالجماعة[2].

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ﴾ قرأ الكِسَائيُّ بالياء على الخبر؛ ورواه[3] عن عليّ. الباقون بالتاء على الخطاب[4]، وهو تهديدٌ لهم. ويقال: لم أخَّر مفعول «آمَنَّا»، وقدَّم مفعول «تَوَكَّلْنَا»، فيقال: لِوُقوع «آمَنَّا» تعريضاً بالكافرين حينَ ورد عقيب ذكرهم، كأنَّه قيل: آمَنَّا ولم نكفر كما كفرتم، ثم قال: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ خصوصاً؛ لم نَتَّكِل على ما أنتم مُكلون عليه من رجالكم وأموالكم؛ قاله الزَّمَخْشَرِيّ[5].

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ يا معشر قريش ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائِراً ذاهباً في الأرض لا تنالُه الدِّلاء. وكان ماؤُهم من بئرين: بئر زمزم وبئر ميمون[6].

---

(١) قراءة حمزة في السبعة ص٤٦٥، والتيسير ص٢١٣، وقراءة المسيبي في السبعة ص٤٦٥، والمحرر الوجيز ٥/٣٤٣.

(٢) السبعة ص٤٦٥، والتيسير ص٢١٣.

(٣) في (ظ): وروى، وفي(ق). ورواية.

(٤) السبعة ص٤٦٥، والتيسير ص٢١٢.

(٥) في الكشاف ٤/١٤٠.

(٦) ينظر النكت والعيون ٦/٥٧، وتفسير البغوي ٤/٣٧٣. وقال ابن عطية في المحرر الوجيز ٥/٣٤٤: ويشبه أن تكون هاتان عُظم ماء مكة، وإلا فكانت فيها بئار كثيرة كخم والجفر وغيرهما.

﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: جارٍ؛ قاله قتادةُ والضَّحَّاك[١]. فلا بدَّ لهم من أنْ يقولوا: لا يأتينا به إلَّا الله؛ فقل لهم: لِم تُشركون به من لا يَقْدر على أنْ يأتِيَكم؟ يقال: غارَ الماءُ يَغُور غوراً، أي: نَضَب. والغَوْر: الغائر؛ وُصِف بالمصدر للمبالغة؛ كما تقول: رجلٌ عَدْلٌ ورِضاً[٢]. وقد مضى في سورة الكهف[٣]، ومضى القولُ في المعنى في سورة المؤمنون[٤]. والحمد لله.

وعن ابن عباس: ﴿بِمَآءٍ مَّعِينٍ﴾ أي: ظاهرٍ تراهُ العيون؛ فهو مفعول، وقيل: هو من: مَعَن الماءُ، أي: كثُر، فهو على هذا فعيل[٥]. وعن ابن عباس أيضاً: أنَّ المعنى فمن يأتيكم بماء عَذْب؟[٦]. والله أعلم.

---

(١) أخرج قولهما الطبري ٢٣/ ١٣٩ .

(٢) تفسير الرازي ٣٠/ ٧٦ .

(٣) ١٣/ ٢٨٤ .

(٤) ١٥/ ٢٣ - ٢٤ .

(٥) الكلام بنحوه في تفسير الرازي ٣٠/ ٧٦ .

(٦) أخرجه الطبري ٢٣/ ١٣٩ .

سُورَةُ المُلْكِ

مكيـةٌ، وتُسـمَّى: الواقيةَ والمُنجيـةَ؛ لأنَّها تَقِي وتُنْجِـي قارئَها مِن عـذابِ القبرِ، وآيُهـا ثلاثون.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) ـ ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾: بقبضةِ قُـدرَتِه[1] التَّصرُّفُ في الأمورِ كُلِّها ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ﴾: على كلِّ ما يشاءُ ﴿قَدِيرٌ﴾.

(٢) ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾: قدَّرهمـا، أو أوجـدَ الحيـاةَ وأزالَـها حسبَما قـدَّرَه، وقُـدِّمَ الموتُ لقولِـه: ﴿وَكُنتُمْ أَمْوَٰتًا فَأَحْيَٰكُمْ﴾ [البقرة: ٢٨]، ولأنَّه أَدْعى إلـى حُسـنِ العملِ.

﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾: ليعامِلَكُم مُعاملةَ المختبِرِ بالتَّكليفِ أيُّها المكلَّفونَ ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾: أصوبُهُ وأخلَصُهُ، وجاءَ مرفوعًا: «أحسَنُ عقلًا، وأورعُ عن محارمِ اللهِ، وأسرَعُ في طاعَتِه»[2]، جملةٌ واقعةٌ موقعَ المفعولِ ثانيًا لفعلِ البَلْوى المُتضمِّنِ مَعنى العلمِ، وليس

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بقبضته وقدرته».

(٢) رواه داود بن المحبر في كتاب «العقل»، ومن طريقه الحارث بن أبي أسامة في «مسنده» (٨٣١ ـ زوائد)، والطبري في «تفسيره» (١٢/ ٣٣٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ٨٨ ـ ٨٩)، من حديث ابن عمر رضي الله عنهما مرفوعاً، وداود ساقط، ورواه ابن مردويه من طريق آخر، وإسناده أسقط من الأول. انظر: «الكافي الشاف» (ص: ٨٦).

هذا مِن بابِ التَّعليقِ لأنَّه يُخِلُّ به وقوعُ الجملةِ خبرًا فلا يعلَّقُ الفعلُ عنها، بخلافِ ما إذا وقعَتْ مَوقِعَ المفعولَيْنِ[١].

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾: الغالبُ الذي لا يعجزُهُ مَن أساءَ العملَ ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لِمَن تابَ مِنْهُم.

(٣) ـ ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾: مُطابَقَةً بعضُها فوقَ بعضٍ، مَصدرُ طابَقْتُ النَّعلَ: إذا خصفتَها طَبَقًا على طَبَقٍ، وُصِفَ به، أو: طوبقَت طباقًا، أو: ذاتَ طباقٍ جمعُ طَبَقٍ كجَبَلٍ وجِبالٍ، أو طَبَقةٍ كرَحَبةٍ ورِحَابٍ.

﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ وقرأَ حمزةُ والكسائيُّ: ﴿من تَفوُّتٍ﴾[٢] ومَعناهما واحدٌ كالتَّعاهُدِ والتَّعهُّدِ، وهو الاختلافُ وعدمُ التَّناسُبِ، مِن الفوتِ فإنَّ كُلًّا مِن المُتفاوتَيْنِ فاتَ عنه بعضُ ما في الآخرِ، والجملةُ صِفَةٌ ثانيةٌ للسَّبعِ وضعَ فيها ﴿خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّعظيمِ والإشعارِ بأنَّه تعالى يخلقُ مثلَ ذلك بقُدرَتِه الباهرةِ رحمةً وتَفضُّلًا، وأنَّ في إبداعِها نِعَمًا جليلةً لا تُحْصَى، والخطابُ فيها للرَّسولِ أو لكلِّ مُخاطَبٍ، وقوله:

﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ مُتعلِّقٌ به على مَعنى التَّسبُّبِ[٣]؛ أي: قد نظرتَ إليهَا مرارًا فانظُرْ إليها مرةً أخرى متأمِّلًا فيها لتُعايِنَ ما أُخْبِرْتَ بِهِ من تناسُبِها

---

(١) قوله: «وليس هذا من باب التعليق...» تبع فيه الزمخشري هنا، كما تبعه في خلافه في نظيره في (هود) ـ حيث جعله الزمخشري ثمة من باب التعليق وتابعه عليه المصنف ـ وهو جريٌ على أحد القولين هنا وعلى الآخر ثَمَّ، وهو ما عليه الأكثر. انظر: «حاشية الأنصاري» (٥/ ٣٥٨).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٢).

(٣) «متعلق به» أي: بقوله: ﴿مَّا تَرَىٰ﴾ على مَعنى التَّسبيبِ، أَخبَرهُ بأنَّه لا تَفاوُت في خَلْقِهِنَّ ثمَّ قال: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ﴾ حَتَّى يَصِحَّ عندك ما أُخبِرْتَ به بالمعايَنةِ ولا تَبقَى مَعك شُبهَةٌ فيه. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢٠٤).

واستقامَتِها واستجماعِها ما ينبغي لها، والفُطورُ: الشُّقوقُ، والمرادُ: الخللُ، مِن فَطَرَهُ: إذا شَقَّه.

(٤) ـ ﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾؛ أي: رَجْعَتَين أُخرَيَينِ في ارتيادِ الخَلَلِ، والمرادُ بالتَّثنيةِ: التَّكريرُ والتَّكثيرُ كما في (لبَّيْكَ وسَعْدَيكَ)، ولذلك أجابَ الأمرَ بقولِه:

﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾: بعيدًا عن إصابةِ المطلوبِ كأنَّه طُرِدَ عنه طرْدًا بالصَّغارِ ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾: كليلٌ مِن طولِ المعاودَةِ وكثرةِ المراجعةِ.

(٥) ـ ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾: أقربَ السَّماواتِ إلى الأرضِ ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: بكواكبَ مُضيئةٍ بالليلِ إضاءةَ السُّرُجِ فيها، ولا يمنَعُ ذلك كونُ بعضِ الكَواكبِ مركوزاً في سماواتٍ فوقَها إذ التَّزيينُ بإظهارِها عليها[1]. والتَّنكيرُ للتَّعظيمِ.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾: وجعلنا لها فائدةً أُخرى هي رجمُ أعدائِكُم بانقضاضِ الشُّهبِ المسبَّبةِ عنها.

وقيل: معناه: وجعلناها رُجومًا وظُنونًا لشَياطينِ الإنسِ وهم المنجِّمُونَ.

والرُّجُومُ: جمع رَجْمٍ بالفتحِ، وهو مَصدَرٌ سُمِّيَ به ما يُرجَمُ به.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ في الآخرةِ بعد الإحراقِ بالشُّهُبِ في الدُّنيا.

(٦) ـ ﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ﴾ مِن الشَّياطينِ وغيرِهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ وقُرِئَ بالنَّصبِ[2] على أنَّ (للذين) عطفٌ على ﴿لَهُمْ﴾ و(عذابَ) على ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾.

---

(١) قوله: «ولا يمنع ذلك...» أي: لا يمنع تزيينَ السماء الدنيا كونُ بعض الكواكب فيما فوقها من السماوات؛ لأن ما هو فوق سماء الدنيا يزينها أيضاً. انظر: «حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ١٨٨).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ١٦٠) عن الضحاك والأعرج.

(٧) ـ ﴿إِذَآ أُلۡقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقٗا﴾: صـوتًا كصَـوتِ الحَميرِ ﴿وَهِيَ تَفُورُ﴾: تَغْلي بهم غليانَ المرجلِ بما فيه.

(٨) ـ ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلۡغَيۡظِ﴾: تتفرَّقُ غضبًا عليهم، وهو تمثيلٌ لشدَّةِ اشتعالِها بهم، ويجوزُ أَنْ يُرادَ غيظُ الزَّبانيةِ.

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٞ﴾: جماعةٌ مِن الكفرَةِ ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ﴾ يخوِّفُكُم هذا العذابَ، وهو توبيخٌ وتبكيتٌ.

(٩) ـ ﴿قَالُواْ بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ فَكَذَّبۡنَا وَقُلۡنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيۡءٍ إِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ﴾؛ أي: فكذَّبْنا الرُّسلَ، وأفرطْنَا في التَّكذيبِ حتَّى نفَيْنا الإنزالَ والإرسالَ رأسًا، وبالَغْنَا في نِسبَتِهِم إلى الضَّلالِ؛ فـ«النَّذيرُ» إمَّا بمعنى الجمعِ لأنَّه فعيلٌ، أو مَصدرٌ مُقدَّرٌ بمضافٍ؛ أي: أهلُ إنذارٍ[١]، أو مَنعوتٌ به للمبالغةِ، أو الواحِدِ[٢] والخطابُ له ولأمثالِه على التَّغليبِ، أو إقامةِ تكذيبِ الواحدِ مُقامَ تكذيبِ الكلِّ، أو على أنَّ المعنى: قالت الأفواجُ: قد جاءَ إلى كلِّ فوجٍ مِنَّا رسولٌ فكَذَّبناهُم وضلَّلْناهُم.

ويجوزُ أن يكونَ الخطابُ مِن كلامِ الزَّبانيةِ للكُفَّارِ على إرادةِ القَولِ، فيكونُ الضَّلالُ ما كانوا عليهِ في الدُّنيا، أو عقابُهُ الذي يكونونَ فيه.

(١٠) ـ ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ﴾ كـلامَ الرُّسُـلِ فنقبلَهُ جملةً مِن غيرِ بحثٍ وتَفتيشٍ اعتمادًا على ما لاحَ مِن صدقِهِم بالمُعجزاتِ.

﴿أَوۡ نَعۡقِلُ﴾ فنتفكَّرَ[٣] في حكمِهِ ومعانيه تفكُّرَ المُستبصرينَ ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: في عدادِهِم ومِن جُملَتِهِم.

---

(١) والمعنى: ألم يأتِكُم أَهْلُ إنذار. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢٠٨).

(٢) قوله: «أو الواحدِ»عطف على «الجمعِ» في قوله: «بمعنى الجمع».

(٣) في نسخة التفتازاني: «نتفكر».

(١١) ـ ﴿فَٱعۡتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمۡ﴾ حينَ لا ينفعُهُم، والاعترافُ: إقرارٌ عَن مَعرفةٍ، والذَّنبُ لم يُجمَع لأنَّه في الأصلِ مَصدرٌ، أو المرادُ به الكفرُ.

﴿فَسُحۡقٗا لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾: فأسحقَهُم اللهُ سحقًا؛ أي: أبعدَهُم مِن رحمتِه، والتَّغليبُ للإيجازِ والمبالغةِ والتَّعليلِ، وقرأَ الكسائيُّ بالتَّثقيلِ(١).

(١٢) ـ ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾: يخافونَ عذابَه غائبًا عنهم لم يعاينوهُ بعدُ، أو: غائبين عنه، أو عن أعيُنِ النَّاسِ، أو: بالمخفيِّ مِنْهُم وهو قلوبُهم.

﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ يصغرُ دونَه لذائذُ الدُّنيا.

(١٣) ـ ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: بالضَّمائرِ قبلَ أن يُعبَّر عنها سرًّا أو جهرًا.

(١٤) ـ ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾: أَلَا يعلَمُ السرَّ والجهرَ مَن أوجَدَ الأشياءَ حَسْبَما قدَّرَتْه حِكمَتُه ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ المتوصِّلُ علمُهُ إلى ما ظهرَ مِن خَلقِه وما بطَنَ. أو: أَلَا يعلَمُ اللهُ مَن خلقَه وهو بهذه المثابةِ.

والتَّقييدُ بهذه الحالِ يَستدعي أن يكونَ لـ﴿يَعۡلَمُ﴾ مفعولٌ ليفيدَ(٢).

---

(١) أي: بضم الحاء، انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٢).

(٢) في نسخة الطبلاوي: «ليقيد»، وفي نسخة الفاروقي: «ليتقيد»، والمثبت من باقي النسخ وهامش نسخة الفاروقي، وهو الموافق لما في «حاشية القونوي» و«حاشية ابن التمجيد» (١٩/ ٢٠١). وقال ابن التمجيد في شرح ذلك: إذ لو لم يقصد تعلقه بمفعول بل جعل من قبيل: «فلان يعطي ويمنع» لا يفيد الكلام؛ إذ يكون التقدير حينئذ: «ألا يعلم وهو عالم» وهو تقييد للشيء بنفسه، وإذا قصد تعلقه بمفعول يكون معناه: «ألا يعلم السر والجهل وهو عالم بكل شيء»، وهذا كلام مفيد ومعناه معنى صحيح.

قلت: وكلام المصنف والشارح كله مأخوذ من كلام الزمخشري حيث قال: فإن قلتَ: قَدَّرْتَ في ﴿ =

رويَ أنَّ المشركين كـانوا يتكلَّمونَ فيما بينَهُم بأشياءَ فيخبرُ اللهُ به رسولَه فيقولون: أَسِرُّوا قولَكُم لئلَّا يسمعَ إله محمَّدٍ! فنبَّه اللهُ على جهلِهِم[١].

(١٥) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾: ليِّنَةً يسهلُ لكـم السُّلوكُ فيها ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾: في جوانبِها، أو جِبالها، وهو مثَلٌ لفرطِ التَّذليلِ، فإنَّ مَنكِبَ البَعيرِ ينبو عن أن يطأَهُ الرَّاكِبُ ولا يتذلَّلُ له، فإذا جَعَلَ الأرضَ في الذلِّ بحيثُ يُمشَى في مناكبِها لم يبقَ شيءٌ لم يتذلَّلْ.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾: والتَمِسُوا مِن نعمِ الله ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾: المرجعُ، فيسألُكم عن شكرِ ما أنعمَ عليكم.

(١٦) ـ ﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ يعني: الملائكةَ الموكَّلينَ عـلى تدبيرِ هذا العالمِ، أو اللهَ تعالى؛ على تأويلِ: مَن في السَّماءِ أمرهُ وقَضاؤُه، أو على زَعمِ العربِ؛ فإنَّهم زَعموا أنَّه تعالى في السَّماء[٢].

= ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ مَفعُولاً على مَعْنى: أَلَا يَعلم ذلك المَذكُورَ ممَّا أُضمِرَ في القَلْبِ وأُظْهِر باللِّسانِ مَن خلقَ، فهلَّا جَعلْتَهُ مثلَ قَوْلهم: «هُو يُعْطِي ويَمْنعُ» وهَلَّا كان المَعْنى: أَلَا يكُون عالِماً مَن هُو خالِقٌ؛ لأنَّ الخَلْق لا يَصحُّ إلَّا مَع العلم؟

قلتُ: أبَتْ ذلك الحالُ التي هي قولُه: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ﴾ لأنك لو قلتَ: «أَلَا يكونُ عالِماً مَن هو خالقٌ وهوَ اللَّطِيْفُ الخَبيرُ» لم يكُنْ مَعْنًى صحيحاً؛ لأنَّ ﴿أَلَا يَعْلَمُ﴾ مُعتَمِدٌ على الحال، والشَّيءُ لا يُوقَّت بنفْسِهِ، فلا يُقالُ: «أَلَا يَعْلمُ وهُو عالِمٌ»، ولكِنْ: «أَلا يَعْلمُ كذا وهو عالِمٌ بِكُلِّ شَيءٍ». انظر: «الكشاف» (٩/ ٢١٠).

(١) ذكره الثعلبي في «تفسيره» (٢٧/ ١٠٥)، والواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٤٤٢)، وابن الجوزي في «زاد المسير» (٤/ ٣١٥)، عن ابنِ عبّاسٍ رضي الله عنهما.

(٢) ومذهب المتقدمين في مثل هذا عدم التأويل، فهو سبحانه وتعالى لا شبيهَ له ولا نظيرَ، ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١]، وكلُّ ما تُخيِّل في الذِّهن أو خطَر بالبال فإن الله تعالى بخلافه.

وعن ابن كثيرٍ برواية ورشٍ: ﴿وأمِنْتُم﴾ بقلبِ الهمزةِ الأُولى واوًا لانضمامِ ما قبلَها، و: ﴿آمنْتُم﴾ بقلبِ الثَّانيةِ ألفًا، وهو قراءةُ نافعٍ[١] وأبي عمرٍو ورُوَيسٍ[٢].

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ فيُغيِّبَكُم فيها كما فعلَ بقارونَ، وهو بدلٌ من ﴿مَّن﴾ بدلَ الاشتمالِ.

﴿فَإِذَا هِيَ تَمُورُ﴾: تضطربُ، والمور: التَّردُّدُ في المجيءِ والذَّهابِ.

(١٧) - ﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾: أن يُمطِرَ عليكم حصباءَ ﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ﴾: كيفَ إنذاري إذا شاهَدْتُم المنذَرَ به ولكن لا ينفعُكُم العلمُ حينئذٍ.

(١٨) - ﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ﴾: إنكاري عليهِمْ بإنزالِ العَذابِ، وهو تسليةٌ للرَّسُولِ عليهِ السَّلامُ وتهديدٌ لقَومِه.

(١٩) - ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾: باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوِّ عند طَيرانِها، فإنهنَّ إذا بسطنَها صففْنَ قَوادِمَها ﴿وَيَقْبِضْنَ﴾: ويَضْمُمْنَها إذا ضربنَ بها جنوبهنَّ وقتًا بعدَ وقتٍ للاستظهارِ به على التَّحرُّكِ، ولذلك عدلَ به إلى صيغةِ الفعلِ للفرقِ[٣] بينَ الأصيلِ في الطَّيرانِ والطَّارئ عليه.

---

(١) في نسخة التفتازاني زيادة: «برواية ورش».

(٢) انظر ما ورد في هذه اللفظة من قراءات مع نسبة كل منها إلى قارئها في «السبعة» (ص: ٦٤٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٢)، و«النشر» (١/ ٣٦٤).

(٣) في نسخ الفاروقي والتفتازاني والطبلاوي: «وللتفرقة» فهو معطوف على قوله: «ولذلك» على أنه علة ثانية للعدول إلى صيغة الفعل. والمثبت من نسخة الخيالي، ويؤيده ما في «حاشية القونوي» (١٩/ ٢٠٧): «للتفرقة» بلا واو أيضاً، وعليه فهو تعليل لما قبله، وهو الظاهر من كلام الزمخشري وشرح القونوي. انظر: «الكشاف» (٩/ ٢١٢).

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ على خلافِ الطَّبعِ ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الشَّاملُ رَحمتُه كلَّ شيءٍ بأَنْ خلقهنَّ على أشكالٍ وخَصائِصَ هيَّأَتْهنَّ للجري في الهواءِ.

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيْءٍۭ بَصِيرٌ﴾ يعلمُ كيفَ يخلقُ الغرائبَ ويدبِّرُ العجائبَ.

(٢٠) ـ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ عديلٌ لقولِه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ على مَعنى: أولم تَنْظُروا في أمثالِ هذه الصَّنائعِ فلم تعلَمُوا قُدرتَنا على تَعذيبِكم بنحوِ خَسفٍ وإرسالِ حاصبٍ، أم لكم جندٌ يَنصرُكُم مِن دونِ اللهِ إن أرسلَ عليكم عذابَهُ، فهو كقولِه: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] إلَّا أنَّهُ أُخرِجَ مخرجَ الاستفهامِ عَن تَعيينِ مَن يَنصرُهُم إشعارًا بأنَّهم اعتقَدُوا هذا القِسْمَ.

و﴿مَنْ﴾ مبتدأٌ، و﴿هَٰذَا﴾ خبرُه، و﴿ٱلَّذِى﴾ بصِلَتِه صفتُه، و﴿يَنصُرُكُم﴾ وصفٌ لـ﴿جُندٌ﴾ محمولٌ على لفظِه.

﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ لا مُعتمدَ لهم.

(٢١) ـ ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ﴾: أم مَن يشارُ إليه ويقالُ: هذا الذي يرزقُكُم ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾ بإمساكِ المطرِ وسائرِ الأسبابِ المحصِّلَةِ والموصِلةِ له إليكُم.

﴿بَل لَّجُّوا﴾: تمادَوْا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾: في عنادٍ ﴿وَنُفُورٍ﴾: وشِرادٍ عن الحقِّ لتَنفُّرِ طباعِهم عنه.

(٢٢) ـ ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾ يقال: كبَبْتُه فأكَبَّ، وهو مِن الغرائبِ[1]؛ كقَشَعَ اللهُ السَّحابَ فأقشَعَ.

---

(١) قولُه: «وهو منَ الغرائبِ» قال الشهاب في «الحاشية»: لأنَّه على عكسِ المعروفِ في اللُّغةِ من تعدِّي الإفعالِ ولزومِ ثُلاثيِّه، وله نظائرُ في أحرفٍ يسيرةٍ كـ«أنسَلَ ريشُ الطَّائرِ ونسَلْتُه»، و«أنزفَتِ البئرُ ونزَفْتُها».

والتَّحقيقُ: أنَّهُما مِن بابِ أَنْفَضَ(١) بمعنى: صارَ ذا كبٍّ وذا قَشعٍ، وليسا مُطاوِعَيْ (كبَّ) و(قَشَعَ) بل المطاوعُ لهما: انكبَّ وانقشَعَ.

ومعنى ﴿مُكِبًّا﴾: أنه يعثرُ كلَّ ساعةٍ ويخرُّ على وَجهِه لوعورةِ طَريقِه واختلافِ أجزائِه، ولذلك قابلَهُ بقولِه:

﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾: قائمًا سالِمًا من العِثارِ ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾: مستوي الأجزاءِ والجهَةِ، والمرادُ: تمثيلُ المشركِ والموحِّدِ بالسَّالِكَيْنِ، والدِّينَيْنِ بالمَسلكَيْنِ، ولعلَّ الاكتفاءَ بما في الكبِّ مِن الدَّلالةِ على حالِ المسلكِ للإشعارِ بأنَّ ما عليه المُشرِكُ لا يستأهِلُ أن يُسمَّى طريقًا؛ كمَشيِ المُتعسِّفِ في مكانٍ مُتَعادٍ غيرِ مُستَوٍ.

وقيل: المرادُ بالمكبِّ: الأعمى، فإنَّه يتعسَّفُ فينكبُّ، وبالسَّوِيِّ: البَصيرُ.

وقيل: مَن يمشي مُكِبًّا هو الذي يُحشرُ على وجهِهِ إلى النَّارِ، ومَن يمشي سويًّا الذي يُحشرُ على قدميهِ إلى الجنَّةِ.

(٢٣) ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمَعوا المواعظَ، ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتَنْظُروا صنائعَهُ ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكَّروا وتعتبِروا ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ باستِعمالِها فيما خلقَتْ لأَجلِها.

(٢٤) ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاءِ.

(٢٥) ـ ﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾؛ أي: الحشرُ، أو: ما وُعِدُوا به من الخسفِ والحاصبِ ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يعنونَ: النبيَّ والمؤمنينَ.

---

(١) كتب فوقها بين السطور في نسخة الفاروقي: «يعني الهمزة للصيرورة». وقال الشهاب في «الحاشية»: يُقالُ: «أَنفَضَ القومُ» بالفاءِ والضَّادِ المُعجمةِ: إذا فنِيَ زادُهم، وقد يُكنَى به عن الهلاكِ أيضًا، فالهمزةُ فيه للصَّيرورةِ، و«أَنْفَضَ» إذا صارَ نافِضًا لِما في مِزْوَدِه لفنائِه، وليستِ الهمزةُ فيه للمُطاوعةِ.

(٢٦) ـ ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾؛ أي: عـلمُ وَقتِه ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ لا يطَّلعُ عليه غيرُه ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ والإنذارُ يكفي له العلمُ، بل الظنُّ بوقوعِ المحذَّرِ منه.

(٢٧) ـ ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾؛ أي: الوعدَ؛ فإنَّه بمعنى الموعودِ ﴿زُلْفَةً﴾: ذا زلـفـةٍ؛ أي: قـربٍ مِنهُم ﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ بأنْ عَلَتْها الكآبةُ وساءَتْها رؤيةُ العذابِ.

﴿وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾: بـه تَـطْـلُـبـونَ وتَستعجِلُونَ، (تَفْتَعِلُون) مِن الدُّعاءِ، أو: بسببِهِ تدَّعونَ أنْ لا بَعْثَ، فهو مِن الدَّعوَى.

(٢٨) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ ٱللَّهُ﴾: أماتَني ﴿وَمَن مَّعِىَ﴾ مِن المؤمنينَ ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ بتأخيرِ آجالِنا ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ﴾؛ أي: لا يُنجيهِمْ أحدٌ مِن العذابِ متْنا أو بقينَا، وهو جوابٌ لقولِهم: ﴿نَّتَرَبَّصُ بِهِۦ رَيْبَ ٱلْمَنُونِ﴾ [الطور: ٣٠].

(٢٩) ـ ﴿قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الذي أدعوكُمْ إليه مُوْلي النِّعَمِ كلِّها ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ للعلمِ بذلك، ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ للوثوقِ عليه والعلمِ بأنَّ غيرَهُ بالذَّاتِ لا يضرُّ ولا ينفعُ، وتقديمُ الصِّلَةِ للتَّخصيصِ والإشعارِ به.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾ مِنْكُم ومنَّا. وقرأ الكِسائيُّ بالياء(١).

(٣٠) ـ ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾: غائرًا في الأرضِ بحيثُ لا يُنَالُ بالدِّلاءِ، مَصدرٌ وُصِفَ به ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ﴾: جارٍ، أو ظاهرٍ سهلِ المأخذِ.

عن النَّبيِّ ﷺ: «مَن قرأَ سورةَ الملكِ فكأنَّما أحيا ليلةَ القَدرِ»(٢).

***

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٦٤٤)، و«التيسير» (ص: ٢١٢).

(٢) رواه الواحدي في «التفسير الوسيط» (٤/ ٣٢٥)، وابن الجوزي في «الموضوعات» (١/ ١٧٣)، من حديث أبي بن كعب رضي الله عنه، وقال ابن الجوزي: مصنوع بلا شكٍّ.

(٦٧) سورة الملك مكية وآياتها ثلاثون

ما ورد في فضلها : روى الإمام أحمد عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال: « إن سورة في القرآن ثلاثين آية شفعت لصاحبها حتى غفر له : تبارك الذي بيده الملك »(١) . وعن أنس قال، قال رسول الله ﷺ : « سورة في القرآن خاصمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : تبارك الذي بيده الملك »(٢) . وعن ابن عباس قال: ضرب بعض أصحاب النبي ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر ، فإذا قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله ضربت خبائي على قبر ، وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك: تبارك، حتى ختمها، فقال رسول الله ﷺ : « هي المانعة، هي المنجية تنجيه من عذاب القبر »(٣) . وعن جابر أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ: « ﴿ الٓمٓ تنزيل﴾ ، و ﴿ تبارك الذي بيده المُلك﴾ »(٤) . وقال ليث، عن طاووس: يفضلان كل سورة في القرآن بسبعين حسنة، وعن ابن عباس أنه قال لرَجُل: ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال: بلى، قال: اقرأ ﴿ تبارك الذي بيده المُلكُ﴾ وعلّمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية ، والمجادلة تجادل أو تخاصم يوم القيامة عند ربها لقارئها ، وتطالب له أن ينجيه من عذاب النار ، وينجي بها صاحبها من عذاب القبر ، قال رسول الله ﷺ : « لوددت أنها في قلب كل إنسان من أُمّتي »(٥) .

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ

---

(١) أخرجه أحمد ورواه أهل السنن الأربعة وقال الترمذي : حديث حسن .

(٢) رواه الطبراني والحافظ المقدسي .

(٣) رواه الترمذي ، وقال : غريب من هذا الوجه .

(٤) أخرجه الترمذي .

(٥) أخرجه عبد بن حميد في مسنده .

تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ﴿٤﴾ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ﴿٥﴾

يُمَجِّد تعالى نفسه الكريمة، ويخبر أنه ﴿بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ أي هو المتصرف في جميع المخلوقات، بما يشاء، لا معقب لحكمه ولا يسأل عما يفعل، لقهره وحكمته وعدله، ولهذا قال تعالى: ﴿وهو على كل شيء قدير﴾، ثم قال تعالى: ﴿الذي خلق الموت والحياة﴾ ومعنى الآية أنه أوجد الخلائق من العدم ليبلوهم، أي يختبرهم أيهم أحسن عملاً. عن قتادة قال: كان رسول الله ﷺ يقول: «إن الله أذل بني آدم بالموت، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء»[1]، وقوله تعالى: ﴿ليبلوكم أيكم أحسن عملاً﴾ أي خير عملاً كما قال محمد بن عجلان، ولم يقل أكثر عملا، ثم قال تعالى: ﴿وهو العزيز الغفور﴾ أي هو العزيز العظيم، المنيع الجناب، وهو غفور لمن تاب إليه وأناب، بعد ما عصاه وخالف أمره، فهو مع ذلك يرحم ويصفح ويتجاوز، ثم قال تعالى: ﴿الذي خلق سبع سماوات طباقاً﴾ أي طبقة بعد طبقة، وقوله تعالى: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت﴾ أي ليس فيه اختلاف ولا تنافر، ولا نقص ولا عيب ولا خلل، ولهذا قال تعالى: ﴿فارجع البصر هل ترى من فطور﴾ أي انظر إلى السماء فتأملها، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً؟ قال ابن عباس ومجاهد ﴿هل ترى من فطور﴾ أي شقوق، وقال السدي: أي من خروق، وقال قتادة: أي هل ترى خللاً يا ابن آدم؟ وقوله تعالى: ﴿ثم ارجع البصر كرتين﴾ مرتين، ﴿ينقلب إليك البصر خاسئاً﴾ قال ابن عباس: ذليلاً، وقال مجاهد: صاغراً، ﴿وهو حسير﴾ يعني وهو كليل، وقال مجاهد: الحسير المنقطع من الإعياء، ومعنى الآية: إنك لو كررت البصر مهما كررت، لانقلب إليك أي لرجع إليك البصر ﴿خاسئاً﴾ عن أن يرى عيباً أو خللاً، ﴿وهو حسير﴾ أي كليل قدانقطع من الإعياء، من كثرة التكرر ولا يرى نقصاً، ولما نفى عنها في خلقها النقص، بيّن كمالها وزينتها فقال: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ وهي الكواكب التي وضعت فيها من السيارات والثوابت، وقوله تعالى: ﴿وجعلناها رجوماً للشياطين﴾ عاد الضمير في قوله ﴿وجعلناها﴾ على جنس المصابيح لا على عينها، لأنه لا يرمى بالكواكب التي في السماء، بل بشهب من دونها، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم. ﴿وأعتدنا لهم عذاب السعير﴾ أي جعلنا للشياطين هذا الخزي في الدنيا، وأعتدنا لهم عذاب السعير في الأخرى كما قال تعالى: ﴿إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب﴾ قال قتادة: إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال: خلقها الله زينة للسماء، ورجوماً للشياطين، وعلامات يهتدى بها، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه، وأخطأ حظه، وأضاع نصيبه، وتكلف ما لا علم له به[2].

وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٦﴾ إِذَآ أُلْقُوا۟ فِيهَا سَمِعُوا۟ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ﴿٧﴾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا

---

(١) رواه ابن أبي حاتم. (٢) رواه ابن جرير وابن أبي حاتم.

مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾ وَقَالُوا۟ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾ فَٱعْتَرَفُوا۟ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾

يقول تعالى ﴿وأعتدنا للذين كفروا بربهم عذاب جهنم وبئس المصير﴾ أي بئس المآل والمنقلب، ﴿إذا ألقوا فيها سمعوا لها شهيقاً﴾ يعني الصياح، ﴿وهي تفور﴾ قال الثوري: تغلي بهم كما يغلي الحَبُّ القليل في الماء الكثير، وقوله تعالى: ﴿تكاد تميز من الغيظ﴾ أي تكاد ينفصل بعضها من بعض، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم، ﴿كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير * قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير﴾. يذكر تعالى عدله في خلقه، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه، وإرسال الرسول إليه، كما قال تعالى: ﴿وما كنا معذبين حتى نبعث رسولاً﴾، وقال تعالى: ﴿وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم هذا؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾، وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة، فقالوا: ﴿لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا في أصحاب السعير﴾، أي لو كانت لنا عقول ننتفع بها لما كنا على ما كنا عليه، من الكفر بالله والاغترار به، ولكن لم يكن لنا فهم نعي به ما جاءت به الرسل، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم، قال الله تعالى: ﴿فاعترفوا بذنبهم فسحقاً لأصحاب السعير﴾. وفي الحديث: «لن يهلك الناس حتى يعذروا من أنفسهم»[1]، وفي حديث آخر: «لا يدخل أحد النار إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة».

إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِٱلْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿١٢﴾ وَأَسِرُّوا۟ قَوْلَكُمْ أَوِ ٱجْهَرُوا۟ بِهِۦٓ ۖ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٤﴾ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه، فينكف عن المعاصي ويقوم بالطاعات، حيث لا يراه أحد إلا الله تعالى، بأنه له ﴿مغفرة وأجر كبير﴾ أي تكفّر عنه ذنوبه، ويجازى بالثواب الجزيل، كما ثبت في الصحيحين: «سبعة يظلهم الله تعالى في ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله» فذكر منهم رجلاً دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال: إني أخاف الله، ورجلاً تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه، ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر ﴿وأسروا قولكم أو أجهروا به إنه عليم بذات الصدور﴾ أي بما يخطر في القلوب ﴿ألا يعلم من خلق﴾ أي ألا يعلم الخالق؟ وقيل معناه: ألا يعلم الله مخلوقه؟ والأول أولى لقوله: ﴿وهو اللطيف الخبير﴾ ثم ذكر نعمته على خلقه في تسخيره لهم الأرض، وتذليله إياها لهم، بأن جعلها قارة ساكنة لا تميد ولا تضطرب، بما جعل فيها من الجبال، وأنبع فيها من العيون، وسلك فيها من السبل، وهيأ فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار، فقال تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها﴾ أي فسافروا حيث شئتم من أقطارها، وترددوا

(١) رواه الإمام أحمد من حديث أبي البختر الطائي.

في أقاليمها وأرجائها في أنواع المكاسب والتجارات، واعلموا أن سعيكم لا يجدي عليكم شيئاً إلا أن ييسره الله لكم، ولهذا قال تعالى: ﴿وكلوا من رزقه﴾ فالسعي في السبب لا ينافي التوكل، كما قال رسول الله: «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً»(١) فأثبت لها رواحاً وغدواً لطلب الرزق مع توكلها على الله عزّ وجلّ، وهو المسخر المسير المسبب ﴿وإليه النشور﴾ أي المرجع يوم القيامة، قال ابن عباس ومجاهد: مناكبها: أطرافها وفجاجها ونواحيها.

ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يَخۡسِفَ بِكُمُ ٱلۡأَرۡضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴿١٦﴾ أَمۡ أَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ أَن يُرۡسِلَ عَلَيۡكُمۡ
حَاصِبٗاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ كَيۡفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾ وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾ أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ
فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه، أنه قادر على تعذيبهم بسبب كفر بعضهم، وهو مع هذا يحلم ويصفح، ويؤجل ولا يعجل، كما قال تعالى: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾ الآية، وقال ههنا: ﴿أأمنتم من في السماء أن يخسف بكم الأرض فإذا هي تمور﴾ أي تذهب وتجيء وتضطرب، ﴿أم أمنتم من في السماء أن يرسل عليكم حاصباً﴾ أي ريحاً فيها حصباء تدمغكم كما قال تعالى: ﴿أفأمنتم أن يخسف بكم جانب البر أو يرسل عليكم حاصباً ثم لا تجدوا لكم وكيلاً﴾، وهكذا توعدهم ههنا بقوله: ﴿فستعلمون كيف نذير﴾ أي كيف يكون إنذاري، وعاقبة من تخلف عنه وكذب به، ثم قال تعالى: ﴿ولقد كذب الذين من قبلهم﴾ أي من الأمم السالفة والقرون الخالية، ﴿فكيف كان نكير﴾ أي فكيف كان إنكاري عليهم ومعاقبتي لهم؟ أي عظيماً شديداً أليماً، ثم قال تعالى: ﴿أولم يروا إلى الطير فوقهم صافات ويقبضن﴾ أي تارة يصففن أجنحتهن في الهواء، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً، ﴿ما يمسكهن﴾ أي في الجو ﴿إلا الرحمن﴾ أي بما سخر لهن من الهواء من رحمته ولطفه، ﴿إنه بكل شيء بصير﴾ أي بما يصلح كل شيء من مخلوقاته، وهذه كقوله تعالى: ﴿ألم يروا إلى الطير مسخرات في جو السماء ما يمسكهن إلا الله إن في ذلك لآية لقوم يؤمنون﴾.

أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ﴿٢٠﴾ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ
إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ
مُّسۡتَقِيمٖ ﴿٢٢﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنشَأَكُمۡ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمۡعَ وَٱلۡأَبۡصَٰرَ وَٱلۡأَفۡـِٔدَةَۚ قَلِيلٗا مَّا تَشۡكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلۡ هُوَ ٱلَّذِي
ذَرَأَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَإِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ ﴿٢٤﴾ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلۡوَعۡدُ إِن كُنتُمۡ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾ قُلۡ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ
وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٞ مُّبِينٞ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوۡهُ زُلۡفَةٗ سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾

---

(١) رواه أحمد والترمذي والنسائي وابن ماجة عن عمر بن الخطاب مرفوعاً.

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا معه غيره يبتغون عندهم نصراً ورزقاً منكراً عليهم: ﴿أمن هذا الذي هو جند لكم ينصركم من دون الرحمن﴾ ؟ أي ليس لكم من دونه من ولي ولا واق، ولا ناصر لكم غيره، ولهذا قال تعالى: ﴿إن الكافرون إلا في غرور﴾ . ثم قال تعالى: ﴿أمن هذا الذي يرزقكم إن أمسك رزقه﴾ ؟ أي من هذا الذي إذا قطع الله عنكم رزقه يرزقكم بعده ؟ أي لا أحد يعطي ويمنع، ويخلق ويرزق إلا الله وحده لا شريك له، قال تعالى: ﴿بل لجوا﴾ أي استمروا في طغيانهم وإفكهم وضلالهم، ﴿في عتو﴾ أي في معاندة واستكبار ﴿ونفور﴾ على إدبارهم عن الحق، لا يسمعون له ولا يتبعونه، ثم قال تعالى: ﴿أفمن يمشي مكباً على وجهه أهدى أمن يمشي سوياً على صراط مستقيم﴾ ؟ وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشي ﴿مكباً على وجهه﴾ أي يمشي منحنياً لا مستوياً ﴿على وجهه﴾ أي لا يدري أين يسلك ولا كيف يذهب، بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿أمن يمشي سوياً﴾ أي منتصب القامة ﴿على صراط مستقيم﴾ ؟ أي على طريق واضح بيّن، هذا مثلهم في الدنيا، وكذلك يكونون في الآخرة، فالمؤمن يحشر يمشي سوياً على صراط مستقيم، مفض به إلى الجنة الفيحاء، وأما الكافر فإنه يحشر يمشي على وجهه إلى نار جهنم ﴿فاهدوهم إلى صراط الجحيم﴾ . عن أنس ابن مالك قال، قيل: يا رسول الله كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال: «أليس الذي أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم»[1] ؟

وقوله تعالى : ﴿قل هو الذي أنشأكم﴾ أي ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكوراً، ﴿وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة﴾ أي العقول والإدراك، ﴿قليلاً ما تشكرون﴾ أي قلّما تستعملون هذه القوى، التي أنعم الله بها عليكم في طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره . ﴿قل هو الذي ذرأكم في الأرض﴾ أي بثكم ونشركم في أقطار الأرض، مع اختلاف ألسنتكم ولغاتكم وألوانكم، ﴿وإليه تحشرون﴾ أي تجمعون بعد هذا التفرق والشتات، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم، ثم قال تعالى مخبراً عن الكفار، المنكرين للمعاد، المستبعدين وقوعه ﴿ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين﴾ ؟ أي متى يقع هذا الذي تخبرنا عنه، ﴿قل إنما العلم عند الله﴾ أي لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله عزّ وجلّ، لكنه أمرني أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ﴿وإنما أنا نذير مبين﴾ أي وإنما عليَّ البلاغ وقد أديته اليكم، قال الله تعالى: ﴿فلما رأوه زلفة سيئت وجوه الذين كفروا﴾ أي لما قامت القيامة وشاهدها الكفّار، ورأوا أن الأمر كان قريباً، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم في بال ولا حساب، ﴿وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون﴾، ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ ﴿هذا الذي كنتم به تدّعون﴾ أي تستعجلون .

قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾ قُلْ هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾ قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ﴿٣٠﴾

(١) الحديث أخرجه أحمد وأصله في الصحيحين عن أنس بن مالك .

يقول تعالى: ﴿قل﴾ يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه ﴿أرأيتم إن أهلكني الله ومن معي أو رحمنا فمن يجير الكافرين من عذاب أليم﴾ أي خلصوا أنفسكم، فإنه لا منقذلكم من الله إلا التوبة والإنابة، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنكال، فسواء عذبنا الله أو رحمنا، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم، ثم قال تعالى: ﴿قل هو الرحمن آمنا به وعليه توكلنا﴾ أي آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم، وعليه توكلنا في جميع أمورنا، كما قال تعالى: ﴿فاعبده وتوكل عليه﴾، ولهذا قال تعالى: ﴿فستعلمون من هو في ضلال مبين﴾ أي منا ومنكم، ولمن تكون العاقبة في الدنيا والآخرة؟ ثم قال تعالى إظهاراً للرحمة في خلقه ﴿قل أرأيتم إن أصبح ماؤكم غوراً﴾ أي ذاهباً في الأرض إلى أسفل، فلا ينال بالفؤوس الحداد ولا السواعد الشداد، والغائر عكس النابع، ولهذا قال تعالى: ﴿فمن يأتيكم بماء معين﴾ أي نابع سائح جار على وجه الأرض، أي لا يقدر على ذلك إلا الله عزَّ وجلَّ، فمن فضله وكرمه أن أنبع لكم المياه، وأجراها في سائر أقطار الأرض، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة، فلله الحمد والمنة

[آخر تفسير سورة المُلْك]

* * *

تفسير سورة الملك

وهى مكية .

قال أحمد : حدثنا حجاج بن محمد وابن جعفر قالا : حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن عباس الجُشَمى ، عن أبى هُرَيرة ، عن رَسُول الله ﷺ قال : « إن سورة فى القرآن ثلاثين آية شَفَعت لصاحبها حتى غُفر له : ﴿ تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ » .

ورواه أهل السنن الأربعة ، من حديث شعبة ، به (١) . وقال الترمذى : هذا حديث حسن .

وقد روى الطبرانى والحافظ الضياء المقدسى ، من طريق سَلام بن مسكين (٢) ، عن ثابت ، عن أنس قال : قال رسول الله ﷺ : « سورة فى القرآن خَاصَمت عن صاحبها حتى أدخلته الجنة : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ » (٣) .

وقال الترمذى : حدثنا محمد بن عبد الملك بن أبى الشوارب ، حدثنا يحيى بن مالك النُكرى ، عن أبيه ، عن أبى الجوزاء ، عن ابن عباس قال : ضرب بعض أصحاب النبى ﷺ خباءه على قبر ، وهو لا يحسب أنه قبر إنسان يقرأ سورة الملك حتى ختمها ، فأتى النَّبى ﷺ فقال : يا رسول الله ، ضربت خبائى على قبر وأنا لا أحسب أنه قبر ، فإذا إنسان يقرأ سورة الملك ﴿ تَبَارَكَ ﴾ حتى ختمها ، فقال رسول الله ﷺ : « هى المانعة ، هى المنجية ، تنجيه من عذاب القبر » (٤) . ثم قال : « هذا حديث غريب من هذا الوجه . وفى الباب عن أبى هريرة . ثم روى الترمذى أيضاً من طريق ليث بن أبى سليم ، عن أبى الزبير ، عن جابر : أن رسول الله ﷺ كان لا ينام حتى يقرأ ﴿ الٓمٓ . تَنزِيلُ ﴾ [سورة السجدة] ، و﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ . وقال ليث عن طاوس: يفضلان كل سورة فى القرآن بسبعين حسنة (٥) .

وقال الطبرانى : حدثنا محمد بن الحسين بن عجلان (٦) الأصبهانى ، حدثنا سلمة بن شبيب ، حدثنا إبراهيم بن الحكم بن أبان ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : قال رسول الله ﷺ: «لوددت أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » يعنى : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ ﴾ (٧) .

---

(١) المسند (٢/ ٣٢١) وسنن أبى داود برقم (١٤٠٠) وسنن الترمذى برقم (٢٨٩١) وسنن النسائى الكبرى برقم (١١٦١٢) وسنن ابن ماجة برقم (٣٧٨٦) .

(٢) فى أ : « سليمان » .

(٣) المعجم الصغير للطبرانى (١/ ١٧٦) والمختارة للضياء المقدس برقم (١٧٣٨، ١٧٣٩) .

(٤) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٠) وفى إسناده يحيى النكرى ضعيف وذكر الذهبى هذا الحديث من مناكيره فى الميزان .

(٥) سنن الترمذى برقم (٢٨٩٢) .

(٦) فى م ، أ ، هـ: « محمد بن الحسن بن علاف » وهوخطأ والمثبت من المعجم الكبير للطبرانى ومن تاريخ أصبهان .

(٧) المعجم الكبير (١١/ ٢٤٢) ورواه الحاكم فى المستدرك (١/ ٥٦٥) من طريق حفص بن عمر ، عن الحكم بن أبان به ، وقال الحاكم : «حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه » وتعقبه الذهبى بقوله : « فيه حفص العدنى وهو واه » .

هذا حديث غريب ، وإبراهيم ضعيف ، وقد تقدم مثله فى سورة « يس » ، وقد روى هذا الحديث عبد بن حُمَيد فى مسنده بأبسط من هذا ، فقال :

حدثنا إبراهيم بن الحكم ، عن أبيه ، عن عكرمة ، عن ابن عباس أنه قال لرجل : ألا أتحفك بحديث تفرح به ؟ قال : بلى . قال : اقرأ : ﴿تَبَارَكَ الَّذِى بِيَدِهِ الْمُلْكُ﴾ وعلمها أهلك وجميع ولدك وصبيان بيتك وجيرانك ، فإنها المنجية والمجادلة ، تجادل ـ أو تخاصم ـ يوم القيام عند ربها لقارئها، وتطلب له [أن ينجيه] [١] من عذاب النار ، وينجى بها صاحبها من عذاب القبر ؛ قال رسول الله ﷺ : « لوددتُ أنها فى قلب كل إنسان من أمتى » [٢] .

وقد روى الحافظ ابن عساكر فى تاريخه ، فى ترجمة أحمد بن نصر بن زياد ، أبى عبد الله القرشى النيسابورى المقرئ الزاهد الفقيه ، أحد الثقات الذين روى عنهم البخارى ومسلم ، لكن فى غير الصحيحين ، وروى عنه الترمذى وابن ماجة وابن خزيمة ، وعليه تفقه فى مذهب أبى عُبَيد بن حَرْبويه ، وخلق سواهم ، ساق بسنده من حديثه عن فرات بن السائب ، عن الزهرى ، عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن رجلا ممن كان قبلكم مات ، وليس معه شىء من كتاب الله إلا ﴿ تَبَارَكَ ﴾ ، فلما وضع فى حفرته أتاه المَلَك فثارت السورة فى وجهه ، فقال لها : إنك من كتاب الله ، وأنا أكره مساءتك ، وإنى لا أملك لك ولا له ولا لنفسى ضراً ولا نفعاً ، فإن أردت هذا به فانطلقى إلى الرب تبارك وتعالى فاشفعى له . فتنطلق إلى الرب فتقول : يا رب ، إن فلاناً عَمَد إلىَّ من بين كتابك فتَعَلَّمنى وتلانى أفتحرقه [٣] أنت بالنار وتعذبه وأنا فى جوفه ؟ فإن كنت فاعلا ذاك به فامحنى من كتابك . فيقول : ألا أراك غضبت ؟ فتقول : وحُقّ لى أن أغضب . فيقول : اذهبى فقد وهبته لك ، وشفّعتك فيه . قال : فتجىء فيخرج الملك ، فيخرج كاسف البال لم يَحْلَ منه بشىء . قال : فتجىء فتضع فاها على فيه ، فتقول : مرحباً بهذا الفم ، فربما تلانى ، ومرحباً بهذا الصدر ، فربما وعانى ، ومرحباً بهاتين القدمين ، فربما قامتا بى . وتؤنسه فى قبره مخافة الوحشة عليه » . قال: فلما حَدّث بهذا رسولُ الله ﷺ لم يبق صغير ولا كبير ولا حُرّ ولا عَبد ، إلا تعلمها ، وسماها رسول الله ﷺ المنجية [٤].

قلت : وهذا حديث منكر جداً ،وفرات بن السائب هذا ضعفه الإمام أحمد ، ويحيى بن معين ، والبخارى ، وأبو حاتم ، والدارقطنى وغير واحد . وقد ذكره ابن عساكر من وجه آخر ، عن الزهرى، من قوله مختصراً . وروى البيهقى فى كتاب « إثبات عذاب القبر » عن ابن مسعود موقوفاً ومرفوعاً ما يشهد لهذا [٥] وقد كتبناه فى كتاب الجنائز من الأحكام الكبرى ، ولله الحمد [٦] .

---

(١) زيادة من م ، أ .

(٢) ذكره البوصيرى فى إتحاف المهرة (ق ٢١٤سليمانية) من مسند عبد بن حميد .

(٣) فى أ : « أفتجزيه » .

(٤) تاريخ دمشق (٢/ ٢٥٦ « المخطوط») .

(٥) إثبات عذاب القبر للبيهقى برقم (٩٩) وقد فصل الكلام عليه الفاضل محمد طرهونى فى موسوعة فضائل القرآن (٢/ ١٩٣) .

(٦) فى أ : « ولله الحمد والمنة والثناء الحسن الجميل ».

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ① الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ ② الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ③ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ④ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ⑤ ﴾ .

يمجد تعالى نفسه الكريمة ، ويخبر أنه بيده الملك ، أى : هو المتصرف فى جميع المخلوقات بما يشاء لا معقب لحكمه ، ولا يسأل عما يفعل لقهره وحكمته وعدله . ولهذا قال : ﴿ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴾ .

ثم قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ : واستدل بهذه الآية من قال : إن الموت أمر وجودى لأنه مخلوق . ومعنى الآية : أنه أوجد الخلائق من العدم ، ليبلوهم ويختبرهم أيهم أحسن عملا ؟ كما قال : ﴿ كَيْفَ تَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَكُنتُمْ أَمْوَاتًا فَأَحْيَاكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨] . فسمى الحال الأول ــ وهو العدم ــ موتاً ، وسمى هذه النشأة حياة . ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ﴾ [البقرة:٢٨] .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبو زُرْعَة ، حدثنا صفوان ، حدثنا الوليد ، حدثنا خُلَيْد ، عن قتادة فى قوله : ﴿ الَّذِى خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ ﴾ قال : كان رسول الله ﷺ يقول : « إن الله أذل بنى آدم بالموت ، وجعل الدنيا دار حياة ثم دار موت ، وجعل الآخرة دار جزاء ثم دار بقاء » .

ورواه مَعْمَر ، عن قتادة (١) .

وقوله : ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ﴾ أى : خير عملا ، كما قال محمد بن عَجْلان : ولم يقل أكثر عملا .

ثم قال : ﴿ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ أى : هو العزيز العظيم المنيع الجناب ، وهو مع ذلك غفور لمن تاب إليه وأناب ، بعدما عصاه وخالف أمره ، وإن كان تعالى عزيزاً ، هو مع ذلك يغفر ويرحم ويصفح ويتجاوز .

ثم قال : ﴿ الَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا ﴾ أى : طبقة بعد طبقة ، وهل هن متواصلات بمعنى أنهن علويات بعضهن على بعض، أو متفاصلات بينهن خلاء ؟ فيه قولان ، أصحهما الثانى ، كما دل على ذلك حديث الإسراء وغيره .

---

(١) ورواه الطبرى فى تفسيره (٢٩/ ٢) من طريق معمر ، عن قتادة ،ومن طريق سعيد ، عن قتادة به مرسلاً.

وقوله : ﴿ مَّا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَٰنِ مِن تَفَاوُتٍ ﴾ أى : بل هو مصطحب مستو ، ليس فيه اختلاف ولا تنافر ولا مخالفة ، ولا نقص ولا عيب ولا خلل ؛ ولهذا قال : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : انظر إلى السماء فتأملها ، هل ترى فيها عيباً أو نقصاً أو خللاً أو فطوراً ؟ .

قال ابن عباس ، ومجاهد ، والضحاك ، والثورى ، وغيرهم فى قوله : ﴿ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : شقوق .

وقال السدى : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : من خُروق . وقال ابن عباس فى رواية : ﴿ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : من وُهِىّ [1] . وقال قتادة : ﴿ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴾ أى : هل ترى خَلَلاً يا بن آدم ؟ .

وقوله : ﴿ ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ ﴾ قال : مرتين . ﴿ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا ﴾ قال ابن عباس: ذليلا ؟ وقال مجاهد ، وقتادة : صاغراً .

﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ : قال ابن عباس : يعنى : وهو كليل . وقال مجاهد ، وقتادة ، والسدى : الحسير : المنقطع من الإعياء .

ومعنى الآية : إنك لو كررت البصر ، مهما كررت ، لانقلب إليك ، أى : لرجع إليك البصر ، ﴿خَاسِئًا ﴾ عن أن يرى عيباً أو خللا ، ﴿ وَهُوَ حَسِيرٌ ﴾ أى : كليل وقد انقطع من الإعياء من كثرة التكرر ، ولا يرى نقصاً .

ولما نفى عنها فى خلقها النقص بين كمالها وزينتها فقال : ﴿ وَلَقَدْ زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ ﴾ وهى الكواكب التى وضعت فيها من السيارات والثوابت .

وقوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ ﴾ : عاد الضمير فى قوله : ﴿ وَجَعَلْنَاهَا ﴾ على جنس المصابيح لا على عينها ؛ لأنه لا يرمى بالكواكب التى فى السماء ، بل بشهب من دونها ، وقد تكون مستمدة منها، والله أعلم .

وقوله : ﴿ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ ﴾ أى : جعلنا [2] للشياطين هذا الخزى فى الدنيا ، وأعتدنا لهم عذاب السعير فى الأخرى ، كما قال : فى أول الصافات : ﴿ إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ . وَحِفْظًا مِّن كُلِّ شَيْطَانٍ مَّارِدٍ . لَّا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلَإِ الْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ . دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ . إِلَّا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ ﴾ [الصافات: ٦ ـ ١٠] .

قال قتادة : إنما خلقت هذه النجوم لثلاث خصال : خلقها زينة للسماء ، ورجوما للشياطين ، وعلامات يهتدى بها ، فمن تأول فيها غير ذلك فقد قال برأيه وأخطأ حظه ، وأضاع نصيبه ، وتكلف ما لا علم له به . رواه ابن جرير ، وابن أبى حاتم .

---

(١) فى هـ ، أ : « من وهاء » والمثبت من تفسير الطبرى . مستفادا من هوامش ط. الشعب .

(٢) فى م : « أى : جعلناها » .

﴿ وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ⁽⁶⁾ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ ⁽⁷⁾ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ⁽⁸⁾ قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ⁽⁹⁾ وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ⁽¹⁰⁾ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ⁽¹¹⁾ ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ و ﴾ أعتدنا ﴿ لِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ﴾ أى : بئس المآل والمنقلب . ﴿ إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا ﴾ : قال ابن جرير : يعنى الصياح .

﴿ وَهِيَ تَفُورُ ﴾ : قال الثورى : تغلى بهم كما يغلى الحَبّ القليل فى الماء الكثير .

وقوله : ﴿ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ الْغَيْظِ ﴾ أى : تكاد ينفصل بعضها من بعض ، من شدة غيظها عليهم وحنقها بهم ، ﴿ كُلَّمَا أُلْقِيَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ . قَالُوا بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ ﴾ : يذكر تعالى عدله فى خلقه ، وأنه لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه وإرسال الرسول إليه ، كما قال : ﴿ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥] . وقال تعالى : ﴿ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴾ [الزمر: ٧١] . وهكذا عادوا على أنفسهم بالملامة ، وندموا حيث لا تنفعهم الندامة ، فقالوا : ﴿ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ أى : لو كانت لنا عقول ننتفع بها أو نسمع ما أنزل الله من الحق ، لما كنا على ما كنا عليه من الكفر بالله والاغترار به ، ولكن لم يكن لنا فهم نعى به ما جاءت به الرسل ، ولا كان لنا عقل يرشدنا إلى اتباعهم ، قال الله تعالى : ﴿ فَاعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَابِ السَّعِيرِ ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا محمد بن جعفر ، حدثنا شعبة ، عن عمرو بن مُرَّة ، عن أبى البَخْتَرىّ الطائى قال: أخبرنى من سمعه من رسول الله ﷺ أنه قال : « لن يهلك الناس حتى يُعذِروا من أنفسهم »[1]. وفى حديث آخر: « لا يدخل أحد النار ، إلا وهو يعلم أن النار أولى به من الجنة »[2].

﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ كَبِيرٌ ⁽¹²⁾ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ⁽¹³⁾ أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ⁽¹⁴⁾ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ⁽¹⁵⁾ ﴾ .

(١) المسند (٤/ ٢٦٠) .

(٢) فى المسند (٢/ ٥٤١) من حديث أبى هريرة مرفوعا : « لايدخل أحد النار إلا أرى مقعده من الجنة » وهو فى الصحيح .

يقول تعالى مخبراً عمن يخاف مقام ربه فيما بينه وبينه إذا كان غائباً عن الناس ، فينكف عن المعاصى ويقوم بالطاعات ، حيث لا يراه أحد إلا الله ، بأنه له مغفرة وأجر كبير ، أى : يكفر عنه ذنوبه ، ويجازى بالثواب الجزيل ، كما ثبت فى الصحيحين : « سبعة يظلهم الله فى ظل عرشه يوم لا ظل إلا ظله » ، فذكر منهم : « رجلا دعته امرأة ذات منصب وجمال فقال : إنى أخاف الله ، ورجلا تصدق بصدقة فأخفاها ، حتى لا تعلم شماله ما تنفق يمينه » (١) .

وقال الحافظ أبو بكر البزار فى مسنده : حدثنا طالوت بن عباد ، حدثنا الحارث بن عبيد ، عن ثابت ، عن أنس قال : قالوا : يا رسول الله ، إنا نكون عندك على حال، فإذا فارقناك كنا على غيره؟ قال : « كيف أنتم وربكم ؟ » قالوا : الله ربنا فى السر والعلانية. قال : « ليس ذلكم النفاق » (٢) .

لم يروه عن ثابت إلا الحارث بن عُبَيد فيما نعلمه .

ثم قال تعالى منبهاً على أنه مطلع على الضمائر والسرائر : ﴿ وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ ﴾ أى : بما خطر فى القلوب ، ﴿ أَلا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ﴾ ؟ أى : ألا يعلم الخالق . وقيل : معناه : ألا يعلم الله مخلوقه ؟ والأول أولى ، لقوله : ﴿ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴾ .

ثم ذكر نعمته على خلقه فى تسخيره لهم الأرض وتذليله إياها لهم ، بأن جعلها قارة ساكنة لا تمتد (٣) ولا تضطرب (٤) ، بما جعل فيها من الجبال ، وأنبع فيها من العيون ، وسلك فيها من السبل ، وهيأها فيها من المنافع ومواضع الزروع والثمار ، فقال : ﴿ هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ أى : فسافروا حيث شئتم من أقطارها ، وترددوا فى أقاليمها وأرجائها فى أنواع المكاسب والتجارات ، واعلموا أن سعيكم لا يجدى عليكم شيئاً ، إلا أن ييسره الله لكم ؛ ولهذا قال : ﴿وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ ﴾ ، فالسعى فى السبب لا ينافى التوكل ، كما قال الإمام أحمد :

حدثنا أبو عبد الرحمن ، حدثنا حَيْوَة ، أخبرنى بكر بن عمرو ، أنه سمع عبد الله بن هُبَيْرة يقول : إنه سمع أبا تميم الجَيشانى يقول : إنه سمع عمر بن الخطاب يقول : إنه سمع رسول الله ﷺ يقول : « لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله ، لرزقكم كما يرزق الطير ، تَغْدُو خِمَاصًا وتَرُوح بِطَاناً» .

رواه الترمذى والنسائى وابن ماجة ،من حديث ابن هبيرة (٥) ، وقال الترمذى : حسن صحيح . فأثبت لها رواحا وغدوا لطلب الرزق ، مع توكلها على الله ،عز وجل ، وهو المسَخِّر المسير المسبب . ﴿ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ ﴾ أى : المرجع يوم القيامة .

---

(١) صحيح البخارى برقم (٦٦٠) وصحيح مسلم برقم (١٠٣١) من حديث أبى هريرة ، رضى الله عنه .

(٢) مسند البزار برقم(٥٢) « كشف الأستار » وقال الحافظ ابن حجر فى مختصر الزوائد (١/ ٦٧) : « الحارث له مناكير وإن أخرج له فى الصحيح » .

(٣) فى أ : «لا تميد» .

(٤) فى م: « لاتضطرب ولا تميد » .

(٥) المسند (١/ ٣٠) وسنن الترمذى برقم (٢٣٤٤) وسنن ابن ماجة برقم (٤١٦٤) .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة والسدى : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : أطرافها وفجاجها ونواحيها . وقال ابن عباس وقتادة : ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ : الجبال .

وقال ابن أبى حاتم : حدثنا أبى ، حدثنا عمرو بن حكام الأزدى ، حدثنا شعبة ، عن قتادة ، عن يونس بن جبير ، عن بشير بن كعب: أنه قرأ هذه الآية: ﴿ فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا ﴾ فقال لأم ولد له: إن علمت ﴿ مَنَاكِبِهَا ﴾ فأنت عتيقة . فقالت : هى الجبال . فسأل أبو الدرداء فقال : هى الجبال .

﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ (١٦) أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ (١٧) وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ (١٨) أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَٰنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ (١٩) ﴾ .

وهذا أيضاً من لطفه ورحمته بخلقه أنه قادر على تعذيبهم ، بسبب كفر بعضهم به وعبادتهم معه غيره وهو مع هذا يحلم ويصفح ، ويؤجل ولا يعجل ، كما قال : ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ وَلَٰكِن يُؤَخِّرُهُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِعِبَادِهِ بَصِيرًا ﴾ [فاطر: ٤٥] .

وقال هاهنا : ﴿ أَأَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ الْأَرْضَ فَإِذَا هِيَ تَمُورُ ﴾ أى : تذهب وتجىء وتضطرب ، ﴿ أَمْ أَمِنتُم مَّن فِي السَّمَاءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ﴾ أى : ريحا فيها حصباء تدمغكم ، كما قال : ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا ﴾ [الإسراء: ٦٨] . وهكذا توعدهم هاهنا بقوله : ﴿ فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴾ أى : كيف يكون إنذارى وعاقبة من تخلف عنه وكذب به .

ثم قال : ﴿ وَلَقَدْ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ﴾ أى : من الأمم السابقة والقرون الخالية ، ﴿ فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴾ أى : فكيف كان إنكارى عليهم ومعاقبتى لهم ؟ أى : عظيماً شديداً أليماً .

ثم قال تعالى : ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ ﴾ أى : تارة يصففن أجنحتهن فى الهواء ، وتارة تجمع جناحاً وتنشر جناحاً ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ ﴾ أى : فى الجو ﴿إِلَّا الرَّحْمَٰنُ﴾ أى : بما سخر لهن من الهواء ، من رحمته ولطفه ، ﴿إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ ﴾ أى : بما يصلح كل شىء من مخلوقاته. وهذه كقوله : ﴿ أَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ مُسَخَّرَاتٍ فِي جَوِّ السَّمَاءِ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا اللَّهُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾ [النحل: ٧٩] .

﴿ أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَٰنِ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ (٢٠) أَمَّنْ هَٰذَا الَّذِي يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ بَل لَّجُّوا فِي عُتُوٍّ وَنُفُورٍ (٢١) أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ

وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (٢٢) قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ (٢٣) قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ (٢٤) وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٢٥) قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ (٢٦) فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا وَقِيلَ هَذَا الَّذِي كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ (٢٧) ﴾ .

يقول تعالى للمشركين الذين عبدوا غيره ، يبتغون عندهم نصراً ورزقاً ، مُنكراً عليهم فيما اعتقدوه ، ومُخبراً لهم أنه لا يحصل لهم ما أملوه ، فقال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ الرَّحْمَنِ ﴾ أي : ليس لكم من دونه من ولى ولا واق ، ولا ناصر لكم غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ إِنِ الْكَافِرُونَ إِلاَّ فِى غُرُورٍ ﴾ .

ثم قال : ﴿ أَمَّنْ هَذَا الَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُ ﴾ ؟ أى : من هذا الذى إذا قطع الله رزقه عنكم يرزقكم بعده ؟ ! أى : لا أحد يعطى ويمنع ويخلق ويرزق ، وينصر إلا الله ، عز وجل ، وحده لا شريك له ، أى : وهم يعلمون ذلك ، ومع هذا يعبدون غيره ؛ ولهذا قال : ﴿ بَل لَّجُّوا﴾ أى : استمروا فى طغيانهم وإفكهم وضلالهم ﴿ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ ﴾ أى : معاندة واستكباراً ونفوراً على أدبارهم عن الحق ، [أى] [1] : لا يسمعون له ولا يتبعونه .

ثم قال : ﴿ أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِ أَهْدَىٰ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ ؟ : وهذا مثل ضربه الله للمؤمن والكافر ، فالكافر مثله فيما هو فيه كمثل من يمشى مُكبّا على وجهه ، أى : يمشى منحنيا لا مستويا على وجهه ، أى : لا يدرى أين يسلك ولا كيف يذهب ؟ بل تائه حائر ضال، أهذا أهدى ﴿ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا ﴾ أى : منتصب القامة ﴿ عَلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴾ أى : على طريق واضح بين ، وهو فى نفسه مستقيم ، وطريقه مستقيمة . هذا مثلهم فى الدنيا ، وكذلك يكونون فى الآخرة . فالمؤمن يحشر يمشى سوياً على صراط مستقيم ، مُفض به إلى الجنة الفيحاء ، وأما الكافر فإنه يحشر يمشى على وجهه إلى نار جهنم ، ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ . مِن دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَىٰ صِرَاطِ الْجَحِيمِ . وَقِفُوهُمْ إِنَّهُم مَّسْئُولُونَ . مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ . بَلْ هُمُ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ﴾ [الصافات: ٢٢ـ ٢٦] .

قال الإمام أحمد ، رحمه الله : حدثنا ابن نُمَير ، حدثنا إسماعيل ، عن نُفَيع قال : سمعت أنس بن مالك يقول : قيل : يا رسول الله ، كيف يحشر الناس على وجوههم ؟ فقال : « أليس الذى أمشاهم على أرجلهم قادراً على أن يمشيهم على وجوههم » [2] .

وهذا الحديث مخرج فى الصحيحين من طريق [يونس بن محمد ، عن شيبان ، عن قتادة ، عن

(١) زيادة من م .
(٢) المسند (٣/١٦٧) .

أنس ، به نحوه][1] [2] .

وقوله : ﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى أَنشَأَكُمْ ﴾ أى : ابتدأ خلقكم بعد أن لم تكونوا شيئاً مذكورا ، ﴿ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ ﴾ أى : العقول والإدراك ، ﴿ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ ﴾ أى : ما أقل تستعملون هذه القوى التى أنعم الله بها عليكم ، فى طاعته وامتثال أوامره وترك زواجره .

﴿ قُلْ هُوَ الَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى الأَرْضِ ﴾ أى : بثكم ونشركم فى أقطار الأرض وأرجائها ، مع اختلاف ألسنتكم فى لغاتكم وألوانكم ، وحلاكم وأشكالكم وصوركم ، ﴿ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴾ أى : تُجمَعون بعد هذا التفرق والشتات ، يجمعكم كما فرقكم ويعيدكم كما بدأكم .

ثم قال مخبراً عن الكفار المنكرين المعاد المستبعدين وقوعه : ﴿ وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَذَا الْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ أى: متى [يقع] [3] هذا الذى تخبرنا بكونه من الاجتماع بعد هذا التفرق ؟ ﴿ قُلْ إِنَّمَا الْعِلْمُ عِندَ اللَّهِ ﴾ أى : لا يعلم وقت ذلك على التعيين إلا الله ، عز وجل ، لكنه أمرنى أن أخبركم أن هذا كائن وواقع لا محالة فاحذروه ، ﴿ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ : وإنما على البلاغ ، وقد أديته إليكم .

قال الله تعالى : ﴿ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيئَتْ وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ أى : لما قامت القيامة وشاهدها الكفار ، ورأوا أن الأمر كان قريباً ؛ لأن كل ما هو آت آت وإن طال زمنه ، فلما وقع ما كذبوا به ساءهم ذلك ، لما يعلمون ما لهم هناك من الشر ، أى : فأحاط بهم ذلك، وجاءهم من أمر الله ما لم يكن لهم فى بال ولا حساب ، ﴿ وَبَدَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ . وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا [4] وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ ﴾ [الزمر:٤٧ ، ٤٨] ؛ ولهذا يقال لهم على وجه التقريع والتوبيخ : ﴿ هَذَا الَّذِى كُنتُم بِهِ تَدَّعُونَ ﴾ أى : تستعجلون .

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (٢٨) قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِى ضَلالٍ مُّبِينٍ (٢٩) قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ (٣٠) ﴾ .

يقول تعالى : ﴿ قُلْ ﴾ : يا محمد لهؤلاء المشركين بالله الجاحدين لنعمه : ﴿ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَهْلَكَنِىَ اللَّهُ وَمَن مَّعِىَ أَوْ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ الْكَافِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ أى : خلِّصوا أنفسكم ، فإنه لا منقذ لكم من الله إلا التوبة والإنابة ، والرجوع إلى دينه ، ولا ينفعكم وقوع ما تتمنون لنا من العذاب والنَّكَال ، فسواء عذبنا الله أو رحمنا ، فلا مناص لكم من نكاله وعذابه الأليم الواقع بكم .

ثم قال : ﴿ قُلْ هُوَ الرَّحْمَنُ آمَنَّا بِهِ وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا ﴾ أى : آمنا برب العالمين الرحمن الرحيم ، وعليه

(١) زيادة من م،أ.

(٢) صحيح البخارى برقم (٤٧٦٠) وصحيح مسلم برقم (٢٨٠٦) .

(٣) زيادة من م .

(٤) فى م :« ما عملوا » وهوخطأ .

توكلنا فى جميع أمورنا ، كما قال : ﴿ فَاعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ﴾ [هود:١٢٣] . ولهذا قال : ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ ؟ أى : منا ومنكم ، ولمن تكون العاقبة فى الدنيا والآخرة ؟ .

ثم قال : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَصْبَحَ مَاؤُكُمْ غَوْرًا ﴾ أى : ذاهبا فى الأرض إلى أسفل ، فلا يُنَال بالفئوس الحداد ، ولا السواعد الشداد ، والغائر : عكس النابع ؛ ولهذا قال : ﴿ فَمَن يَأْتِيكُم بِمَاءٍ مَّعِينٍ ﴾ ؟ أى : نابع سائح جار على وجه الأرض ، لا يقدر على ذلك إلا الله ، عز وجل ، فمن فضله وكرمه [أن] (١) أنبع لكم المياه وأجراها فى سائر أقطار الأرض ، بحسب ما يحتاج العباد إليه من القلة والكثرة ، فله الحمد والمنة .

[آخر تفسير سورة « تبارك » ، ولله الحمد] (٢)

(١) زيادة من أ .

(٢) زيادة من م ، وفى أ : « آخر تفسير سورة الملك ولله الحمد والثناء الحسن الجميل » .

سورة الملك

مكّيّة،[1] وتسمّى الواقيةَ والمُنجية؛
لأنّها تقي وتنجي قارئها مِن عذاب القبر، وهي ثلاثون آيةً.[2]

بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ① ٱلَّذِي خَلَقَ ٱلۡمَوۡتَ وَٱلۡحَيَوٰةَ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗاۚ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ ②﴾

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِي بِيَدِهِ ٱلۡمُلۡكُ﴾ البركة: النماء والزيادة حسيّةً كانت أو عقلية، وكثرةُ الخير ودوامه أيضًا. ونسبتُها إلى الله عزّ وجلّ على المعنى الأوّل، وهو الأليق بالمقام باعتبار تعاليه عمّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله. وصيغة التفاعل للمبالغة في ذلك، فإنّ ما لا يتصوّر نسبته إليه سبحانه مِن الصيغ كالتكبّر ونحوه، إنّما تنسب إليه سبحانه باعتبار غاياتها؛ وعلى الثاني[3] باعتبار كثرة ما يفيض منه على مخلوقاته مِن / فنون الخيرات. [٢٠٧ظ]

والصيغة حينئذ يجوز أن تكون لإفادة نماء تلك الخيرات وازديادها شيئًا فشيئًا وآنًا فآنًا بحسب حدوثها أو حدوث متعلّقاتها، ولاستقلالها بالدلالة على غاية الكمال، وإنبائها عن نهاية التعظيم، لم يجز استعمالها في حقّ غيره سبحانه، ولا استعمالُ غيرها مِن الصيغ في حقّه تبارك وتعالى. وإسنادُها إلى الموصول للاستشهاد بما في حيّز الصلة على تحقّق مضمونها. واليد مجاز مِن القدرة التامّة والاستيلاء الكامل، أي: تعالى وتعاظَم بالذات عن كلّ ما سواهُ ذاتًا وصفةً وفعلًا، الذي بقبضة قُدرته التصرّف الكلّيّ في كلّ الأمور.

---

١ س + وهي ثلاثون آية.
٢ س - وهي ثلاثون آية.
٣ السياق: على المعنى الأوّل... وعلى الثاني...

﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿قَدِيرٌ﴾ مُبالغٌ في القُدرة عليه، يتصرَّف فيه حسبَما تقتضيه مشيئته المَبنيّة على الحِكَم البالغة. والجملة معطوفة على الصلة، مقرِّرةٌ لمضمونها، مفيدة لجريان أحكام مُلكه تعالى في جلائل الأمور ودقائقها.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ شروع في تفصيل بعض أحكام المُلك وآثار القدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم والمصالح، واستتباعهما لغايات جليلة. والموصول بدل مِن الموصول الأوّل داخل معه في حُكم الشهادة بتعاليه تعالى.

والموت عند أصحابنا صفة وجوديّة مضادّة للحياة، وأمّا ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما مِن أنّه تعالى خلَق الموت في صورة كبش أملحَ، لا يمرّ بشيء ولا يجد رائحته شيء إلّا مات، وخلَق الحياة في صورة فرس بلقاء، لا تمرّ بشيء ولا يجد رائحتها شيء إلّا حيي،[1] فكلام وارد على منهاج التمثيل والتصوير. وقيل: هو عدم الحياة، فمعنى خَلْقه حينئذ تقديره أو إزالة الحياة.[2]

وأيًّا ما كان فالأقرب أنّ المراد به الموت الطارئ، وبالحياة ما قبله وما بعده لظهور مداريّتهما لِما ينطق به قوله تعالى: ﴿لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ فإنّ استدعاء ملاحظتهما لإحسان العمل بما لا ريبَ فيه مع أنّ نفس العمل لا يتحقّق بدون الحياة الدنيويّة.

[٢٠٨و] وتقديمُ الموت لكونه أدعى إلى إحسان العمل، و"اللام" / متعلِّقة بـ﴿خَلَقَ﴾، أي: خَلَق موتكم وحياتكم، على أنّ "الألف"[3] و"اللام"[4] عِوض عن المضاف إليه، ليعاملكم معاملة مَن يختبركم أيّكم أحسنَ عملًا، فيُجازيكم على مراتبَ متفاوتة حسب تفاوت طبقات[5] علومكم وأعمالكم. فإنّ العمل غير مختصّ بعمل الجوارح، ولذلك فسّره صلّى الله عليه وسلّم بقوله: «أيّكم أحسنُ عقلًا وأورَعُ عن محارم الله وأسرعُ في طاعة الله».[6]

---

[1] التفسير البسيط للواحدي، ٣٧/٢٢؛ تفسير الرازي، ٥٧٩/٣٠؛ اللباب لابن عادل، ٢٢٤/١٩.

[2] القول بمعناه في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٤/٣؛ وفتوح الغيب للطِّيبي، ٥٢٨/١٥.

[3] س - الألف.

[4] س: اللام.

[5] س - طبقات.

[6] مضى بتخريجه في تفسير هود، ٧/١١.

فإنّ لكلّ مِن القلب والقالب عملًا خاصًا به، فكما أنّ الأوّل أشرفُ مِن الثّاني، كذلك الحال في عمله، كيف لا، ولا عملَ بدون معرفة الله عزّ وجلّ الواجبة على العباد آثر ذي أثير، وإنّما طريقها النظري التفكّر في بدائع صُنع الله تعالى والتدبّرُ في آياته المنصوبة في الأنفس والآفاق.

وقد رُوي عنه صلّى الله عليه وسلّم أنّه قال: «لا تفضّلوني على يونسَ بن متّى، فإنّه كان يُرفَع له كلّ يوم مِثلُ عمل أهلِ الأرض».[1] قالوا: وإنّما كان ذلك التفكّر في أمر الله عزّ وجلّ، الذي هو عمَل القلب ضرورة أنّ أحدًا لا يقدر على أن يعمل بجوارحه كلّ يوم مثلَ عمل أهل الأرض.

وتعليق فعلِ البلوى، أي: تعقيبه بحرف الاستفهام، لا التعليقُ المشهور الذي يقتضي عدم إيراد المفعول أصلًا مع اختصاصه بأفعال القلوب، لِما فيه مِن معنى العِلم باعتبار عاقبته كالنظر ونظائره، ولذلك أُجري مُجراه بطريق التمثيل. وقيل: بطريق الاستعارة التبَعيّة.[2]

وإيراد صيغة التفضيل مع أنّ الابتلاء شامل لهم باعتبار أعمالهم المنقسِمة إلى الحسَن والقبيح أيضًا لا إلى الحسَن والأحسن فقط، للإيذان بأنّ المراد بالذات والمقصدَ الأصلي مِن الابتلاء هو ظهور كمال إحسان المحسنين مع تحقّق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضًا، لكمال تعاضد الموجِبات له.

وأمّا الإعراض عن ذلك فبمَعزِل مِن الاندراج تحت الوقوع فضلًا عن الانتظام في سِلك الغاية للأفعال الإلهيّة، وإنّما هو عمل يصدر عن عامله بسوء اختياره، / مِن غير مصحِّح له ولا تقريب. وفيه مِن الترغيب في الترقّي إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات، والزجرِ عن مباشرة نقائضها ما لا يخفى. [٢٠٨ظ]

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ الغالب الذي لا يفوته مَن أساء العمل ﴿ٱلْغَفُورُ﴾ لمَن تاب منهم.

---

[1] مضى بتخريجه في تفسير هود، ١١/٧.

[2] القول في فتوح الغيب للطِّيبي، ١٥/٥٢٩.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ طِبَاقٗاۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖۖ فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ ۝٣﴾

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ قيل: هو نعت لـ﴿ٱلۡعَزِيزُ ٱلۡغَفُورُ﴾ أو بيان أو بدل.[١] والأوجه أنّه نصب أو رفع على المدح،[٢] متعلّق بالموصولين السابقين معنًى وإن كان منقطعًا عنهما إعرابًا، كما مرّ تفصيله في قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡغَيۡبِ﴾ [البقرة، ٣/٢] مِن سورة البقرة، منتظِم معهما في سِلك الشهادة بتعاليه سبحانه، ومع الموصول الثاني في كونه مدارًا للبلوى، كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٖ وَكَانَ عَرۡشُهُۥ عَلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [هود، ٧/١١].

وقوله تعالى: ﴿طِبَاقٗا﴾ صفة لـ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾ أي: مطابقةً على أنّه مصدر "طابقتُ النعل" إذا خصفتَها، وُصف به المفعول، أو مصدر مؤكِّد لمحذوف هو صفتها، أي: طوبِقَت طباقًا.[٣]

وقوله تعالى: ﴿مَّا تَرَىٰ فِى خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٖ﴾ صفة أخرى لـ﴿سَبۡعَ سَمَٰوَٰتٖ﴾، وُضع فيها ﴿خَلۡقِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ موضع الضمير للتعظيم والإشعار بعلّة الحُكم وبأنّه تعالى خلَقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضّلًا، وبأنّ في إبداعها نِعَمًا جليلة، أو استئناف. والخطاب للرسول صلّى الله عليه وسلّم، أو لكلّ أحد ممّن يصلح للخطاب، و﴿مِن﴾ لتأكيد النّفي، أي: ما ترى فيه شيئًا مِن تفاوت، أي: اختلاف وعدم تناسب، مِن "الفَوْت"، فإنّ كلًّا مِن المتفاوتَين يفوت منه بعض ما في الآخر. وقُرئ: "مِنْ تَفَوُّتٍ"،[٤] ومعناهما واحد.

وقوله تعالى: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ هَلۡ تَرَىٰ مِن فُطُورٖ﴾ متعلّق به على معنى التسبّب، حيث أُخبِر أوّلًا بأنه لا تفاوت في خلقهنّ، ثمّ قيل: ﴿فَٱرۡجِعِ ٱلۡبَصَرَ﴾

---

١ هذه الوجوه في اللباب لابن عادل، ٢٢٦/١٩.

٢ انظر: اللباب لابن عادل، ٢٢٧/١٩.

٣ وفي هامش م: وفي القاموس: المطابقة: الموافقة، و"السماوات طِباق" كـ"كتاب" لمطابقة بعضها لبعض، فيكون مصدرًا وُصف به الفاعل، أو مصدرًا مؤكِّدًا لفعل مبنيّ للفاعل، أي: طابقت طباقًا. «منه». | انظر: القاموس المحيط للفيروزآبادي، «طبق».

٤ قرأ بها حمزة والكسائي. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.

حتّى يتّضح لك / ذلك بالمعاينة ولا يبقى عندك شبهة ما. والفُطور: الشقوق [٢٠٩و]
والصدوع جمع "فطْر" وهو الشقّ، يقال: فطَره فانفطر.

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤ وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَٰبِيحَ وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ ۖ وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ ۝٥﴾

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتين أُخريين في ارتياد الخلَل. والمراد بالتثنية التكرير والتكثير كما في "لبّيك" و"سعدَيك"، أي: رجعة بعد رجعة وإن كثُرت. ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾ أي: بعيدًا محرومًا مِن إصابة ما التمسه مِن العيب والخلَل، كأنّه يُطرد عن ذلك طردًا بالصَّغار والقماءة. ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ﴾ أي: كَلِيل لطول المعاودة وكثرةِ المراجعة.

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا﴾ بيان لكون خَلْق السماوات في غاية الحُسن والبهاء، إثر بيان خلوّها عن شائبة القصور. وتصدير الجملة بالقسَم لإبراز كمال الاعتناء بمضمونها، أي: وبالله لقد زيّنا أقرب السماوات إلى الأرض ﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾ أي: بكواكبَ مضيئةٍ بالليل إضاءة السُّرُج مِن السيّارات والثوابت، تتراءى كأنّ كلّها مركوزة فيها مع أنّ بعضها في سائر السماوات، وما ذاك إلّا لأنّ كلّ واحدة منها مخلوقة على نمط رائق يحار في فهمه الأفكار، وطِراز فائق يهيم في دَرْكه الأنظار.

﴿وَجَعَلْنَٰهَا رُجُومًا لِّلشَّيَٰطِينِ﴾ وجعلنا لها فائدةً أخرى، هي رَجْم أعدائكم بانقضاض الشُّهُب المقتبسة مِن نار الكواكب.[١] وقيل: معناه وجعلناها ظنونًا ورجومًا بالغيب لشياطين الإنس وهم المنجِّمون.[٢] ولا يساعده المقام. و"الرُّجوم" جَمْع "رَجْم" بالفتح: وهو ما يُرجَم به.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ في الآخرة ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾ بعد الإحراق في الدنيا بالشُّهب.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ۝٦﴾

---

١ س: الكوكب.

٢ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٨/٤.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ مِن الشياطين وغيرهم ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ وقُرئ بالنصب[١] على أنّه عطف على ﴿عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾،[٢] ﴿وَلِلَّذِينَ﴾ على ﴿لَهُمْ﴾.[٣] ﴿وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ﴾ / أي: جهنّم. [٢٠٩ظ]

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا شَهِيقًا وَهِىَ تَفُورُ ۝٧ تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ۝٨ قَالُواْ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ۝٩﴾

﴿إِذَآ أُلْقُواْ فِيهَا سَمِعُواْ لَهَا﴾ أي: لجهنّم، وهو متعلّق بمحذوف وقع حالًا مِن قوله تعالى: ﴿شَهِيقًا﴾، لأنّه في الأصل صفته، فلمّا قدّمت صارت حالًا، أي: سمعوا كائنًا لها شهيقًا، أي: صوتًا كصوت الحمير، وهو حسيسها المنكَر الفظيع. قالوا: الشهيق في الصدر والزفير في الحَلْق.[٤] ﴿وَهِىَ تَفُورُ﴾ أي: والحال أنّها تغلي بهم غليان المِرجل بما فيه.

وجعلُ الشهيق لأهلها منهم وممّن طُرح فيها قبلهم كما في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود، ١٠٦/١١]،[٥] يردّه قوله تعالى: ﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: تتميّز وتتفرّق ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ أي: مِن شدّة الغضب عليهم، فإنّه صريح في أنّه مِن آثار الغضب عليهم، كما في قوله تعالى: ﴿سَمِعُواْ لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾ [الفرقان، ١٢/٢٥]، فأين هو مِن شهيقهم الناشئ مِن شدّة ما يقاسونه مِن العذاب الأليم. والجملة إمّا حال مِن فاعل ﴿تَفُورُ﴾ أو خبر آخر.

وقوله تعالى: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ﴾ استئناف مَسوق لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها. وقيل:[٦] حال مِن ضميرها،[٧] أي: كلّما ألقي فيها جماعة مِن الكفرة.

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج والضحّاك وأسيد المدني. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٤٧٩؛ المغني في القراءات للنّوزاوازي، ص ١٨١١.

٢ في الآية السالفة.

٣ في الآية السالفة.

٤ مرويّ عن أبي العالية في جامع البيان للطبري، ٥٧٧/١٢ (هود، ١٠٦/١١)؛ ونقله ابن عادل عن القرطبي في اللباب، ٢٣٨/١٩.

٥ كما في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٨/٤.

٦ س: وهي.

٧ هذا الوجه في اللباب لابن عادل، ٢٣٩/١٩.

﴿سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ بطريق التوبيخ والتقريع، ليزدادوا عذابًا فوق عذاب وحسرةً على حسرة: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ﴾ يتلو عليكم آيات ربّكم وينذركم لقاءَ يومكم هذا، كما وقَع في سورة الزمر.[١]

ويُعرب عنه جوابهم أيضًا، ﴿قَالُوا﴾ اعترافًا بأنّه تعالى قد أزاح عِلَلهم بالكلّيّة ﴿بَلَىٰ قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾ جامعين بين حرف الجواب ونفس الجملة المجاب بها مبالغةً في الاعتراف بمجيء النذير وتحسّرًا على ما فاتهم مِن السعادة في تصديقهم وتمهيدًا لبيان ما وقَع منهم مِن التفريط تندّمًا واغتمامًا على ذلك، أي: قال كلّ فوج مِن تلك الأفواج: ﴿قَدْ جَاءَنَا نَذِيرٌ﴾، أي: واحد حقيقةً أو حُكمًا، كأنبياء بني إسرائيلَ، فإنّهم في حُكم نذير واحد، فأنذرَنا وتلا علينا ما نزّل الله تعالى عليه مِن آياته.

﴿فَكَذَّبْنَا﴾ ذلك النذير في كونه نذيرًا مِن جهته تعالى: ﴿وَقُلْنَا﴾ في حقّ ما تلاه مِن الآيات إفراطًا في التكذيب وتماديًا في النكير ﴿مَا نَزَّلَ اللَّهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء فضلًا عن تنزيل الآيات عليكم. ﴿إِنْ أَنتُمْ﴾ أي: ما أنتم في ادّعاء أنّه تعالى نزّل عليكم آياتٍ تنذروننا بما فيها ﴿إِلَّا فِي ضَلَالٍ كَبِيرٍ﴾ بعيد عن الحقّ والصواب.

وجمعُ ضمير الخطاب مع أنّ مخاطَب كلّ فوج نذيرُه لتغليبه على أمثاله مبالغةً في التكذيب وتماديًا في التضليل، / كما ينبئ عنه تعميم المُنزَّل مع تَرْك [٢١٠و] ذِكر المنزَّل عليه، فإنّه ملوّح بعمومه حتمًا. وأمّا إقامة تكذيب الواحد مُقام تكذيب الكلّ فأمر تحقيقيّ يُصار إليه لتهويل ما ارتكبوه مِن الجناية، لا مساغَ لاعتباره مِن جهتهم ولا لإدراجه تحت عبارتهم، كيف لا، وهو منوط بملاحظة إجماع النذُر على ما لا يختلف مِن الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام، وأين هم مِن ذلك وقد «حال الجريض دون القريض».[٢]

---

[١] في الآية التاسعة والخمسين منها.

[٢] مجمع الأمثال للميداني، ١/١٩١. وفيه: «الجريض: الغُصّة... والقريض: الشِّعر... يُضرَب للأمر يُقدَر عليه أخيرًا حين لا ينفع». ومضى في تفسير هود، ١١/٤٢.

هذا إذا جُعل ما ذُكر حكايةً عن كلّ واحد مِن الأفواج، وأمّا إذا جُعل حكايةً عن الكلّ، فالنذير إمّا بمعنى الجمع لأنّه فعيل، أو مصدر مقدَّر بمضاف عامّ، أي: أهل نذير، أو منعوت به فيتّفق كلا طرفَي الخطاب في الجمعيّة.

ومَن اعتبر الجمعيّة بأحد الوجوه الثلاثة على التقدير الأوّل ولم يخصّ اعتبارها بالتقدير الأخير، فقد اشتبه عليه الشئون واختلط به الظنون. وقد جُوّز أن يكون الخطاب مِن كلام الخزَنة للكفّار على إرادة القول، على أنّ مرادهم بالضّلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو هلاكهم أو عقاب ضلالهم تسميةً له باسم سببه، وأن يكون مِن كلام الرسل للكفَرة، وقد حكَوه للخزَنة.[1] فتأمّل وكن على الحقّ المبين.

﴿وَقَالُواْ لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾

﴿وَقَالُواْ﴾ أيضًا معترِفين بأنّهم لم يكونوا ممّن يسمع أو يعقل ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلامًا ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ شيئًا ﴿مَا كُنَّا فِيٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ أي: في عِدادهم ومِن أتباعهم، وهم الشياطين، لقوله تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ﴾،[2] كأنّ الخزنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ: ألم تسمعوا آيات ربّكم ولم تعقلوا معانيها حتّى لا تكذبوا بها، فأجابوا بذلك.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ الذي هو كفرهم وتكذيبهم بآيات الله ورسله ﴿فَسُحْقًا﴾ بسكون "الحاء"، وقُرئ بضمّها،[3] مصدر مؤكِّد إمّا لفعل متعدّ مِن المزيد بحذف الزوائد، كما في "قِعْدَكَ اللهَ"، أي: فأسحقهم الله، أي: أبعَدهم مِن رحمته سُحقًا، أي: إسحاقًا، أو لفعل مترتِّب على ذلك الفعل، أي: فأسحقهم الله فسحُقوا، أي: بعدوا سُحقًا، أي: بعدًا، كما في قول مَن قال:

[٢١٠ظ] وعضّةُ دهر يا بن مروان لم يَدَعْ / مِن المال إلّا مُسحَتٌ أو مُجلَّفُ[4]

---

[1] الوجهان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٢٦.
[2] في الآية الخامسة مِن هذه السورة.
[3] قرأ بها الكسائي وابن جمّاز بخلاف عنهما. النشر لابن الجزري، ٢/٢١٧.
[4] البيت للفرزدق، ومضى بتخريجه في تفسير البقرة، ٢/٤٩.

أي: لم يدعَ فلم يبقَ إلّا مُسحَت... إلخ، وعلى هذين الوجهين قوله تعالى: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران، ٣٧/٣]. و"اللام" في قوله تعالى: ﴿لِّأَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ للبيان كما في ﴿هَيۡتَ لَكَ﴾ [يوسف، ٢٣/١٢] ونحوه، والمراد بهم الشياطين والداخلون في عِدادهم بطريق التغليب.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ لَهُم مَّغۡفِرَةٞ وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يخافون عذابه غائبًا عنهم، أو غائبين عنه، أو عن أعين النّاس، أو بما خفيَ منهم وهو قلوبهم. ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمة لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ﴾ لا يُقادر قَدْره.

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓۖ إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ١٣ أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ ١٤﴾

﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ بيان لتساوي السرّ والجهر بالنسبة إلى عِلمه تعالى، كما في قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد، ١٠/١٣]. قال ابن عبّاس: نزلت في المشركين كانوا ينالون مِن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فيُوحى إليه عليه السلام، فقال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم كيلا يسمع ربّ محمّد، فقيل لهم: أسرّوا ذلك أو اجهروا به فإنّ الله يعلمه.[١]

وتقديم السرّ على الجهر للإيذان بافتضاحهم ووقوعِ ما يحذرونه مِن أوّل الأمر والمبالغةِ في بيان شمول عِلمه المحيط لجميع المعلومات، كأنّ عِلمه تعالى بما يُسرّونه أقدم منه بما يجهرون به، مع كونهما في الحقيقة على السويّة، فإنّ عِلمه تعالى بمعلوماته ليس بطريق حصول صوَرها؛ بل وجود كلّ شيء في نفسه عِلم بالنسبة إليه تعالى، أو لأنّ مرتبة السرّ متقدّمة على مرتبة الجهر؛ إذ ما مِن شيء يُجهر به إلّا وهو أو مباديه مضمَر في القلب، يتعلّق به الأسرار غالبًا، فتعلُّق عِلمه تعالى بحالته الأولى متقدِّم على تعلّقه بحالته الثانية.

---

١ معالم التنزيل للبغوي، ١٧٨/٨.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾ تعليل لِما قبله وتقرير له. وفي صيغة "الفعيل" وتحليةِ ﴿ٱلصُّدُورِ﴾ بلام الاستغراق ووصفِ الضمائر بصاحبيّتها مِن الجزالة ما لا غايةَ وراءه. كأنّه قيل: إنّه مبالِغ في الإحاطة بمضمرات جميع الناس وأسرارِهم الخفيّة المستكِنّة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقها أصلًا، فكيف يخفى عليه ما تُسرّونه وتجهرون به. ويجوز أن يراد بـ﴿ذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾: القلوب التي في الصدور، والمعنى: إنّه عليم بالقلوب وأحوالها، فلا يخفى
[٢١١و] / عليه سرّ مِن أسرارها.[١]

وقوله تعالى: ﴿أَلَا يَعۡلَمُ مَنۡ خَلَقَ﴾ إنكار ونفي لعدم إحاطة عِلمه تعالى بالمضمَر والمظهَر، أي: ألا يعلم السرّ والجهر مَن أوجد بموجَب حِكمته جميع الأشياء التي هما مِن جملتها. وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ حال مِن فاعل ﴿يَعۡلَمُ﴾ مؤكِّدة للإنكار والنفي، أي: ألا يعلم ذلك والحال أنّه المتوصِّل عِلمه إلى ما ظهر مِن خلقه وما بطن.

ويجوز أن يكون ﴿مَنۡ خَلَقَ﴾ منصوبًا،[٢] والمعنى: ألا يعلم الله مَن خلقه، والحال أنّه بهذه المثابة مِن شمول العِلم. ولا مساغ لإخلاء العِلم عن المفعول بإجرائه مُجرَى "يعطي" و"يمنع"، على معنى: ألّا يكون عالمًا مَن خلَق، لأنّ الخَلْق لا يتأتّى بدون العِلم، لخلوّ الحال حينئذ عن الإفادة؛ لأنّ نَظْم الكلام حينئذ ألّا يكون عالمًا وهو مبالغ في العِلم.

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ١٥﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا﴾ ليِّنة يسهل عليكم السلوك فيها، وتقديم ﴿لَكُمُ﴾ على مفعولَي الجَعْل مع أنّ حقّه التأخر عنهما للاهتمام بما قُدِّم والتشويق إلى ما أُخِّر، فإنّ ما حقّه التقديم إذا أُخِّر لا سيّما عند كون المقدَّم

---

[١] الكلام في أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٢١/٢ (هود، ٥/١١).

[٢] هذا الوجه في الكشّاف للزمخشري، ٤٣٩/٤-٤٤٠.

ممّا يدلّ على كون المؤخَّر مِن منافع المخاطَبين تبقى النفس مترقبةً لوروده، فيتمكَّن لديها عند ذِكره فضلَ تمكّن.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر على الجَعْل المذكور، أي: فاسلكوا في جوانبها أو جبالها. وهو مثَل لفرط التذليل، فإنّ مَنكِب البعير أرقّ أعضائه وأنْباها عن أن يطأه الراكب بقدمه، فإذا جُعل الأرض في الذلّ بحيث يتأتّى المشيُ في مناكبها لم يبقَ منها شيء لم يتذلّل.

﴿وَكُلُواْ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ والتمسوا مِن نِعَم الله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ﴾ أي: المَرجع بعد البعث، لا إلى غيره، فبالغوا في شُكر نِعَمه وآلائه.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ فَإِذَا هِىَ تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: الملائكةَ الموكَّلين بتدبير هذا العالم، أو الله سبحانه على تأويل: مَن في السماء أمرُه وقضاؤه، أو على زَعْم العرب حيث كانوا يزعمون أنّه تعالى في السماء، أي: أأمنتم مَن تزعمون / أنّه في السماء، وهو [٢١١ظ] متعالٍ عن المكان.

﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ بعد ما جعَلها لكم ذلولًا تمشون في مناكبها وتأكلون مِن رزقه، لكفرانكم تلك النعمة، أي: يقلبها ملتبِسةً بكم، فيُغيِّبكم فيها كما فعل بقارون، وهو بدل اشتمال مِن ﴿مَن﴾. وقيل: هو على حذف الجارّ، أي: مِن أن يخسف.[١] ﴿فَإِذَا هِىَ تَمُورُ﴾ أي: تضطرب ذهابًا ومجيئًا على خلاف ما كانت عليه مِن الذلّ والاطمئنان.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ﴾ إضراب عن التهديد بما ذُكر وانتقال إلى التهديد بوجه آخرَ، أي: بل أأمنتم مَن في السّماء. ﴿أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ أي: حجارةً مِن السماء كما أرسلها على قوم لوطٍ وأصحاب الفيل. وقيل: ريحًا فيها حجارة وحصباء، كأنّها تقلع الحصباء لشدّتها وقوّتها. وقيل: هي سحاب فيها حجارة.[٢]

---

[١] القول في اللباب لابن عادل، ٢٤٨/١٩.

[٢] القولان في اللباب لابن عادل، ٢٤٩/١٩.

﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ عن قريب البتَّةَ ﴿كَيۡفَ نَذِيرِ﴾ أي: إنذاري عند مشاهدتكم للمنذَر به، ولكن لا ينفعكم العِلم حينئذ. وقُرئ: "فَسَيَعْلَمُوْنَ"[١] بالياء.

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ ١٨﴾

﴿وَلَقَدۡ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ مِن قبل كفّار مكّة مِن كفّار الأمم السّالفة، كقوم نوحٍ وعادٍ وأضرابهم. والالتفات إلى الغَيبة لإبراز الإعراض عنهم. ﴿فَكَيۡفَ كَانَ نَكِيرِ﴾ أي: إنكاري عليهم بإنزال العذاب، أي: كان على غاية الهَول والفظاعة. وهذا هو مورد التأكيد القَسَمي، لا تكذيبهم فقط. وفيه مِن المبالغة في تسلية رسول الله صلّى الله عليه وسلّم، وتشديدِ التهديد لقومه ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ وَيَقۡبِضۡنَۚ مَا يُمۡسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُۚ إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ ١٩ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِۚ إِنِ ٱلۡكَٰفِرُونَ إِلَّا فِي غُرُورٍ ٢٠ أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي يَرۡزُقُكُمۡ إِنۡ أَمۡسَكَ رِزۡقَهُۥۚ بَل لَّجُّواْ فِي عُتُوّٖ وَنُفُورٍ ٢١ أَفَمَن يَمۡشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجۡهِهِۦٓ أَهۡدَىٰٓ أَمَّن يَمۡشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٢٢﴾

﴿أَوَلَمۡ يَرَوۡاْ﴾ أغفَلوا ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيۡرِ فَوۡقَهُمۡ صَٰٓفَّٰتٖ﴾ باسطات أجنحتهنّ في الجوّ عند طيرانها، فإنهنّ إذا بَسَطنها صففْنَ قوادمها[٢] صفًّا. ﴿وَيَقۡبِضۡنَ﴾ ويضمُمْنَها إذا ضربنَ بها جنوبهنّ حينًا فحينًا للاستظهار به على التحرُّك. وهو السرّ في إيثار ﴿يَقۡبِضۡنَ﴾ الدالِّ على تجدُّد القبض تارةً بعد تارة على "قابضات".

﴿مَا يُمۡسِكُهُنَّ﴾ في الجوّ عند الصفّ والقبض على خلاف مقتضى الطبع ﴿إِلَّا ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ الواسعُ رحمتُه كلَّ شيء، بأن برأهنّ على أشكال وخصائص، وهيأهنّ للجري في الهواء. والجملة مستأنفة أو حال مِن الضمير في ﴿يَقۡبِضۡنَ﴾. ﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَيۡءِۭ بَصِيرٌ﴾ يعلم كيفيّة إبداع المبدَعات وتدبير المصنوعات.

وقوله تعالى: ﴿أَمَّنۡ هَٰذَا ٱلَّذِي هُوَ جُندٞ لَّكُمۡ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحۡمَٰنِ﴾ تبكيت لهم / بنفي أن يكون لهم ناصرٌ غير الله تعالى، كما يلوِّح به التعرّض لعنوان الرحمانيّة، [٢١٢و]

---

١ قراءة شاذّة، غير منسوبة. الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٠.

٢ القوادم: أربع ريشات في مقدَّم الجناح، الواحدة منها قادمة. لسان العرب لابن منظور، «منه».

ويعضده قوله تعالى: ﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾،[١] أو ناصر مِن عذابه تعالى، كما هو الأنسب بما سيأتي مِن قوله تعالى: ﴿إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ﴾،[٢] كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء، ٤٣/٢١] في المعنيين معًا، خلا أنّ الاستفهام هناك متوجّه إلى نفس المانع وتحقُّقه، وههنا إلى تعيين الناصر لتبكيتهم بإظهار عجزهم عن تعيينه.

و"أم" منقطِعة مقدَّرة بـ"بل" المفيدة للانتقال مِن توبيخهم على ترك التأمّل فيما يشاهدونه مِن أحوال الطير المنبئة عن تعاجيب آثار قدرة الله عزّ وجلّ إلى التبكيت بما ذُكر. والالتفات للتشديد في ذلك، ولا سبيلَ إلى تقدير الهمزة معها، لأنّ ما بعدها "مَن" الاستفهاميّة، وهي مبتدأ وهذا خبره، والموصول مع صلته صفته، كما في قوله تعالى: ﴿مَن ذَا ٱلَّذِى يَشْفَعُ عِندَهُۥ﴾ [البقرة، ٢٥٥/٢].

وإيثارُ ﴿هَٰذَا﴾ لتحقير المشار إليه. و﴿يَنصُرُكُم﴾ صفة لـ﴿جُندٌ﴾ باعتبار لفظه. و﴿مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾، على الوجه الأوّل، إمّا حال مِن فاعل ﴿يَنصُرُكُم﴾ أو نعت لمصدره، وعلى الثاني متعلّق بـ﴿يَنصُرُكُم﴾، كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود، ٣٠/١١]، فالمعنى: بل مَن هذا الحقير الذي هو في زعمكم جند لكم ينصركم، متجاوزًا نصر الرحمن، أو ينصركم نصرًا كائنًا مِن دون نصره تعالى، أو ينصركم مِن عذاب كائن مِن عند الله عزّ وجلّ.

وتوهُّم أنّ "أم" معادِلةٌ لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾... إلخ، معَ القول بأنّ "مَن" استفهاميّة،[٣] ممّا لا تقريبَ له أصلًا.

وقوله تعالى: ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ﴾ اعتراض مقرّر لِما قبله، ناعٍ عليهم ما هم فيه مِن غاية الضلال، أي: ما هم في زعمهم أنّهم محفوظون مِن النوائب بحفظ آلهتهم لا بحفظه تعالى فقط، أو أنّ آلهتهم تحفظهم مِن بأس الله إلّا في غُرور عظيم وضلال فاحش مِن جهة الشيطان، ليس لهم في ذلك شيء يعتدّ به في الجملة. والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء حالهم للإعراض عنهم وبيانِ قبائحهم لغيرهم. والإظهارُ في موقع الإضمار لذمّهم بالكفر وتعليلِ غُرورهم به.

---

١ في الآية السالفة.
٢ في الآية التالية.
٣ كما في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٤٢٨/٣.

والكلام في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي: الله عز وجلّ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر وسائر مباديه، كالذي[١] مرّ تفصيله، خلا أنّ قوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّواْ فِى عُتُوٍّ وَنُفُورٍ﴾ / منبئ عن مقدّر يستدعيه المقام، كأنّه قيل إثرَ [٢١٢ظ] تمام التبكيت والتعجيز: لم يتأثّروا بذلك ولم يُذعنوا للحقّ؛ بل لجّوا وتمادَوا في عتوّ، أي: عِناد واستكبار وطغيان، ونفور، أي: شِراد عن الحقّ.

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِى مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ﴾... إلخ، مَثَل ضُرب للمشرك والموحّد توضيحًا لحالهما وتحقيقًا لشأن مذهبيهما. و"الفاء" لترتيب ذلك على ما ظهَر مِن سوء حالهم وخُرورهم في مهاوي الغرور، وركوبِهم متنَ عشواءِ العتوّ والنفور، وعدمِ اهتدائهم في مَسلك المُحاجّة إلى جهة يتوهَّم فيها رُشد في الجملة، فإنّ تقدّم "الهمزة" عليها صورةً إنّما هو لاقتضائها الصدارة، وأمّا بحسب المعنى فالأمر بالعكس، كما هو المشهور حتّى لو كان مكان "الهمزة" "هل" لقيل: فهل مَن يمشي مكبًّا... إلخ؟ والمُكِبّ الساقط على وجهه، يقال: أكبّ: خرّ على وجهه، وحقيقته صار ذا كبّ ودخل في الكبّ، كـ"أقشع الغمام"، أي: صار ذا قشَع.

والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثر في كلّ ساعة ويخرّ على وجهه في كلّ خطوة لتوعُّر طريقه واختلال قواه، أهدى إلى المقصد الذي يؤمّه ﴿أَمَّن يَمْشِى سَوِيًّا﴾ أي: قائمًا سالمًا مِن الخبط والعِثار ﴿عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ مستوي الأجزاء لا عِوَج فيه ولا انحراف. قيل: خبرُ "مَن" الثانية محذوف لدلالة خبر الأولى عليه.[٢] ولا حاجةَ إلى ذلك، فإنّ الثانية معطوفة على الأولى عطْفَ المفرد على المفرد، كقولك: أزيد أفضلُ أم عمرو؟

وقيل: أُريدَ بـ"المُكبّ" الأعمى وبـ"السويّ" البصير. وقيل: مَن يمشي مكبًّا هو الذي يُحشر على وجهه إلى النّار، ومَن يمشي سويًّا الذي يُحشر على قدميه إلى الجنّة.[٣]

---

١ السياق: والكلامُ... كالذي...
٢ القول في اللباب لابن عادل، ١٩/٢٥٥.
٣ القولان في أنوار التنزيل للبيضاوي، ٣/٤٢٩.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۖ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ﴾ إنشاءً بديعًا ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ﴾ لتسمعوا آياتِ الله وتمتثلوا بما فيها مِن الأوامر والنواهي وتتّعظوا بمواعظها. ﴿وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ لتنظروا بها إلى الآيات/ التكوينيّة الشاهدة بشئون الله عزّ وجلّ. ﴿وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ لتتفكّروا بها فيما تسمعونه [٢١٣و] وتشاهدونه مِن الآيات التنزيليّة والتكوينيّة، وترتقوا في معارج الإيمان والطاعة.

﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ أي: باستعمالها فيما خُلقت لأجله مِن الأمور المذكورة. و﴿قَلِيلًا﴾[١] نعت لمحذوف، و﴿مَّا﴾ مزيدة لتأكيد القلّة، أي: شكرًا قليلًا، أو زمانًا قليلًا تشكرون. وقيل: القلّة عبارة عن العدم.[٢]

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقكم وكثّركم فيها لا غيرُه ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ للجزاء لا إلى غيره اشتراكًا أو استقلالًا، فابنُوا أموركم على ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِن فَرْط عتوّهم وعنادهم ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الحشر الموعود، كما ينبئ عنه قوله تعالى: ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾.[٣] ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ يُخاطبون به النبيّ صلّى الله عليه وسلّم والمؤمنين، حيث كانوا مشاركين له عليه السلام في الوعد وتلاوة الآيات المتضمِّنة له. وجواب الشرط محذوف، أي: إن كنتم صادقين فيما تخبرونه مِن مجيء الساعة والحشر فبيّنوا وقته.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ عِندَ ٱللَّهِ وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾ فَلَمَّا رَأَوْهُ زُلْفَةً سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقِيلَ هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: العِلم بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عزّ وجلّ، لا يطّلع عليه غيره، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف، ١٨٧/٧]. ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ أنذِركم وقوع الموعود لا محالةَ، وأمّا العِلم بوقت وقوعه فليس مِن وظائف الإنذار.

---

١ س ي + إمّا.

٢ القول في اللباب لابن عادل، ٢٥٦/١٩.

٣ في الآية السالفة.

و"الفاء" في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَوۡهُ﴾ فصيحة معرِبة عن تقدير جملتين وترتيبِ الشرطيّة عليهما، كأنّه قيل: وقد أتاهم الموعود فرأوه فلمّا رأوه... إلخ، كما مرّ تحقيقه في قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسۡتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل، ٤٠/٢٧]، إلّا أنّ المقدَّر هناك أمر واقع مرتَّب على ما قبله بـ"الفاء"، وههنا أمر منزَّل منزلةَ الواقع وارد على طريقة الاستئناف.

وقوله تعالى: ﴿زُلۡفَةٗ﴾ حال مِن مفعول ﴿رَأَوۡا﴾، إمّا بتقدير المضاف أي: ذا زُلفة وقُرب، أو على أنّه مصدر بمعنى الفاعل، أي: مزدلفًا، / أو على أنّه مصدر نُعت [٢١٣ظ]
به مبالغةً، أو ظرف، أي: رأوه في مكان ذي زُلفة. ﴿سِيٓـَٔتۡ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بأن غشِيَتها الكآبة ورَهِقَها القَتَر والذِّلّة. ووَضْعُ الموصول موضعَ ضميرهم لذمّهم بالكفر وتعليل المساءة به.

﴿وَقِيلَ﴾ توبيخًا لهم وتشديدًا لعذابهم ﴿هَٰذَا ٱلَّذِي كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ﴾ أي: تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكارًا واستهزاءً، على أنّه "تفتعلون" مِن الدعاء. وقيل: هو مِن الدّعوى،[١] أي: تدّعون ألّا بعثَ ولا حشرَ. وقُرئ: "تَدْعُوْنَ".[٢] هذا وقد رُوي عن مجاهد أنّ الموعود عذاب يوم بدر.[٣] وهو بعيد.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ أَوۡ رَحِمَنَا فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ ﴿٢٨﴾﴾

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنۡ أَهۡلَكَنِيَ ٱللَّهُ﴾ أي: أماتني، والتعبيرُ عنه بالإهلاك لِما كانوا يدعون عليه صلّى الله عليه وسلّم وعلى المؤمنين بالهلاك. ﴿وَمَن مَّعِيَ﴾ مِن المؤمنين ﴿أَوۡ رَحِمَنَا﴾ بتأخير آجالنا، فنحن في جوار رحمته متربّصون لإحدى الحُسنيين. ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلۡكَٰفِرِينَ مِنۡ عَذَابٍ أَلِيمٖ﴾ أي: لا ينجّيكم منه أحد مُتنا أو بقينا. ووضعُ الكافرين موضعَ ضميرهم للتسجيل عليهم بالكفر وتعليلِ نفي الإنجاء به.

﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ ءَامَنَّا بِهِۦ وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَاۖ فَسَتَعۡلَمُونَ مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ ﴿٢٩﴾﴾

﴿قُلۡ هُوَ ٱلرَّحۡمَٰنُ﴾ أي: الذي أدعوكم إلى عبادته مُولي النِّعم كلّها، ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ وحدَه لِما علمنا أنّ كلّ ما سواه فإمّا نعمة أو مُنعَم عليه. ﴿وَعَلَيۡهِ تَوَكَّلۡنَا﴾

---

١ القول في الكشّاف للزمخشري، ٤٤٢/٤.

٢ قرأ بها يعقوب. النشر لابن الجزري، ٣٨٩/٢.

٣ انظر: اللباب لابن عادل، ٢٥٧/١٩.

لا على غيره أصلًا، لعِلمنا بأنّ ما عداه كائنًا ما كان بمَعزِل مِن النفع والضَرّ. ﴿فَسَتَعۡلَمُونَ﴾ عن قريب البتّةَ ﴿مَنۡ هُوَ فِي ضَلَٰلٖ مُّبِينٖ﴾ منّا ومنكم. وقُرئ: "فَسَيَعْلَمُونَ"[١] بالياء التحتانيّة.

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ ۝٣٠﴾

﴿قُلۡ أَرَءَيۡتُمۡ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنۡ أَصۡبَحَ مَآؤُكُمۡ غَوۡرٗا﴾ أي: غائرًا في الأرض بالكلّيّة. وقيل: بحيث لا تناله الدِّلاء.[٢] وهو مصدر وُصف به.[٣] ﴿فَمَن يَأۡتِيكُم بِمَآءٖ مَّعِينِۭ﴾ جارٍ،[٤] أو ظاهرٍ سَهْل المأخذ.

عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة المُلك فكأنّه أحيا ليلة القدر».[٥]

---

١ قرأ بها الكسائي. النشر لابن الجزري، ٢/٣٨٩.

٢ مَرويّ عن سعيد بن جُبير في جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩.

٣ انظر: جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩.

٤ مَرويّ عن ابن عبّاس وقتادة والضحّاك في جامع البيان للطبري، ٢٣/١٣٩؛ ومعالم التنزيل للبغوي، ٨/١٨١.

٥ التفسير الوسيط للواحدي، ٤/٣٢٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٤/٤٤٢. وهو جزء مِن حديث أُبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

٦٧

سُورَةُ المُلْكِ

مكية، ثلاثون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ٢ ـ ﴿تَبارَكَ﴾: تَنزَّهَ عن صِفات المُحدَثين ﴿الَّذِي بِيَدِهِ﴾: في تصرّفه ﴿المُلْكُ﴾: السلطان والقُدرة، ﴿وهُوَ علَى كُلِّ شَيءٍ قَدِيرٌ، الَّذِي خَلَقَ المَوتَ﴾ في الدنيا ﴿والحَياةَ﴾ في الآخرة، أو هما في الدنيا ـ فالنطفة تَعرِض لها الحياةُ وهي ما به الإحساسُ، والموتُ ضِدُّها أو عَدَمُها، قولانِ. والخلق على الثاني بمعنى التقدير ـ ﴿لِيَبلُوَكُم﴾: ليختبركم...

سُورَةُ المُلْكِ

قولُهُ: (تَنَزَّهَ) الظَّاهِرُ: تعالى وتعظَّمَ، أو كثُرَ خيرُه.

قولُهُ: (فِي تَصَرُّفِه) وقبضَةِ قُدرَتِه.

قولُهُ: (السُّلطَانُ) أي: سلطَنَةُ الخَلقِ وقُدرَتِهم، بل في جميعِ الأمُورِ.

قولُهُ: (أَو هُمَا فِي الدُّنيَا) أو هي فيهِما.

قولُهُ: (قَولانِ) اختلفَ العلماءُ، هل الموتُ صفةٌ وُجوديَّةٌ مُضادَّةٌ للحياةِ كما دلَّتْ عليهِ الآيَة، أو هو عدمُ الحياةِ؟ فمَن قالَ بالثَّاني ذكَر في تفسيرِهما: قدَّرَهُما، أو أوجدَ الحياةَ وأزالَها حسبما قدَّرَه، والمرادُ منَ (الخلقِ) هاهُنا: الإنشاءُ والإبداعُ الشَّامِلُ لمعناهُ الحقيقيِّ ـ أَعنِي: الإيجادَ ـ ، والمجازِيِّ ـ أعني: الإثباتَ ـ بعدَما لم يَثبُت فهوَ من قَبِيلِ عُمومِ المجازِ، وقدَّمَ الموتَ لقولِهِ: ﴿وكُنتُم أَمواتاً فَأَحيَاكُم﴾ [البقرة: ٢٨]، أو لأَنَّهُ أدعى إلى حُسنِ العَمَلِ.

قولُهُ: (لِيَختَبِرَكُم) أي: ليُعامِلَكُم مُعامَلَةَ المختَبِرِ بالتَّكليفِ أيُّها المكلَّفونَ.

في الحياة: ﴿أَيُّكُم أحسَنُ عَمَلاً﴾: أطوعُ للهِ؟ ﴿وهُوَ العَزِيزُ﴾ في انتقامه ممّن عصاه ﴿الغفُورُ﴾ لمن تاب إليه.

٣ ـ ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبعَ سَماواتٍ طِباقًا﴾: بعضُها فوقَ بعض من غير مُماسّة، ﴿ما تَرَى في خَلقِ الرَّحمنِ﴾ لهنّ أو لغيرهنّ ﴿مِن تَفاوُتٍ﴾: تباينٍ وعدم تناسُب. ﴿فارجِعِ البَصَرَ﴾: أعِدْه إلى السماء: ﴿هَل تَرَى﴾ فيها ﴿مِن فُطُورٍ﴾: صُدوع وشُقوق؟ ٤ ـ ﴿ثُمَّ ارجِعِ البَصَرَ كَرَّتَينِ﴾: كرّةً بعد كرّة، ﴿يَنقَلِبْ﴾: يرجعْ ﴿إِلَيكَ البَصَرُ خاسِئًا﴾: ذليلاً لعدم إدراك خلل، ﴿وهُوَ حَسِيرٌ﴾ مُنقطع عن رُؤيةِ خللٍ. ٥ ـ ﴿ولَقَد زَيَّنّا السَّماءَ الدُّنيا﴾: القُربَى إلى الأرض ﴿بِمَصابِيحَ﴾:........

قولُهُ: (في الحَيَاةِ) أي: الدُّنيَويَّة.

قولُهُ: (أَطوَعُ) أي: أكثَرُ طاعَةً وانقيادًا، وأصوَبُهُ وأخلَصُهُ، وجاءَ مَرفوعاً: «أحسَنُ عَقلاً، وأورَعُ عن مَحَارِمِ اللهِ، وأسرَعُ في طَاعَتِهِ»[1] وقيلَ: أزهَدُكُم في الدُّنيا، وقيل: أكثَرُكُم ذِكراً للمَوتِ وأشَدُّكُم استِعدادًا له.

قولُهُ: (مِن غَيرِ مُمَاسَّةٍ) ومُعالَجَة، وهو إمَّا مَفعولٌ ثانٍ، أو صِفَةٌ لـ﴿سَبعِ سَمَاوَاتٍ﴾؛ أي: ذاتَ طِباقٍ، جمعُ: طَبَقَة.

قولُهُ: (تَبايُنٍ) أي: تَنافرٍ وتَناقُضٍ وتَخالُفٍ، و﴿مِن﴾ زائِدةٌ للتَّأكيد، وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: (مِن تَفَوُّتٍ)[2]، والخِطابُ لكلِّ مُخاطَبٍ.

قولُهُ: (أَعِدْهُ) أي: انظُر إليها مرَّةً أخرى نظرَةَ[3] تأمُّلٍ.

قولُهُ: (صُدُوعٍ) أو خَللٍ.

قولُهُ: (بَعدَ كَرَّةٍ) أي: التَّثنيَةُ بمَعنى التَّكريرِ والتَّكثيرِ، كما في: لبَّيكَ وسَعديكَ.

قولُهُ: (مُنقَطِعٌ)كَليلٌ؛ لطولِ التَّرَدُّد.

قولُهُ: (القُربَى) أي: أقرَبُ السَّماواتِ.

---

(١) رواه الحارث بن أبي أسامة كما في «المطالب العالية» (٢٧٨١)، والطبري في «تفسيره» (١٧٩٨٩)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (٦/ ٢٠٠٦) من حديث عبد الله بن عمر رضي الله عنهما.

قال ابن حجر في «المطالب العالية» (١٣/ ٧٢٥): هذه الأحاديث من كتاب «العقل» لداود بن المحبر، كلها موضوعة، ذكرها الحارث في «مسنده».

(٢) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٦٤٤)، و«التسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٢).

(٣) في (م): «نظر».

بنُجوم، ﴿وجَعَلْناها رُجُومًا﴾: مَراجمَ ﴿لِلشَّياطِينِ﴾ إذا استرقوا السمع بأن ينفصل شِهاب عن الكوكب كالقبس يُؤخذ من النار، فيَقتل الجِنّيَّ أو يُخبّله لا أنّ الكوكب يزول عن مكانه، ﴿وأعتَدْنا لَهُم عَذابَ السَّعِيرِ﴾: النارِ المُوقدة.

٦ ـ ﴿ولِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم عَذابُ جَهَنَّمَ، وبِئسَ المَصِيرُ﴾ هي! ٧ ـ ﴿إذا أُلقُوا فِيها سَمِعُوا لَها شَهِيقًا﴾: صوتًا مُنكرًا كصوت الحِمار، ﴿وهِيَ تَفُورُ﴾: تغلي، ٨ ـ ﴿تَكادُ تَمَيَّزُ﴾، وقُرئ: «تَتَمَيَّزُ» على الأصل: تتقطّع ﴿مِنَ الغَيظِ﴾ غضبًا على الكافر، ﴿كُلَّما أُلقِيَ فِيها فَوجٌ﴾: جماعة منهم ﴿سأَلَهُم خَزَنَتُها﴾ سُؤالَ توبيخ: ﴿أَلَم يأتِكُم نَذِيرٌ﴾: رسول يُنذركم عذاب الله؟ ٩ ـ ﴿قالُوا: بَلَى قَد جاءَنا نَذِيرٌ، فكَذَّبْنا وقُلْنا: ما نَزَّلَ اللهُ مِن شَيءٍ. إنْ﴾: ما ﴿أَنتُم إلاّ في ضَلالٍ كَبِيرٍ﴾. يحتمل أن يكون من كلام الملائكة للكُفّار حين أُخبروا بالتكذيب، وأن يكون من كلام الكُفّار للنُّذر. ١٠ ـ ﴿وقالُوا: لَو كُنّا نَسمَعُ﴾ أي: سماعَ تفهّم ﴿أو نَعقِلُ﴾ أي: عقلَ تفكّر ﴿ما كُنّا في أصحابِ السَّعِيرِ﴾.

١١ ـ ﴿فاعتَرَفُوا﴾ حيثُ لا ينفع الاعتراف ﴿بِذَنبِهِم﴾، وهو تكذيب الرسل. ﴿فَسُحْقًا﴾.........

قولُهُ: (بنُجُومٍ) مُضيئةٍ كالمصباحِ، ولا يَمنَعُ ذلك كَونَ بعضِ الكَواكِبِ مَركوزَةً في السَّماواتِ فَوقَها؛ إذِ التَّزيُّنُ بإظهارِها عليها.

قولُهُ: (مَرَاجِمَ) الرُّجُومُ جمعُ: رَجْم ـ بالفتحِ ـ وهو مصدَرٌ، سُمِّيَ به ما يُرجَمُ به[1].

قولُهُ: (شِهَابٌ) ككِتابٍ، شُعلَةٌ من نارٍ ساطِعَةٌ[2].

قولُهُ: (أَن يُخَبِّلَهُ) التَّخبيلُ: إفسادُ العَقلِ.

قولُهُ: (النَّارِ المُوقَدَةِ) في الآخِرَةِ بعدَ الإحراقِ بالشُّهُبِ في الدُّنيا.

قولُهُ: (تَغلِي) بهم غَلَيانَ المِرجَلِ بما فيه.

قولُهُ: (تَنقَطِعُ) وتَتفَرَّقُ.

قولُهُ: (لِلنُّذُرِ) وهذا هو الأظهَرُ.

قولُهُ: (سَمَاعَ تَفَهُّمٍ) أي: كلامَ الرُّسُلِ.

قولُهُ: (عَقلَ تَفَكُّرٍ) في حُكمِهِ ومعانيهِ.

---

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١١١١).

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٣).

ـ بسكون الحاء وضمّها ـ ﴿لأصحابِ السَّعِيرِ﴾: فبُعدًا لهم عن رحمة الله. ١٢ ـ ﴿إنَّ الَّذِينَ يَخشَونَ رَبَّهُم﴾: يخافونه ﴿بِالغَيبِ﴾: في غيبتهم عن أعيُن الناس، فيطيعونه سِرًّا فيكون علانيةً أولى، ﴿لَهُم مَغفِرةٌ وأجرٌ كَبِيرٌ﴾، أي: الجنة.

١٣ ـ ﴿وأَسِرُّوا﴾ ـ أيها الناس ـ ﴿قَولَكُم أوِ اجهَرُوا بِهِ. إنَّهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿عَلِيمٌ بِذاتِ الصُّدُورِ﴾: بما فيها. فكيف بما نطقتم به؟ وسببُ نزول ذلك أنّ المُشركينِ قال بعضهم لبعض: أسرّوا قولكم، لا يسمعْكم إلـٰهُ مُحمّد. ١٤ ـ ﴿ألا يَعلَمُ مَن خَلَقَ﴾ ما تُسرّون، أي: أينتفي عِلمه بذلك، ﴿وهُوَ اللَّطِيفُ﴾ في عِلمه ﴿الخَبِيرُ﴾ فيه؟ لا. ١٥ ـ ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأرضَ ذَلُولاً﴾ سهلة للمشي فيها ـ ﴿فامشُوا في مَناكِبِها﴾: جوانبها، ﴿وكُلُوا مِن رِزقِهِ﴾ المخلوقِ لأجلكم ـ ﴿وإلَيهِ النُّشُورُ﴾ من القُبور للجزاء.

١٦ ـ ﴿أأمِنتُم﴾ ـ بتحقيق الهمزتين، وتسهيلِ الثانية، وإدخالِ ألف بينها وبين الأُخرى وتركِه، وإبدالِها ألفًا ـ ﴿مَن في السَّماءِ﴾ سُلطانَه وقُدرتَه ﴿أن يَخسِفَ﴾: بدلٌ مِن «مَن» ﴿بِكُمُ الأرضَ، فإذا هِيَ تَمُورُ﴾: تتحرّك بكم وترتفع فوقكم؟...

قولُهُ: (وضَمِّهَا) كسائِي[1].

قولُهُ: (فَبُعداً) مَفعولٌ مُطلَقٌ وَجبَ حَذفُ فعلِهِ؛ أي: سَحقَهُم الله سَحقاً.

قولُهُ: (عَن أَعيُنِ النَّاسِ) أو عن اللهِ (أو يَخَافُونَ) عَذابَهُ غائِباً عَنهُم.

قولُهُ: (أي: الجَنَّةُ) لأنَّها تَصغُرُ دُونَها لذائِذُ الدُّنيا.

قولُهُ: (بِمَا فِيهَا) من الضَّمائِرِ قَبلَ أن يُعَبَّرَ عَنها سِرًّا أو جَهراً.

قولُهُ: (لا) أي: لا يَنتَفِي عِلمُهُ بذلك.

قولُهُ: (لِلمَشيِ) والحَرثِ والغَرسِ والبِناء.

قولُهُ: (بتَحقِيقِ) تقدَّم[2].

قولُهُ: (وَقُدرَتُه) أي: آثارُ قُدرَتِهِ، خَصَّ السَّماءَ؛ لأنَّها مَساكِنُ مَلائِكَتِهِ وعَرشِهِ وكُرسِيِّهِ، ومنها يَنزِلُ قَضاؤُهُ وكُتُبُهُ وأمرُهُ ونَهيُه.

قولُهُ: (بَدَلٌ) بَدَلُ اشتِمالٍ، كذا قالوا، والأظهَرُ أن يُقدَّرَ «مِن»؛ أي: أمِنتُموهُ من الخَسفِ أو الإرسالِ، والله أعلمُ بالأحوالِ.

---

(١) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٢)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٤).

(٢) في الآية رقم: (٨) من سورة ص.

١٧ ـ ﴿أم أمِنتُم مَن في السَّماءِ أن يُرسِلَ﴾: بدلٌ مِن «مَن» ﴿عليكُم حاصِبًا﴾: رِيحًا ترميكم بالحصباء؟ ﴿فسَتعلَمُونَ﴾ عِند مُعاينة العذاب: ﴿كَيفَ نَذِيرِ﴾: إنذاري بالعذابِ؟ أنه حقّ. ١٨ ـ ﴿ولَقَد كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأُمم، ﴿فكَيفَ كانَ نَكِيرِ﴾: إنكاري عليهم التكذيبَ عِند إهلاكهم؟ أي: إنه حقّ.

١٩ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾: ينظروا ﴿إلَى الطَّيرِ فوقَهُم﴾ في الهواء ﴿صافّاتٍ﴾: باسطاتٍ أجنحتَهنّ، ﴿ويَقبِضنَ﴾ أجنحتَهنّ بعد البسط، أي: وقابضاتٍ؟ ﴿ما يُمسِكُهُنَّ﴾ عن الوُقوع في حال البسط والقبض ﴿إلاّ الرَّحمنُ﴾ بقُدرته. ﴿إنَّهُ بِكُلِّ شَيءٍ بَصِيرٌ﴾. المعنى: ألم يستدِلّوا، بثُبوت الطير في الهواء، على قُدرتنا أن نفعل بهم ما تقدّم وغيرَه من العذاب؟

٢٠ ـ ﴿أم مَن﴾: مبتدأٌ ﴿هذا﴾: خبرُه ﴿الَّذِي﴾: بدلٌ من «هذا» ﴿هُو جُندٌ﴾: أعوان ﴿لَكُم﴾: صلةُ «الذي»، ﴿يَنصُرُكُم﴾: صفةُ «جُند» ﴿مِن دُونِ الرَّحمنِ﴾ أي: غيرِه، يدفع عنكم عذابه؟ أي: لا ناصر لكم ـ ﴿إنِ﴾: ما ﴿الكافِرُونَ إلاّ في غُرُورٍ﴾ غرَّهم الشيطانُ بأنّ العذاب لا ينزل بهم ـ ٢١ ـ ﴿أم مَن هذا الَّذِي يَرزُقُكُم إن أمسَكَ﴾ الرحمن ﴿رِزقَهُ﴾ أي: المطرَ عنكم؟ وجواب الشرط محذوف، دلّ عليه ما قبله، أي: فمَن يرزقُكم؟ أي: لا رازق لكم غيرُه ـ ﴿بَل لَجُّوا﴾: تمادَوا ﴿في عُتُوٍّ﴾: تكبّر........................

قولُهُ: (رِيحاً) أو مَطَراً ذا حجارَةٍ.

قولُهُ: (عِندَ مُعَايَنةِ العَذَابِ) لكن لا يَنفعُكُم العِلمُ حينَئِذٍ.

قولُهُ: (أي: أنَّهُ حَقٌّ) وهو تَسليَةٌ للرَّسُولِ وتَهديدٌ لقومِهِ.

قولُهُ: (في الهَوَاء) عندَ طَيَرانِها.

قولُهُ: (أي: وَقَابِضَات) وفي «الصحاح»(١): القَبضُ الإسراعُ، ومنه قولُهُ تعالى: ﴿أوَلَم يَرَوا إلى الطَّيرِ فَوقَهُم﴾ الآية [الملك: ١٩].

قولُهُ: (بَدَلٌ) أو صِفَتُه.

قولُهُ: (صِفَةُ: جُندٍ) مَحمولٌ في الإفرادِ على لفظِهِ.

قولُهُ: (يَدفَعُ) تَفسيرٌ لـ﴿يَنصُرُكُم﴾.

قولُهُ: (أي: المَطَرَ) وسائِرَ الأسبابِ المحَصِّلَةِ والموصِلَةِ للرِّزقِ إليكم.

قولُهُ: (تَكَبُّر) أو عِنادٍ.

---

(١) انظر: «الصحاح» (٣/ ١١٠٠).

﴿ونُفُورٍ﴾: تباعُد عن الحقّ. ٢٢ ـ ﴿أفمَن يَمشِي مُكِبًّا﴾: واقعًا ﴿علَى وَجهِهِ أهدَى أم مَن يَمشِي سَوِيًّا﴾: مُعتدلاً ﴿علَى صِراطٍ﴾: طريق ﴿مُستقِيمٍ﴾؟ وخبر «مَن» الثانية محذوف، دلّ عليه خبرُ الأُولى، أي: أهدى. والمَثل في المُؤمن والكافر، أي: أيُّهما على هُدى؟

٢٣ ـ ﴿قُلْ: هُوَ الَّذِي أنشَأَكُم﴾: خلقكم، ﴿وجَعَلَ لَكُمُ السَّمعَ والأبصارَ والأفئِدَةَ﴾: القُلوب، ﴿قَلِيلاً ما تَشكُرُونَ﴾. ما: مزيدة، والجملة: مستأنفة مُخبِرةٌ بقِلّة شُكرهم جِدًّا على هذه النِّعم. ٢٤ ـ ﴿قُلْ: هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُم﴾: خلقكم ﴿في الأرضِ، وإلَيهِ تُحشَرُونَ﴾ للحِساب. ٢٥ ـ ﴿ويَقُولُونَ﴾ للمُؤمنين: ﴿مَتَى هذا الوَعدُ﴾: وعد الحشر، ﴿إن كُنتُم صادِقِينَ﴾ فيه؟ ٢٦ ـ ﴿قُلْ: إنَّما العِلمُ﴾ بمجيئه ﴿عِندَ اللهِ، وإنَّما أنا نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾: بيِّنُ الإنذار.

قولُهُ: (تَبَاعُدٍ) وشِرادٍ؛ لتَنَفُّرِ[1] طِباعِهم عنه.

قولُهُ: (وَاقِعًا) أي: يعثُرُ كُلَّ ساعَةٍ ويخِرُّ على وجهِهِ؛ لوُعورَةِ طريقِهِ واختِلافِ أجزائِه.

قولُهُ: (مُعتَدِلاً) أي: قائِماً سالِماً من السُّقوطِ.

قولُهُ: (طَرِيقٍ) مُستَوِي الأجزاءِ والجِهَة.

قولُهُ: (والمَثَلُ) يعني: المرادُ تمثِيلُ المشرِكِ والموحِّدِ بالسَّالِكينَ، والدِّينَينِ بالمسلَكَينِ، وقيل: المرادُ بالمُكبِّ الأعمى، وبالسَّويِّ البَصيرُ، وقيلَ: من يمشي مُكبًّا هو الذي يُحشَرُ على وَجهِهِ في النَّارِ، ومَن يَمشي سَويًّا الذي يُحشرُ على قَدَمَيهِ إلى الجَنَّة.

قولُهُ: (القُلُوبَ) أي: لتسمَعوا المَواعِظَ، وتَنظُروا صنائِعَهُ، وتَتَفكَّروا وتَعتَبِروا.

قولُهُ: (﴿مَا﴾ مَزِيدَةٌ) لتأكِيدِ القِلَّةِ؛ أي: تشكُرونَ شُكراً قليلاً لهذِهِ النِّعَمِ باستِعمالِها فيما خُلِقَت لأجلِهِ.

قولُهُ: (خَلَقَكُم) أو بَثَّكُم ونشَرَكُم.

قولُهُ: (للحِسَابِ) عن قَريبٍ.

قولُهُ: (لِلمُؤمِنِينِ) والأظهَرُ: للنَّبيِّ والمؤمِنينَ.

قولُهُ: (وَعدُ الحَشرِ) إنكاراً، وهو الأظهَرُ، أو وَعدُ العَذابِ في الدُّنيا استِهزاءً.

قولُهُ: (بِمَجِيئِهِ) الظَّاهِرُ: علمُ وقتِهِ.

قولُهُ: (بَيِّنُ الإنذَارِ) ويَكفي له العِلمُ بوقُوعِ المنذَرِ به، ولا يَحتاجُ إلى تَعيينِ وَقتِه.

---

(١) في (م): «تباعد وتكبر لنفر».

٢٧ ـ ﴿فلَمّا رأَوهُ﴾ أي: العذابَ بعد الحشر ﴿زُلفةً﴾: قريبًا ﴿سِيئَتْ﴾: اسودّتْ ﴿وُجُوهُ الَّذِينَ كَفَرُوا، وقِيلَ﴾ أي: قال الخزنة لهم: ﴿هذا﴾ أي: العذاب ﴿الَّذِي كُنتُم بِهِ﴾: بإنذاره ﴿تَدَّعُونَ﴾ أنكم لا تُبعثون. وهذه حِكاية حال تأتي، عُبِّر عنها بطريق المُضيّ لتحقّق وقوعها.

٢٨ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم، إن أهلَكَنِيَ اللهُ ومَن مَعِيَ﴾ من المُؤمنين بعذابه كما تقصدون، ﴿أو رَحِمَنا﴾ فلم يُعذّبنا، ﴿فمَن يُجِيرُ الكافِرِينَ مِن عَذابٍ ألِيمٍ﴾؟ أي: لا مُجيرَ لهم منه. ٢٩ ـ ﴿قُلْ: هُوَ الرَّحمنُ، آمَنّا بِهِ، وعَلَيهِ تَوَكَّلْنا. فسَتَعلَمُونَ﴾ ـ بالتاء والياء ـ عِند مُعاينة العذاب: ﴿مَن هُوَ فِي ضَلالٍ مُبِينٍ﴾: بيِّنٍ؟ أنحن أم أنتم أم هم؟

٣٠ ـ ﴿قُلْ: أرَأَيتُم، إن أصبَحَ ماؤُكُم غَورًا﴾ أي: غائرًا في الأرض ﴿فمَن يأتِيكُم بِماءٍ مَعِينٍ﴾: جارٍ تناله الأيدي والدِّلاء كمائكم؟ أي: لا يأتي به إلاّ الله........................

قولُهُ: (أي: العَذَابَ) أي: الوَعدَ، فإنَّهُ بمَعنى الموعودِ.

قولُهُ: (قَرِيباً) أو ذا زلفَةٍ؛ أي: قُرْبَ منهم، وانتصابُهُ على الظَّرفِ أو الحالِ.

قولُهُ: (اسوَدَّتْ) أي: بانَ عليها الكآبَةُ والسَّوادُ، وساءَتها رُؤيَةُ العَذابِ.

قولُهُ: (أي: قَالَ الخَزَنَةُ لَهُم) أو الأنبياءُ والمؤمِنونَ تَقريعاً، أو بلسانِ الحالِ.

قولُهُ: (بإنذَارِهِ) أي: بسَبَبِه.

قولُهُ: (لا تُبعَثُونَ) فهو من الدَّعوَى، إذ به تَطلُبونَ وتستَعجِلونَ، تفتَعِلونَ من الدُّعاءِ.

قولُهُ: (بعَذَابِهِ) أو بالإماتَةِ.

قولُهُ: (فَلَم يُعَذِّبْنَا) أو فأخَّرَ آجالَنا.

قولُهُ: (أي: لا مُجِيرَ) ولا مُنجيَ، مُتنا أو بقينا[1].

قولُهُ: (واليَاءُ) الغَيبَة، للكِسائِي[2].

قولُهُ: (أَم أَنتُم) على قِراءَةِ الخِطابِ[3].

قولُهُ: (غَائِراً) بحيثُ لا يَنالُهُ الدِّلاءُ، مصدَرٌ وُصِفَ به.

قولُهُ: (جَارٍ) أو ظاهِرٍ.

---

(١) في (ص) و(م): «ظَنًّا أو يَقينًا».

(٢) انظر: «التيسير في القراءات السبع» (ص: ٢١٢)، و«العنوان في القراءات السبع» (ص: ١٩٤).

(٣) أي: لغير الكسائي.

فكيف تُنكرون أن يبعثكم؟ ويُستحبُّ أن يقول القارئ عقب «مَعين»: اللهُ رَبُّ العالَمِينَ، كما ورد في الحديث. وتُليتْ هذه الآية عند بعض المُتجبّرين، فقال: تأتي به الفُؤوس والمَعاول. فذهب ماء عينه وعمِي. نعوذ بالله من الجرأة على الله ـ تعالى ـ وعلى آياته.

قولُهُ: (الفُؤُوسُ) جمعُ: فأسٍ.

قولُهُ: (والمَعَاوِلُ) جمعُ: مِعوَل، كمِنبَرٍ، الحَديدَةُ يُنقَرُ بها الجِبالُ[1].

وورَدَ في فَضلِ هذه السُّورَةِ: «لَوَدِدتُ أنَّها في قَلبِ كُلِّ إنسَانٍ مِن أُمَّتِي» رواهُ الطَّبَرانيُّ[2] والله أعلم.

***

(١) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ١٠٣٧).

(٢) رواه ابن أبي الدنيا في «المتمنين» (١٣٣)، والطبراني في «المعجم الكبير» (١١/ ٢٤١) (١١٦١٦)، والحاكم في «المستدرك» (٢٠٧٦)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٢٢٧٧) وقال الحاكم: هذا إسناد عند اليمانيين صحيح ولم يخرجاه.

قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ١٢٧): فيه إبراهيم بن الحكم بن أبان، وهو ضعيف.

سورة الملك

وتُسمَّى: تبارك، والمانعة، والمُنْجية، والمجادلة؛ فقد أخرج الطبرانيُّ[(1)] عن ابن مسعود قال: كنَّا نُسمِّيها على عهد رسول الله ﷺ: المانعة. وأخرج الترمذيُّ[(2)] وغيرُه عن ابن عباس قال: ضرب بعضُ أصحاب النبيِّ ﷺ خباءه على قبرٍ، وهو لا يحسب أنه قبر، فإذا قبرُ إنسان يقرأُ «سورةَ الملك» حتى ختمها، فأتى النبيَّ ﷺ فأخبره، فقال رسول الله عليه الصلاة والسلام: «هي المانعةُ، هي المنجيةُ، تُنْجيه من عذاب القبر». وأخرج الطبرانيُّ والحاكم وابنُ مَرْدويه، وعَبْد بنُ حُميد في «مسنده» واللفظ له، عن ابن عباس أنه قال لرجلٍ: ألا أُتحفُك بحديثٍ تفرَحُ به؟ قال: بلى. قال: اِقرأ: «تبارك الذي بيده الملك»، وعَلِّمها أهلَكَ، وجميعَ ولدكَ، وصبيانَ بيتكَ، وجيرانَكَ، فإنها المُنجية، والمجادلةُ يوم القيامة عند ربِّها لقارئها، وتطلب له أن تُنْجيه من عذاب النار، وينجو بها صاحبُها من عذاب القبر. الخبر[(3)]. وفي «جمال القرَّاء»: تُسمَّى أيضاً: الواقية المنَّاعة[(4)].

وهي مكيةٌ على الأصحِّ، وقيل: غيرَ ثلاث آياتٍ منها. وأخرجه جُوَيبر في «تفسيره» عن الضحَّاك، عن ابن عباس[(5)]. وفي قولٍ غريب: إنها مدنيةٌ.

---

(١) المعجم الكبير (١٠٢٥٤).

(٢) سنن الترمذي (٢٨٩٠)، وقال: حسن غريب من هذا الوجه.

(٣) المعجم الكبير للطبراني (١١٦١٦)، والمنتخب من مسند عبد بن حميد (٦٠٣)، ولم نقف عليه في مطبوع الحاكم، وقد عزاه إليه السيوطي في الدر المنثور ٦/ ٢٤٦.

(٤) جمال القراء للسخاوي ١/ ٢٠١، وفيه: المانعة، بدل: المناعة.

(٥) في الأصل و(م): ابن جويبر، وهو خطأ، والمثبت من الإتقان ١/ ٥١، وعنه نقل المصنف، ووقع في الدر المنثور ٦/ ٢٤٦: ابن جرير، وهو تحريف.

وآيُها إحدى وثلاثون آيةً في المكيِّ والمدنيِّ الأخير، وثلاثون في الباقي(١)، وسيأتي إن شاء الله تعالى قريباً ما يُرجِّحُه.

ووجهُ مناسبتها لما قبلها: أنه تعالى لمَّا ضرب مثلاً للكفَّار بتينك المرأتين المحتومِ لهما بالشقاوة، وإن كانتا تحت نبيَّين عظيمين، ومثلاً للمؤمنين بآسية ومريم وهما محتومٌ لهما بالسعادة، وأن أكثرَ قومهما كفَّار، افتتَحَ هذه بما يدلُّ على إحاطته عزَّ وجل وقهرِهِ، وتصرُّفه في ملكه على ما سبَقَ به قضاؤه.

وقيل: إنَّ أول هذه متَّصلٌ بقوله تعالى آخرَ «الطلاق»: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [١٢] لِمَا فيه من مزيد البَسْط لِمَا يتعلَّق بذلك، وفَصَلَ بسورة «التحريم» لأنها كالقطعة من سورة «الطلاق» والتتمَّة لها.

وقد جاء في فضلها أخبارٌ كثيرةٌ، منها ما مرَّ آنفاً، ومنها ما أخرج الإمام أحمد، وأبو داود، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وابن ماجه، والحاكم وصحَّحه، وغيرهم عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «إن سورةً من كتاب الله ما هي إلا ثلاثون آية شَفَعت لرجلٍ حتى غُفِر له: ﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾»(٢).

ومنها ما جاء في حديثٍ رواه الطبرانيُّ وابنُ مردويه بسندٍ جيِّد عن ابن مسعود، وآخر رواه عنه جماعةٌ وصحَّحه الحاكمُ: «من قرأها في ليلةٍ فقد أكثَرَ وأطيَبَ»(٣).

وأخرج ابنُ مردويه عن عائشة أنَّ النبيَّ ﷺ كان يقرأُ ﴿الٓمٓ ۝١ تَنزِيلُ﴾ السجدة، و﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ كلَّ ليلةٍ، لا يدعُهما في سفرٍ ولا حضر(٤).

---

(١) في حاشية الأصل: اختلافها آية واحدة: ﴿قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ﴾ مكي، والمدني الأخير. اهـ منه.
وجاء فيها كذلك ما نصه: أخرج ابن مردويه عن رافع بن خديج وأبي (تحرفت إلى ابن) هريرة، أنهما سمعا رسول الله ﷺ يقول: «أنزلت عليَّ سورة «تبارك» وهي ثلاثون آية جملة واحدة». الحديث. اهـ منه.

(٢) الدر المنثور ٦/ ٢٤٦، ومسند الإمام أحمد (٧٩٧٥)، وسنن أبي داود (١٤٠٠)، وسنن الترمذي (٢٨٩١)، والسنن الكبرى للنسائي (١١٥٤٨)، وسنن ابن ماجه (٣٧٨٦)، والمستدرك للحاكم ١/ ٥٦٥.

(٣) الدر المنثور ٦/ ٢٤٧، والمعجم الأوسط للطبراني (٦٢١٢)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٤٩٨.

(٤) الدر المنثور ٦/ ٢٤٧، وله شاهد من حديث جابر عند أحمد (١٤٦٥٩)، والترمذي (٢٨٩٢).

ولهذا ونحوه قيل: يندب قراءتُها كلَّ ليلةٍ. والحمدُ لله الذي وفَّقني لقراءتها كذلك منذ بلغتُ سنَّ التمييز إلى اليوم، وأسألُ الله تعالى التوفيق لما بعدُ، والقَبول.

ورأيتُ في بعض شروح البخاريِّ نَدْبَ قراءتها عند رؤيةِ الهلال رجاءَ الحفظِ من المكاره في ذلك الشهر ببركة آيها الثلاثين. والله تعالى الموفِّقُ.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿تَبَٰرَكَ ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ﴾ البركةُ: النماء والزيادة، حسيَّةً كانت أو عقليَّةً، وكثرةُ الخير، ودوامُه، ونسبتُها إلى الله عزَّ وجل على المعنى الأول ـ وهو الأليقُ بالمقام ـ باعتبار تعاليه جلَّ وعلا عمَّا سواه في ذاته وصفاته وأفعاله، وصيغةُ التفاعل للمبالغة في ذلك؛ كما في نظائره مما لا يُتصوَّر نسبتُه إليه تعالى من الصِّيَغ، كالتكبُّر. وعلى الثاني باعتبار كثرةِ ما يفيضُ منه سبحانه على مخلوقاته من فنون الخيرات. والصيغةُ حينئذٍ يجوز أن تكون لإفادة نماءِ تلك الخيرات وازديادِها شيئاً فشيئاً وآناً فآناً، بحسب حدوثها أو حدوثِ متعلَّقاتها.

قيل: ولاستقلالها بالدلالة على غايةِ الكمال، وإنبائها عن نهاية التعظيم، لم يَجُز استعمالُها في حقِّ غيره سبحانه، ولا استعمالُ غيرِها من الصيغ في حقِّه تبارك وتعالى. وقد مرَّ تمامُ الكلام في هذا المقام.

وإسنادُها إلى الموصول للاستشهاد بما في حيِّز الصِّلة على تحقُّق مضمونها؛ لأن المرادَ بذلك أنه سبحانه كاملُ الإحاطة والاستيلاء، بناءً على أن «بيده الملك» استعارةٌ تمثيلية لذلك، ولا تجوُّزَ في شيء من مفرداته، أو أن «الملك» على حقيقته، واليد مجازٌ عن الإحاطة والاستيلاء كما قيل، ولاستدعاء ذلك استغناءَ المتَّصِف به مع افتقار الغيرِ إليه في وجوده وكمالاتِ وجودِهِ كان له اختصاصٌ بالموجود، وكذلك في العرف العاميِّ لا يُطلق الملك على ما ليس كذلك، فلذا قيل هنا في بيان معنى الآية: تعالى وتَعاظَمَ بالذات عن كلِّ ما سواه ذاتاً وصفةً وفعلاً، الكامل الإحاطة والاستيلاء على كلِّ موجود.

وقوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝١﴾ تكميلٌ لذلك؛ لأن القرينة الأولى تدلُّ على التصرُّف التامِّ في الموجودات على مقتضى إرادته سبحانه ومشيئته من غير منازعٍ ولا مدافع، لا متصرِّفَ فيها غيرُه عزَّ وجل كما يُؤْذِنُ به تقديمُ الظرف، وهذه تدلُّ على القدرة الكاملة الشاملة، ولو اقتصَرَ على الأولى لأوهَمَ أن تصرُّفَه تعالى مقصورٌ على تغييرِ أحوال الملك؛ كما يُشاهَد من تصرُّف الملاك المجازيِّ، فقُرنت بالثانية ليُؤذن بأنه عزَّ سلطانُه قادرٌ على التصرُّف، وعلى إيجاد الأعيان المتصرَّف فيها، وعلى إيجاد عوارضها الذاتية وغيرها، ومن ثَمَّ عقَّبَ ذلك بالوصف المتضمِّنِ للعوارض، وهذا ما اختاره العلامةُ الطِّيبيُّ.

وصاحبُ «الكشاف»[1] اختار في القرينة الأولى ما ذكرناه فيها من التخصيص بالموجود، فقال: أي: تعالى وتعاظَمَ عن صفات المخلوقين الذي بيده الملكُ على كلِّ موجود؛ لما سمعتَ، وفي الثانية التخصيص بالمعدوم، فقال: وهو على كلِّ ما لم يوجد مما يدخُلُ تحت القدرة قديرٌ. ووجهه على ما في «الكشف»: أن الشيءَ وإن كان عامّاً في كلِّ ما يصحُّ أن يُعلم ويُخبَرَ عنه، لكن لمَّا قُرن بالقدرة اختصَّ بالمعدوم؛ لاستغناء الموجود عن الفاعل عند جمهور المتكلِّمين القائلين بأنّ علَّةَ الاحتياجِ الحدوث، وعليه الزمخشريُّ وأصحابُه، وأما عند القائلين بأن علَّةَ الاحتياج الإمكان كالمحقِّقين؛ فلأن الاختيار يستدعي سَبْق العَدَم، وجيء بالقرينة الثانية عليه تكميلاً أيضاً؛ لأن الاختصاص بالموجود فيه إيهامُ نقصٍ.

واختار صاحبُ «التقريب» أن قوله تعالى: (ٱلَّذِى بِيَدِهِ ٱلْمُلْكُ) مُطلَق، وقوله سبحانه: (وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ) عامٌّ لما وُضع له الشيء، فيكون قد قصد بيانَ القُدرة أولاً، وعمومَها ثانياً، ولم يرتضِ صنيعَ الزمخشريِّ، ونَظرَ فيه بأنَّ الشيء إمَّا أن يختصَّ بالموجود، أو يشمل الموجودَ والمعدوم، وعلى المذهبين فلا وجهَ لتخصيصه بما لم يُوجد مع انضمام كلٍّ إليه، اللهم إلا أن يقال: خصَّصه به ليُغاير ما قبله إذ خصَّصه بالموجود، وفيه أيضاً نظر؛ إذ لو عمَّم الثاني لتحقّقَ التَّغايُر أيضاً، مع أنَّ اليد مجازٌ عن القدرة، فإن تخصَّصت به كما هو مذهبه تخصَّص

(١) الكشاف ٤/ ١٣٣.

الأول بالمعدوم، وإن لم تَتخصَّص لم يتخصَّص الثاني بالمعدوم. وادَّعى صاحبُ «الكشف» سقوطَه بما نقلناه عنه، واعتُرِض عليه، وأُجيب بما لا يخلو عن نظر، فليُتأمَّل.

ومن الناس مَن حمل «المُلك» على الموجودات، وجعل اليد مجازاً عن القُدرة، فيكون المعنى: في قُدرته الموجودات، وتعقَّبه بعضُهم بأن فيه ركاكةً، وأشار إلى أنَّ الخلاص منها إما بجعل اليد مجازاً عن التَّصرُّف، أو بتفسير «المُلك» بالتصرُّف، وقيل: المراد من كون الملك بيده تعالى أنه عز وجل مالِكُه، فمعنى «بيده الملك»: مالكُ الملك.

وفسَّر الرَّاغب[(١)] المُلك في مثل ذلك بضبط الشيء المتصرَّف فيه بالحكم، وشاع تخصيصُه بعالم الشهادة، ويقابله حينئذ الملَكوت. وليس بمراد هنا كما لا يخفى.

وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ﴾ شُروع في تفصيل بعض أحكام الملك وآثارِ القُدرة، وبيان ابتنائهما على قوانين الحِكَم والمصالح، واستتباعهما لغاياتٍ جليلة.

والموصول بدلٌ من الموصول الأوَّل، وصلتُه كصلتِه في الشهادة بتعاليه عزَّ وجل، وجوَّز الطبرسيُّ[(٢)] كونَه خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو الذي.. إلخ.

و«الموتُ» على ما ذهب إليه الكثير من أهل السنة صفةٌ وجوديَّة تضادُّ الحياة، واستُدلَّ على وجوديَّته بتعلُّق الخلق به، وهو لا يتعلَّق بالعَدَمي؛ لأزليَّةِ الإعدام، وأما ما رُوي عن ابن عباس من أنَّه تعالى خلق الموت في صورة كَبْش أمْلَح، لا يمرُّ بشيءٍ إلا مات، وخلَقَ الحياة في صورة فرسٍ بَلْقاء، لا تمرُّ بشيء ولا يجدُ رائحتَها شيء إلا حَيي[(٣)] = فهو أشبهُ شيءٍ بكلام الصوفية، لا يُعقل ظاهرُه. وقيل: هو وارد على منهاج التمثيل والتصوير.

---

(١) في مفردات ألفاظ القرآن (ملك).

(٢) في مجمع البيان ٢٩/ ٥.

(٣) تفسير البغوي ٤/ ٣٦٩.

وذهب القدريَّة وبعضُ أهل السنة إلى أنه أمرٌ عَدَميٌّ، هو عدمُ الحياة عمَّا هي من شأنه، وهو المتبادر الأقرب.

وأُجيب عن الاستدلال بالآية بأن الخلقَ فيها بمعنى التقدير، وهو يتعلَّق بالعَدَميِّ كما يتعلَّق بالوجوديِّ، أو أن الموت ليس عَدَماً مطلقاً صِرفاً، بل هو عدمُ شيء مخصوص، ومثلُه يتعلَّق به الخلقُ والإيجادُ؛ بناءً على أنه إعطاء الوجود ولو للغير، دون إعطاء الوجود للشيء في نفسه، أو أن الخلق بمعنى الإنشاء والإثبات دون الإيجاد، وهو بهذا المعنى يجري في العَدَميَّات، أو أن الكلام على تقدير مضاف، أي: خلق أسبابَ الموت، أو أن المراد بخلق الموت والحياة خلقُ زمانٍ ومدَّةٍ معيَّنةٍ لهما لا يعلمها إلا الله تعالى، فإيجادُهما عبارة عن إيجاد زمانهما مجازاً، ولا يخفى الحال في هذه الاحتمالات.

ومن الغريب ما قيل: إنه كنى بـ «الموت» عن الدنيا، إذ هو واقع فيها، وبـ «الحياة» عن الآخرة من حيث لا موتَ فيها، فكأنه قيل: الذي خلق الدنيا والآخرة. والحقُّ أنهما بمعناهما الحقيقي، و«الموت» على ما سمعت.

و«الحياة»: صفة وجوديَّة بلا خلاف، وهي ما يصحُّ بوجوده الإحساس، أو معنى زائدٌ على العلم والقدرة، يوجب للموصوف به حالاً لم يكن قبلَه من صحة العلم والقدرة.

وتقديم «الموت» على تقدير كونه عَدَماً مطلقاً ـ أعني عَدَمَ الحياة عمَّا هي من شأنه ـ ظاهرٌ؛ لسبقه على الوجود، وعلى تقدير كونه العدَم اللاحق كما هو الأنسب بالإرادة هنا ـ أعني: عدم الحياة عما اتَّصف بها فلان ـ فيه مزيدُ عِظَةٍ وتَذْكرة وزجرٍ عن ارتكاب المعاصي، وحثٌّ على حسن العمل، ولذا ورد: «أكثروا من ذِكْر هاذم اللذَّات»[1]، والحياةُ وإن كانت داعيةً لذلك ضرورةَ أن مَنْ عرف أنها نعمةٌ عظيمة وكان ذا بصيرةٍ، عمل شكراً لله تعالى عليها، لكنها ليست بمثابة الموت في ذلك، فمن زعم أنها لا داعيةَ فيها أصلاً، وإنما ذُكرت باعتبار توقُّف العمل عليها، لم يُدقِّق النَّظر.

---

(١) سلف ٥/ ١٧٨.

و«أل» في الموضعين عوضٌ عن المضاف إليه، أي: الذي خلق موتكم الطَّارئ وحياتَكم أيُّها المكلَّفون ﴿لِيَبْلُوَكُمْ﴾ أي: ليُعاملكم معاملةَ مَن يختبرُكم ﴿أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ أي: أصوبُه وأخلصُه، فيُجازيكم على مراتبَ متفاوتة حَسْبَ تفاوت مراتب أعمالكم.

وأصل البلاء: الاختبارُ، ولأنه يَقتضي عدمَ العلم بما اختبره، وهو غيرُ صحيح في حقِّه عزَّ وجل، حُمِل الكلام على ما ذُكر، ويرجع ذلك إلى الاستعارة التمثيلية، واعتبارُ الاستعارة التبعيَّة فيه دونها دونٌ في البلاغة. والمرادُ بالعمل ما يشمل عمل القلب وعمل الجوارح، ولذا قال ﷺ في الآية: «أيُّكم أحسنُ عقلاً، وأورعُ عن محارم الله تعالى، وأسرعُ في طاعة الله عز وجل»(١)، أي: أيُّكم أتمُّ فَهماً لما يصدر عن جناب الله تعالى، وأكمل ضبطاً لما يُؤخذ من خطابه سبحانه.

وإيرادُ صيغة التفضيل مع أن الابتلاء شاملٌ للمكلَّفين باعتبار أعمالهم المنقسمة إلى الحسن والقبيح أيضاً، لا إلى الحسن والأحسن فقط، للإيذان بأن المراد بالذات والمقصِدَ الأصليَّ من الابتلاء هو ظهورُ كمال إحسان المحسنين، مع تحقُّق أصل الإيمان والطاعة في الباقين أيضاً؛ لكمال تعاضُدِ الموجبات له. وأما الإعراض عن ذلك فبمعزلٍ من الاندراج تحت الوقوع، فضلاً عن الانتظام في سلك الغاية أو الغرض عند من يراه لأفعال الله عز وجل، وإنما هو عملٌ يصدر عن عامله؛ لسوء اختياره، من غير مصحِّحٍ له ولا تقريب. وفيه من الترغيب في التَّرقِّي إلى معارج العلوم ومدارج الطاعات، والزَّجر عن مباشرة نقائصها ما لا يخفى، وجعلُ ذلك من باب الزيادة المطلقة، أو من باب: ﴿أَيُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ خَيْرٌ مَّقَامًا﴾ [مريم: ٧٣] ليس بذاك.

و«أيكم أحسن» مبتدأ وخبر، والجملةُ في محلِّ نصبٍ على أنها مفعولٌ ثانٍ لـ «يبلوكم»، وذلك ـ على ما في «الكشاف»(٢) ـ لتضمُّنه معنى العلم.

وهل يُسمَّى نحو هذا تعليقاً أم لا؟ قيل: فيه خلاف، ففي «البحر»(٣) لأبي حيان

(١) سلف ١١/ ٣٦٠.
(٢) ٤/ ١٣٤.
(٣) البحر المحيط ٨/ ٢٩٧.

نقلاً عن أصحابه أنه يسمَّى بذلك، قال: إذا عُدِّي الفعلُ إلى اثنين ونَصَبَ الأول؛ وجاءت بعده جملةٌ استفهامية، أو مقرونةٌ بلام الابتداء، أو بحرف نفي، كانت الجملةُ معلَّقاً عنها الفعلُ، وكانت في موضع نصب؛ كما لو وقعت في موضع المفعولين وفيها ما يُعلِّق الفعلَ عن العمل.

وفي «الكشاف»[(١)] هنا: لا يُسمَّى تعليقاً، إنما التعليقُ أن يُوقع بعد الفعل الذي يعلَّق ما يسدُّ مسدَّ المفعولين جميعاً، كقولك: علمتُ أيّهما زيد، وعلمت أزيدٌ منطلقٌ. وأما إذا ذُكر بعده أحدُ المفعولين، نحو: علمتُ القومَ أيُّهم أفضل، فلا يكون تعليقاً، والآية من هذا القبيل.

واعترضه صاحبُ «التقريب» بأن العلم مُضمَرٌ، وهو المعلَّق كما قال الفرَّاء والزجَّاج[(٢)]، ولا يلزم ذكرُ المفعول معه، بل التقدير: ليبلوكم فيعلم أيُّكم أحسن. وأيضاً لا تقع الجملةُ الاستفهامية مفعولاً ثانياً لعَلِمْتُ، وإنما تقع موقع المفعولين في: علمتُ أيُّهم خرج؛ لأن المعنى: علمتُ جواب هذا الاستفهام، ولا معنى لتقدير مثله في: علمته أيُّهم خرج.

وأُجيب بأن التضمين يُغني عن الإضمار، وكونُ الجملة الاستفهامية لا تقع مفعولاً ثانياً ضعيف؛ لأنها إذا وقعت مفعولاً أولاً في نحو: ﴿لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ﴾ [مريم: ٦٩] على معنى: لننزعنَّ الذين يقال فيهم: أيُّهم أشد، كما قال الخليل، فلم يمتنع وقوعُها مفعولاً ثانياً بتأويل: ليُعْلِمَكم الذين يقال في حقِّهم: أيُّهم أحسن. وإليه ذهب الطِّيبي، ثم قال: وقد أنصف صاحبُ «الانتصاف» حيث قال: التعليقُ عن أحد المفعولين فيه خلاف، والأصح هو الذي اختاره الزمخشريُّ، وهذا النحو عشُّه فيه يَدرج، ويدري كيف يدخل ويخرج[(٣)]. انتهى.

والذي ذكره في سورة «هود»[(٤)] أن في الآية تعليقاً؛ لما في الاختبار من معنى

(١) ٤/ ١٣٤.
(٢) معاني القرآن للفراء ٣/ ١٦٩، وللزجاج ٥/ ١٩٧.
(٣) الانتصاف ٤/ ١٣٤.
(٤) الكشاف ٢/ ٢٥٩ عند تفسير الآية (٧) منها.

العلم؛ لأنه طريقٌ إليه، ومثَّله بقوله: انظر أيُّهم أحسنُ وجهاً. فجعلوا بين كلاميه تنافياً.

وفي «الكشف» أن كلامه هناك صريحٌ بأن التعليق فيه بمعنى تعليقِ فعل القلب على ما فيه استفهام، وهو بهذا المعنى خاصٌّ بفعل القلب من غير تخصيصٍ بالسبعة المتعدِّية إلى مفعولين، وفي الاستفهام خاصَّة دون ما فيه لامُ الابتداء ونحوها، صرَّح به الشيخ ابنُ الحاجب نصّاً، فلا ينافي ما ذُكر في هذه السورة من أنه ليس بتعليق، فإنما نفى التعليقَ بالمعنى المشهور، وأما الحملُ على الإضمار في آية «هود» والتَّضمينِ في آية «الملك» للتفنُّن، فلا وجهَ له بعد تصريحه بأنه استعارةٌ. انتهى.

وكذا على هذا لا وجهَ لكون ما هناك اختياراً لمذهب الفرَّاء والزجَّاج، وما هنا اختيار لمذهبٍ آخر، فتدبَّر وتذكَّر، فإنه كثيراً ما يُسأل عن ذلك قديماً وحديثاً، والله تعالى الموفِّق.

﴿وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ﴾ أي: الغالبُ الذي لا يُعجِزُه عقابُ مَنْ أساء ﴿ٱلْغَفُورُ ۝٢﴾ لمن شاء منهم، أو لمن تاب، على ما اختاره بعضهم؛ لأنه أنسبُ بالمقام.

﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ قيل: هو نعتٌ للعزيز الغفور، أو بيانٌ، أو بدلٌ، واختار شيخُ الإسلام أنه نصبٌ أو رفعٌ على المدح، متعلِّقٌ بالموصولَين السابقين معنًى، وإن كان منقطعاً عنهما إعراباً، منتظمٌ معهما في سِلْك الشهادة بتعاليه سبحانه وتعالى، ومع الموصول الثاني في كونه مداراً للبلاء كما نطقَ به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود: ٧][1].

وقوله تعالى: ﴿طِبَاقًا﴾ صفة لـ «سبع»، وكونُ الوصف للمضاف إليه العددُ ليس بلازم، بل أكثريٌّ. وهو مصدر طابقتُ النعلَ بالنَّعلِ: إذا خَصَفتَها، وُصف به للمبالغة، أو على حذفِ مضاف، أي: ذاتِ طباق، أو بتأويل اسم المفعول، أي:

---

(١) تفسير أبي السعود ٩/ ٣.

مطابقة، وجُوِّز أن يكون مفعولاً مطلقاً مؤكِّداً لمحذوف، أي: طُوبقتْ طِباقاً، والجملةُ في موضع الصفة، وأن يكون جمعَ: طَبَقٍ، كجمَلٍ وجمال، أو جمع: طَبَقة، كرَحَبة - بفتح الحاء - ورِحاب، والكلامُ بتقدير مضاف؛ لأنه اسمٌ جامد لا يُوصف به، أي: ذات طباق، وقيل: يجوز كونُه حالاً من «سبع سماوات»؛ لقُربه من المعرفة بشُموله الكلَّ، وعدم فَردٍ وراء ذلك، وتُعقِّب بأن قُصارى ذلك بعد القيل والقال أن يكون نحو شمس، مما انحصر في فرد، وهو لا تجيء الحال المتأخِّرة منه، فلا يقال: طلعت علينا شمسٌ مشرقة.

وأيَّاما كان، فالمرادُ كما أخرج عَبْد بنُ حُميد: بعضُها فوق بعض[1]. ولا دليل في ذلك على تلاصقها كما زعمه متقدِّمو الفلاسفة ومَن وافقهم من الإسلاميين، مخالفين لما نطقت به الأحاديثُ الصحيحة، وإن لم يُكفَّر مُنكر ذلك فيما أرى.

واختُلف في موادها، فقيل: الأولى من مَوج مكفوف، والثانية من دُرَّةٍ بيضاء، والثالثة من حديد، والرابعة من نحاس، والخامسة من فضة، والسادسة من ذهب، والسابعة من زُمُرُّدة بيضاء، وقيل غير ذلك، ولا أظنك تجد خبراً يُعوَّل عليه - فيما قيل - ولو طرتَ إلى السماء، وأظنُّك لو وجدتَ لأوَّلتَ؛ مع اعتقاد أنَّ الله عزَّ وجل على كلِّ شيء قدير.

وقوله تعالى: ﴿مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ﴾ صفةٌ أخرى على ما في «الكشاف»[2] لـ «سبع سموات»، وضع فيها «خَلْق الرحمن» موضع الضمير الرابط؛ للتعظيم والإشعار بعلَّة الحكم، بحيث يمكن أن يترتَّب قياسٌ من الشكل الأول ينتج نفيَ رؤيةِ تفاوتٍ فيها، وبأنه عزَّ وجل خلقها بقدرته القاهرة رحمةً وتفضُّلاً، وبأن في إبداعها نِعَماً جليلة. وما ذكره ابنُ هشام في الباب الرابع من «المغني»[3] من أن الجملة الموصوفَ بها لا يربطُها إلا الضمير إما مذكوراً وإما مقدَّراً، ليس بحجَّة على جار الله، والتوفيقُ بأن ذلك إذا لم يقصد التعظيم ليس بشيء؛ لأنه لا بدَّ له من

---

(١) أخرجه من قول ابن عباس كما في الدر المنثور ٦/٢٤٨.

(٢) ٤/١٣٤.

(٣) مغني اللبيب ص٦٥٣.

نُكتة، سواء كانت التعظيمَ أو غيره. واستظهر أبو حيَّان(١) أنه استئناف، وأن «خلق الرحمن» عامٌّ للسماوات وغيرها، والخطابَ لكلِّ أحدٍ ممن يصلحُ للخطاب، وجوّز أن يكون لسيِّد المخاطبين ﷺ، ولعلَّ الأول أولى.

و«من» لتأكيد النفي، أي: ما ترى شيئاً من تفاوتٍ، أي: اختلافٍ وعدمِ تناسُبٍ كما قال قتادةُ وغيرهُ، من الفَوت، فإن كلًّا من المتفاوتَين يَفوت منه بعضُ ما في الآخر. وفسَّر بعضُهم التفاوتَ بتجاوُزِ الشيء الحدَّ الذي يجب له زيادةً أو نقصاً، وهو المعنيُّ بالاختلاف، وعلى ذلك قولُ بعض الأدباء:

تناسبت الأعضاءُ فيه فلا ترى ... بهنَّ اختلافاً بل أتينَ على قَدْرِ(٢)

وقال السُّدي: أي: من عيبٍ، وإليه يرجع قولُ من قال: أي: من تفاوتٍ يورثُ نقصاً، وقال عطاء بنُ يسار: أي: من عدم استواء. وقيل: أي: من اضطراب. وقيل: أي: من اعوجاجٍ. وقيل: أي: من تناقُض. ومآلُ الكلِّ ما ذكرنا.

ومن الغريب ما قاله شيخُ الطائفة الكشفية في زماننا من أنَّ بين الأشياء جميعها ربطاً؛ وهو نوع من التجاذُب لا يفوتُ بسببه بعضُها عن بعض، وحَمَلَ الآية على ذلك، وإلى نحو هذا ذهب الفلاسفةُ اليوم؛ فزعموا أن بين الأجرام عُلويِّها وسُفليِّها تجاذباً على مقادير مخصوصة، به حُفِظت أوضاعُها، وارتبط بعضُها ببعض، لكن ذهب بعضُهم إلى أن ما به التجاذُبُ والارتباط يَضعف قليلاً قليلاً على وجهٍ لا يظهر به أثرٌ إلا في مُدَدٍ طويلة جدًّا، واستشعروا من ذلك إلى أنه لا بدَّ من خروج هذا العالَم المشاهَدِ عن هذا النظام المحسوس، فيحصل التَّصادُمُ ونحوه بين الأجرام، وقالوا: إن كان قيامةٌ فهو ذاك، ولا يخفى حالُ ما قاله وما قالوه، وأن الآيةَ ـ على ما سمعتَ ـ بمَعْزِلٍ عن ذلك.

وقرأ عبد الله وعلقمةُ والأسود وابنُ جُبير وطَلْحة والأعمش: «من تَفَوُّت»، بشدِّ

(١) البحر المحيط ٨/ ٢٩٨.
(٢) سلف عند تفسير الآية (٤٩) من سورة الصافات.

الواو[١]، مصدر تَفوَّتَ، وحكى أبو زيدٍ عن العرب في تفاوت فتحَ الواو وضَمَّها وكسرَها، والفتح والكسر شاذَّان كما في «البحر»[٢].

وقوله تعالى: ﴿فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ۝٣﴾ متعلّقٌ بما قبله على معنى التَّسبب، أي: عن الإخبار بذلك؛ فإنه سببٌ للأمر بالرجوع؛ دفعاً لما يُتوهَّم من الشُّبهة، فهو في المعنى جوابُ شرط مقدَّر، أي: إن كنتَ في ريبٍ من ذلك فارجع البصر حتى يتَّضح الحالُ، ولا يبقى لك ريبٌ وشُبهة في تحقُّق ما تضمَّنه ذلك المقال من تناسب خلقِ الرحمن واستجماعِه ما ينبغي له.

و«الفُطور»: قال مجاهد: الشُّقوق، جمع فَطْر وهو الشَّقُّ، يقال: فَطَره فانفطَر، والظاهرُ أن المراد الشقُّ مطلقاً، لا الشقُّ طولاً على ما هو أصله كما قال الراغب[٣]، وفي معناه قول أبي عبيدة[٤]: الصُّدوع، وأنشدوا قولَ عبيد الله بن عُتبة بن مسعود:

شققتِ القلب ثم ذَرَرْتِ فيه هواكِ فَلِيطَ فالتأمَ الفُطورُ[٥]

وقول السدي: الخُروق. وأُريد بكلٍّ ذلك على ما يُفهم من كلام بعض الأجلَّة: الخَلَل، وبه فسَّره قتادة، وفسَّره ابنُ عباس بالوَهْن.

وجملة: «هل ترى» إلخ؛ قال أبو حيَّان: في موضع نصب بفعلٍ معلَّق محذوف، أي: فانظر هل ترى، أو ضُمِّن «فارجع البصر» معنى: فانظُر ببصرك[٦].

﴿ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ﴾ أي: رجعتَين أُخريَين في ارتياد الخَلَل، والمرادُ بالتثنية:

---

(١) المحرر الوجيز ٥/ ٣٣٨، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٨، وهي قراءة حمزة والكسائي من السبعة. التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٣٨٩.
(٢) البحر المحيط ٨/ ٢٩٨.
(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (فطر).
(٤) في مجاز القرآن ٢/ ٢٦٢.
(٥) البيت في الحماسة بشرح المرزوقي ٣/ ١٣٥٤، والأغاني ٩/ ١٥١. وفيهما: فَلِيْمَ، بدل: فليط. ولاط الشيءُ بقلبي يليط: حُبب وألصق. القاموس: (لوط).
(٦) البحر المحيط ٨/ ٢٩٨.

التكريرُ والتكثير، كما قالوا في لبَّيك وسَعْدَيك، أي: رَجعةً بعد رَجعة، أي: رَجعات كثيرة بعضُها في إثْر بعض، وهذا كما أُريد بأصل المثَنَّى التكثير في قوله:

لـو عُـدَّ قـبـرٌ وقـبـرٌ كـان أكـرمَـهـم بيتـاً وأبـعـدَهـم عـن مـنـزلِ الـذَّامِ(١)

فإنه يريد: لو عُدَّت قبورٌ كثيرة. وقيل: هو على ظاهره.

وأُمر برَجع البصر إلى السماء مرَّتين، إذ يمكن غَلَطٌ في الأُولى، فيستدرك بالثانية، أو الأولى ليرَى حُسنها واستواءها، والثانية ليُبصرَ كواكبَها في سيرها وانتهائها، وليس بشيءٍ، ويؤيِّد الأولَ قولُه تعالى: ﴿يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا﴾؛ فإنه جوابُ الأمر، والجوابيَّةُ تقتضي الملازمة، وما تضمَّنه لا يَلزمُ من المرَّتين غالباً. والمعنى: يَعُدْ إليك البصرُ محروماً من إصابة ما التمَسَه من إصابة العَيب والخَلل، كأنه طُرد عنه طَرْداً بالصَّغار، بناءً على ما قيل: إنه مأخوذٌ من خَسَأ الكلبَ، المتعدِّي، أي: طَرَدَه، على أنه استعارةٌ، لكن في «الصحاح»(٢): يُقال: خَسَأ بصرُه خَسْأً وخُسوءاً؛ أي: سَدِر. والسَّدَر: تحيُّر النَّظر، فكأنَّ تفسير «خاسئاً» بمتحيّراً أخذاً له من ذلك أقرب.

وكأنهم اختاروا ما تقدَّم لأن فيه مبالغةً وبلاغةً ظاهرة، مع كونه أبعدَ عن التكرار مآلاً مع قوله تعالى: ﴿وَهُوَ حَسِيرٌ ۝٤﴾ أي: كَلِيلٌ من طُول المعاودة، وكثرةِ المراجعة، يقال: حسَر بعيرُه يَحْسُر حُسوراً، أي: كَلَّ وانقطع، فهو حَسير ومَحْسُور، وقال الراغب(٣): الحَسْر: كشفُ الملبس عمَّا عليه، يقال: حَسَرْتُ عن الذِّراع، أي: كشفتُ، والحاسرُ: مَن لا دِرْع عليه ولا مِغْفَر، وناقةٌ حَسِير: انحَسَر عنها اللحمُ والقُوَّة، ونُوقٌ حَسْرَى، والحاسِرُ أيضاً: المُعْيَا؛ لانكشاف قُواه، ويُقال

(١) نسبه أبو تمام في الحماسة ٣/ ١١٢٢ بشرح المرزوقي إلى عصام بن عبيد الله، ونسبه الجاحظ في البيان والتبيين ٢/ ٣١٦ إلى همَّام الرَّقاشي، ونسبه المرزباني في معجم الشعراء ص١١٤ إلى عصام بن عبيد الزِّمَّاني اليمامي. وفي المصادر الثلاثة: كنت أكرمهم، والرواية التي ذكرها المصنف أوردها أبو حيان في البحر ٨/ ٢٩٨.

(٢) مادة: (خسأ).

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن (حسر).

له أيضاً: مَحْسور، أما الحاسِر فتُصُوِّر أنه قد حَسَر بنفسه قُواه، وأما المَحْسُور فتُصُوِّر أن التَّعب قد حَسَره، و«حَسير» في الآية يصحُّ أن يكون بمعنى حاسِر، وأن يكون بمعنى محسور.

والجملةُ في موضع الحال ـ كالوصف السابق ـ من «البصر»، ويحتمل أن تكون حالاً من الضمير فيه.

وقرأ الخوارزميُّ عن الكسائي: «ينقلبُ» بالرفع، وخُرِّج على أن الجملةَ في موضع حال مقدَّرة[1].

وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ﴾ إلخ، كلامٌ مَسوق للحثِّ على النظر قدرةً وامتناناً، وفي «الإرشاد»[2]: بيانٌ لكون خَلْق السماوات في غاية الحُسْن والبهاء إثْرَ بيانِ خلُوِّها عن شائبةِ العَيْب والقصور، وتصديرُ الجملة بالقَسَم لإبراز كمال العناية بمضمونها، أي: وبالله لقد زيَّنا السماء ﴿ٱلدُّنۡيَا﴾ منكم، أي: التي هي أتمُّ دنوًّا منكم من غيرها، فدُنوُّها بالنسبة إلى ما تحت، وأما بالنسبة إلى مَن حول العرش فبالعكس.

﴿بِمَصَٰبِيحَ﴾: جمع مِصباح: وهو السِّراج، وتُجوِّز به عن الكوكب، ثم جُمع، أو تُجوِّز بالمصابيح ابتداءً عن الكواكب، وفسَّره بعضُ اللغويين بمقرِّ السِّراج، فيكون حينئذٍ تَجوُّزاً على تَجوُّز، ولا حاجة إليه مع تصريحهم بأن المصباح نفسُ السِّراج أيضاً. وتنكيرُها للتعظيم، أي: بمصابيح عظيمةٍ ليست كمصابيحكم التي تعرفونها، وقيل: للتَّنويع، والأول أَولى.

والظاهر أن المراد الكواكبُ المضيئة بالليل إضاءةَ السِّراج من السيارات والثوابت، بناءً على أنها كلَّها في أفلاكٍ ومجارٍ متفاوتةٍ قُرباً وبُعداً في ثخن السماء الدنيا، وكونُ السماء هي الفلك خلافُ المعروف عن السلف، وإنما هو قولٌ قاله

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٩، وذكر أبو حيان وجهاً آخر: وهو أنه على حذف الفاء، أي: فينقلب.

(٢) تفسير أبي السعود ٩/ ٤.

مَن أراد الجمع بين كلام الفلاسفة الأُولى وكلامِ الشريعة، فشاع فيما بين الإسلام، واعتقده مَن اعتقده.

وعن عطاء أن الكواكب في قناديل مُعلَّقة بين السماء والأرض بسلاسل من نور في أيدي ملائكة. وعليه فـ: زيَّنا السماءَ بمصابيح، كقول القائل: زيَّنتُ السقفَ بالقناديل، وهو ظاهر، لكن الخبرَ لا يكاد يصحُّ.

ومَن اعتقد أن السماءَ الدنيا فَلَكُ القمر، والستَّ الباقية أفلاكُ السيارات الباقية على الترتيب المشهور، وأن للثوابت فلكاً مخصوصاً يُسمَّى بلسان الشرع بالكرسيِّ، أو جَوَّز أن تكون هذه في فَلَك زُحل وهو السماء السابعة، أو يكون بعضُها في فَلَك وبعضُها الآخر في آخر فوقه، أو كلٌّ منها في فَلَك وسماءٍ غيرِ السبع، والاقتصارُ على العدد القليل لا ينفي الكثير = قال: إن تخصيصَ السماء بالتَّزيين بها؛ لأنها إنما تُرى عليها، ولا يُرى جُرم ما فوقها، أو رِعايةً لمقتضى أفهام العامة؛ لتعذُّر التمييز بين سماء وسماء عليهم، فهم يَرون الكواكب كجواهر مُتلألئة على بساط الفَلَك الأزرق الأقرب.

ومَن اعتبر ما عليه أهلُ الهيئة اليوم من أن الكواكب فَلَكُ عجائب القُدرة، مَواخِرُ في بحر جوِّ الفضاء على وجهٍ مخصوص تقتضيه الحكمة، ومَجاريها فيه هي أفلاكُها، وقد تحرَّكت إذ تحرَّكت في خلاء أو ما يُشبهه مع قوى بها تجاذبت وارتبطت، ولها حركات على أنفسها، وحركات غير ذلك، وليست مَركوزةً كما اشتهر في أجرام صُلبة شفَّافة لا ثقيلة ولا خفيفة تُسمَّى أفلاكاً أو سماء، وهي متفاوتة قرباً وبعداً تفاوتاً كلياً؛ وإن رُئيت كلُّها قريبةً لسبب خفيَ إلى الآن عليهم، حتى إن منها ما لا يصل شُعاعُه إلينا إلا في عدَّة سنين، مع أن شعاع الشمس - وبيننا وبينها أربعةٌ وثلاثون مليوناً من الفراسخ، والمليونُ ألف ألف - يصلُ إلينا في ثمانِ دقائق وثلاث عشرة ثانية، إلى آخر ما زعموا فيها = قال: يجوز أن يُراد بـ «السماء الدنيا» طبقةٌ مخصوصة في هذا الفضاء، وبالمصابيح كواكب فيها نفسها قد زُيِّنت تلك الطبقةُ بها تزيينَ فضاءِ دارٍ بطيور يَطِرن حائماتٍ فيه مثلاً، أو جميع ما يُرى من الكواكب وإن كان فوقها، وتزيينُها بذلك بإظهاره فيها كما مرَّ.

وأنت تعلمُ أن مَن تصدَّى لتطبيق الآيات والأخبار على ما قاله الفلاسفةُ مطلقاً فقد تصدَّى لأمرٍ لا يكادُ يتمُّ له، والله تعالى ورسولُه ﷺ أحقُّ بالاتِّباع.

نعم تأويلُ النَّقليِّ إنما ينبغي إذا قام الدليلُ العقليُّ على خلاف ما دلَّ عليه، وأكثرُ أدلة الفلاسفة قاعدة على العجز عن إثباتها إثباتاً صحيحاً ما يخالف أدلَّة أهل الشرع، كما لا يخفى على من استضاء بمصابيحه.

﴿وَجَعَلْنَاهَا رُجُومًا لِّلشَّيَاطِينِ﴾ الضميرُ للمصابيح على ما هو الظاهر، لا للسماء الدنيا، على معنى: جعلنا منها، أي: من جهتها، كما قيل، والرُّجوم: جمع رَجْم بالفتح، وهو مصدر سُمِّي به ما يُرجَم به، أي: يُرمى، فصار له حكمُ الأسماء الجامدة، ولذا جُمع وإن كان الأصلُ في المصادر أنها لا تُجمع. وقيل: إنه هنا مصدرٌ بمعنى الرَّجم أيضاً.

والمراد بالشياطين: مسترِقُو السَّمع، ورجمُهم على ما اشتهر: بانقضاض الشُّهب المسبَّبةِ عن الكواكب، وإليه ذهب غيرُ واحد من المفسِّرين، وهو مبنيٌّ على ما قرَّره الفلاسفةُ المتقدِّمون من أن الكواكب نفسَها غيرُ منقضَّةٍ، وإنما المنقضُّ شعلٌ نارية تحدُثُ من أجزاء متصاعدة لكرة النار، لكنها بواسطة تسخين الكواكب للأرض، فالتجوُّزُ في إسناد الجعل إليها، أو في لفظها، وهو مجازٌ بوسائط.

وقال الشهاب: لا مانع من جعل المنقضِّ نفسه من جنس الكواكب، وإن خالفَ اعتقادَ الفلاسفة وأهلِ الهيئة، ولكن في النصوص الإلهية ما فيه رجومٌ للشياطين[1]. انتهى.

وأقول: لا يخفى أن ذلك المبنيَّ لا يتمُّ أيضاً إلا بثبوتِ كرة النار الذي لا تراهم يستدلُّون عليه إلا بحدوث هذه الشُّهب، وسلفُ الأمة لا يقولون بذلك، وكذا أهلُ الفلسفة الجديدة، وهؤلاء لم يُحقِّقوا إلى الآن أمرَ هذه الشهب، لكن يميلون إلى أنها أجسامٌ انفصلتْ عن الكواكب التي يزعمونها عوالمَ مشتملةً على جبال ونحوِها اشتمالَ الأرض على ذلك، وخرجتْ لبعض الحوادث عن حدِّ القوى الجاذبةِ لها

(١) حاشية الشهاب ٨/ ٢١٨.

إلى ما انفصلتْ عنه، ولم تصل إلى حدِّ جذبِ قوةِ الأرض لها، فبقيت تدورُ عند منتهى كرةِ الأرض وما يُحيطُ بها من الهواء، فإذا عرَضَ لها الدخولُ في هواء الأرض أثناءَ حركتها احترقت كُلًّا أو بعضاً؛ كما تحترقُ بعضُ الأجسام المحفوظة عن الهواء إذا صادَمَها الهواءُ، وربما تصلُ في بعض حركاتها إلى حدِّ جذبِ الأرض، فتقعُ عليها.

وبعضُهم يزعم في الحجارة الساقطة من الجوِّ التي تُسمَّى عندهم بـ : الأَيْرُوليت[١] ـ يعنون حجارةَ الهواء ـ أنها من تلك الأجسام، وكلُّ ذلك حديثُ خرافةٍ، ورجمٌ بظنونٍ فاسدة.

وقُصارى ما يقال في هذه الشُّهب: إنها تحتملُ أن تكون ناشئةً من أجرام من جنس الكواكب فيها قوةُ الإحراق، سواء كان كلُّ مضيء محرقاً أم لا، متكوِّنةً في جوِّ هذا الفضاء المشاهَد، إلا أنها لغاية صِغَرها لا تُشاهَدُ ولو بالنظَّارات، حتى إذا قربت بانقضاضها شُوهدت، وقد تُصادِفُ في انقضاضها أجساماً متصاعدةً من الأرض، فتُحرقُها، وربما يتَّصل الحريقُ إلى ما يقرُبُ من الأرض جدّاً، وربما تكوَّنت الحجارةُ من ذلك، ثم إن العقل يُجوِّز أن يكون لها دورانٌ على شكلٍ من الأشكال، فترجعُ بعد ما يُشاهَدُ لها من الانقضاض، وأن تتلاشى بعد انقضاضها، ويخلقَ الله تعالى غيرَها من مادَّة لا يعلمُها إلا هو عزَّ وجل.

والضميرُ المنصوب في «جعلناها» وإن عاد على المصابيح، لكن لم يعُدْ عليها إلا باعتبارِ الجنس، دون خصوصيَّةِ كونها مُزَيَّنةً بها السماءُ الدنيا، نظير: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِن مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنقَصُ مِنْ عُمُرِهِۦٓ﴾ [فاطر:١١] و: عندي درهمٌ ونصفُه؛ لما أنَّ التزيينَ باعتبار الظهور، ولا ظهورَ لهذه الأجرام قبل انقضاضها.

وإن اعتبُر في كونها مصابيح، أو كواكب، أو نجوماً، ظهورُها[٢] في نفسها ولمن يقرُبُ منها، دون خصوصيَّة ظهورها لنا، وفي كونها زينةً للسماء كونُها زينةً لها في الجملة، فالأمرُ ظاهر جدّاً.

---

(١) لعله يقصد الـ : airo light، وتعني بالانكليزية: الهواء المضيء.

(٢) قوله: ظهورها، نائب فاعل لقوله: اعتُبر.

ويحتملُ أن تكون ناشئةً من المصابيح المشاهَدَة المزيَّنِ بها، بأن ينفصل عنها وهي في محلِّها شعلٌ هي الشُّهب، وما ذاك إلا كقبسٍ يؤخَذُ من نارٍ والنارُ ثابتة، وإليه ذهب الجُبَّائيُّ وكثيرٌ، وهو محتمِلٌ لأنْ يكون لكلٍّ منها قابليةُ أنْ ينفصل عنه ذلك، وأن تكون القابليةُ لبعضها دون بعضٍ، وهذا لعدم الاطِّلاع على حقائق الأجرام العلوية وأحوالها في أنفسها، والكلامُ نحو قولك: أسكنَ الأميرُ قبيلةَ كذا في ثَغر كذا، وجعلها تَرْمي بالبنادق مَنْ يَقْرُبُ منه؛ فإنه لا يلزمُ أن يكون لكلٍّ واحدٍ منها قابليةُ الرمي.

ثم لا يلزمُ أن يكون كلُّ ما يُشاهد من الشُّهب قَبَساً من المصابيح، بل يجوزُ أن يكون بعضُه ـ وهو الذي تُرمى به الشياطينُ ـ منها، وبعضُه من أمورٍ تحدُثُ في الجوِّ من اصطكاكٍ أو نحوه. وتفاوتُ الشهبِ قلَّةً وكثرةً يحتملُ أن يكون لتفاوتِ حوادث الجوِّ، وأن يكون لتفاوت الاستراق.

وليس في الآيات والأخبار ما هو نصٌّ في أن الشُّهب لا تكونُ إلا لرمي الشياطين، فيحتمل أن يكون أكثرُ الشُّهب من الحوادث الجوِّية. وذواتُ الأذناب منها في رأي المتقدِّمين، وهي في أنفسها دون أذنابها نجومٌ كثيرةٌ جداً تدور لا كما يدورُ غيرُها من النجوم، فتقرُبُ تارةً، وتبعُدُ أخرى فتخرج عن مدارات السيارات إلى حيثُ لا تشاهَدُ أصلاً عند فلاسفة العصر، ولهم فيها كلامٌ أطول من أذنابها.

وقد أورد الإمامُ الرازيُّ[1] في هذا الفصل أسئلةً وشُبَهاً أجاب عنها بما أجاب، ونحنُ فعلنا نحوَ ذلك فيما تقدَّم على وجهٍ أتمَّ، فليُتذكَّر[2]، وقد أطنبنا هناك الكلامَ فيما يتعلَّق بهذا المقام، إلا أنَّ بعضَها مما ذكرناه هناك، فخُذْ من الموضعين ما صفا ودَعْ ما كَدَر، بعد أن تتأمَّل حقَّ التأمُّل وتتدبَّر.

وقيل: معنى الآية: وجعلناها ظُنوناً ورُجوماً بالغيب لشياطين الإنس، وهم المنجِّمون المعتقدون تأثيرَ النجوم في السعادة والشقاوة ونحوهما، وقد رددنا عليهم

---

(١) في ٣٠/٥٩ وما بعدها.

(٢) ينظر ما سلف ١٣/٤٢٦ وما بعدها.

أيَّ ردٍّ فيما تقدَّم، فارجع إليه إن أردتَه؛ فإنه نفيسٌ جداً.

﴿وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ﴾ وهيَّأنا للشياطين ﴿عَذَابَ السَّعِيرِ ۝﴾ عذابَ النار المُسْعَرة المُشعَلَة في الآخرة، بعد الإحراق في الدنيا بالشُّهب. ولا يمنع من ذلك أنهم خُلقوا من نارٍ؛ لأنهم ليسوا نارٌ فقط، بل هي أغلبُ عناصرهم، فهي منهم كالتُّراب من بني آدم، فيتأثَّرون من ذلك، على أنه قد تكون نارٌ أقوى من نار.

واستُدلَّ بالآية على أنَّ النار مخلوقةٌ الآن، وعلى أنَّ الشياطين مكلَّفون.

﴿وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ من غير الشياطين، أو منهم ومن غيرِهم، على أنه تعميمٌ بعد التخصيص لدفع إيهام اختصاصِ العذاب بهم. والجارُّ والمجرور خبرٌ مقدَّم، وقولُه تعالى: ﴿عَذَابُ جَهَنَّمَ﴾ مبتدأٌ مؤخَّر، والحصرُ إضافيٌّ بقرينةِ النصوص الواردة في تعذيب العُصاة، فلا حجَّة فيه لمن قال من المُرْجئة: لا يُعذَّب غيرُ الكَفَرة.

وقرأ الضحَّاك، والأعرجُ، وأسيد بن أسيد المُزنيُّ، والحسن في رواية هارون عنه: «عذابَ» بالنصب عطفاً على «عذاب السَّعير»(١)، أي: وأعتَدنا للذين كفروا عذابَ جهنَّم. ﴿وَبِئْسَ الْمَصِيرُ ۝﴾ أي: جهنَّم.

﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا﴾ أي: طُرِحوا فيها كما يُطرَحُ الحَطَب في النار العظيمة ﴿سَمِعُوا لَهَا﴾ أي: لجهنَّم نفسِها كما هو الظاهر، ويؤيِّده ما بعدُ. والجارُّ والمجرور متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقع حالاً من قوله تعالى: ﴿شَهِيقًا﴾ لأنه في الأصل صفة، فلما قُدِّمت صارت حالاً، أي: سمعوا كائناً لها شهيقاً، أي: صوتاً كصوت الحمير، وهو حَسِيسُها المنكر الفظيع، ففي ذلك استعارةٌ تصريحية.

وجُوِّز أن يكون الشهيقُ لأهلها ممن تقدَّم طَرْحُهم فيها ومن أنفسهم، كقوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَشَهِيقٌ﴾ [هود: ١٠٦] والكلامُ على حذف مضافٍ، أو تجوُّز في النسبة.

واعتُرِض بأن ذلك إنما يكونُ لهم بعد القَرار في النَّار، وبعد ما يُقال لهم: اخسؤوا فيها، وهو بعد ستةِ آلاف سنةٍ من دخولهم؛ كما في بعض الآثار.

---

(١) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٩.

ورُدَّ بأن ذلك إنما يدلُّ على انحصار حالهم حينئذٍ في الزَّفير والشَّهيق، لا على عدمِ وقوعهما منهم قبل.

﴿وَهِىَ تَفُورُ ۝٧﴾ أي: والحالُ أنها تَغْلي بهم غليانَ المِرْجَل بما فيه.

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ﴾ أي: ينفصلُ بعضُها من بعض ﴿مِنَ ٱلْغَيْظِ﴾ من شدَّة الغضب عليهم. قال الراغبُ: الغيظُ: أشدُّ الغضب[1]. وقال المرزوقيُّ في «الفصيح»: إنه الغضبُ، أو أسوَؤُه. وقد شَبَّه اشتعالَ النار بهم في قوةِ تأثيرِها فيهم وإيصالِ الضَّرر إليهم باغتياظِ المُغْتاظ على غيرِه، المبالِغ في إيصال الضررِ إليه، على سبيل الاستعارةِ التصريحية.

ويجوزُ أن تكون [المصرِّحة][2] هنا تخييليَّةً تابعةً للمكنيَّة، بأن تُشبَّه جهنَّمُ في شدَّة غليانها وقوةِ تأثيرِها في أهلها بإنسانٍ شديد الغيظ على غيرِه، مبالغٍ في إيصال الضررِ إليه، فتُوهِّم لها صورةٌ كصورةِ الحالة المحقَّقة الوجدانية، وهي الغضبُ الباعثُ على ذلك، واستُعير لتلك الحالةِ المتوهَّمة الغيظُ.

وجُوز أن يكون الإسنادُ في «تكاد تميَّز» إلى «جهنم» مجازاً، وإنما الإسنادُ الحقيقيُّ إلى الزَّبانية، وأن يكون الكلامُ على تقدير مضافٍ، أي: تميَّز زَبانيتُها من الغيظ.

وقيل: إن الله تعالى يخلُقُ فيها إدراكاً فتغتاظ عليهم، فلا مجاز بوجهٍ من الوجوه، وورد في بعض الأخبار ما يؤيِّد ذلك.

وزعم بعضُهم أنه لا حاجةَ لشيء مما ذُكر؛ لمكان «تكاد»، كما في قوله تعالى: ﴿يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِىٓءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ﴾ [النور: ٣٥] وفيه ما فيه.

والجملةُ إما حالٌ من فاعل «تفور»، أو خبرٌ آخر.

وقرأ طلحةُ: «تتميَّز» بتاءين، وأبو عَمرو: «تكاد تميز» بإدغام الدال في التاء،

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (غيظ).

(٢) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٨/ ٢١٩، وعنه نقل المصنف.

والضحَّاك «تمايز» على وزن تَفَاعل، وأصلُه تتمايز بتاءين، وزيد بنُ عليٍّ وابنُ أبي عبلة: «تَمِيْزُ» من ماز(١).

﴿كُلَّمَآ أُلۡقِيَ فِيهَا فَوۡجٌ﴾ استئنافٌ مسوقٌ لبيان حال أهلها بعد بيان حال نفسها، وقيل: لبيان حالٍ آخر من أحوال أهلها، وجُوِّز أن تكون الجملةُ حالاً من ضميرها، أي: كلَّما أُلقي فيها جماعةٌ من الكَفَرة ﴿سَأَلَهُمۡ خَزَنَتُهَآ﴾ وهم مالكٌ وأعوانه عليهم السلام، والسائلُ يحتمل أن يكون واحداً، وأن يكون متعدِّداً، وليس السؤالُ سؤالَ استعلامٍ، بل هو سؤالُ توبيخٍ وتقريعٍ، وفيه عذابٌ روحانيٌّ لهم منضمٌّ إلى عذابهم الجِسْمانيِّ: ﴿أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ نَذِيرٞ ۝٨﴾ يتلو عليكم آياتِ الله، وينذرُكم لقاءَ يومكم هذا؟

﴿قَالُواْ﴾ اعترافاً بأنه عزَّ وجل قد أزاح عِلَلهم بالكُلِّية: ﴿بَلَىٰ قَدۡ جَآءَنَا نَذِيرٞ﴾ وجمعوا بين حرف الجواب ونفسِ الجملة المُجاب بها مبالغةً في الاعتراف بمجيء النذير، وتحسُّراً على ما فاتهم من السعادة في تصديقهم، وتمهيداً لما وقع منهم من التفريط تندُّماً واغتماماً على ذلك، أي: قال كلُّ فوجٍ من تلك الأفواج: قد جاءنا نذيرٌ، أي: واحدٌ حقيقةً، أو حكماً كنُذُر بني إسرائيل؛ فإنهم في حكم نذيرٍ واحد، فَأَنْذَرنا، وتلا علينا ما أنزل الله تعالى من آياته ﴿فَكَذَّبۡنَا﴾ ذلك النذيرَ في كونه نذيراً من جهته تعالى ﴿وَقُلۡنَا﴾ في حقِّ ما تلاه من الآيات إفراطاً في التكذيب، وتمادياً في النَّكير: ﴿مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ على أحد ﴿مِن شَيۡءٍ﴾ من الأشياء، فضلاً عن تنزيل الآيات على بشر مثلكم ﴿إِنۡ أَنتُمۡ﴾ أي: ما أنتم في ادِّعاء ما تدَّعونَه ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ كَبِيرٖ ۝٩﴾ بعيدٍ عن الحقِّ والصواب.

وجمع ضمير الخطاب مع أنَّ مخاطبَ كلِّ فوجٍ نذيرُه؛ لتغليبه على أمثاله ولو فرضاً، ليشمَلَ أولَ فوجٍ أنذرَهم نذيرٌ. والأصلُ: أنت وأمثالُكَ ممَّن ادَّعى، أو يدَّعي دعواك، مبالغةً في التكذيب، وتمادياً في التضليل كما يُنبئ عنه تعميمُ المُنزَل مع ترك ذِكْر المُنزَل عليه؛ فإنه ملوِّحٌ بعمومه حتماً.

---

(١) قراءة أبي عمرو على أصله في الإدغام، والقراءات الأخرى في القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٢٩٩.

وأما إقامةُ تكذيب الواحد مقامَ تكذيب الكلِّ، فقيل: أمرٌ تحقيقيٌّ يُصار إليه لتهويل ما ارتكبوه من الجِناية، لكن لا مساغَ لاعتباره من جهتهم، ولا لإدراجه تحتَ عبارتهم، كيف لا وهو منوطٌ بملاحظة اجتماع النُّذر[١] على ما لا يختلف من الشرائع والأحكام باختلاف العصور والأعوام، وأين هم من ذلك وقد حال الجَرِيضُ دون القَرِيض[٢]؟

هذا إذا جُعل ما ذُكر حكايةً عن كلٍّ واحد من الأفواج كما هو الظاهر، وأما إذا جُعل حكايةً عن الكلِّ فالنذير إما بمعنى الجمع[٣]؛ لأنه فعيلٌ، وهو يستوي فيه الواحدُ وغيرُه، أو مصدرٌ مقدَّر بمضافٍ عامٍّ، أي: أهلُ نذير، أو منعوتٌ به للمبالغة، فيتَّفق كلا طرفَي الخطاب في الجمعية. ويُستشعَر من بعض العبارات جوازُ اعتبار الجمعية بأحدِ الأوجه المذكورةِ على الوجه الأول أيضاً، وفيه بحثٌ.

وجُوِّز أن يكون الخطابُ من كلام الخَزَنة للكفَّار على إرادة القول، على أنَّ مرادَهم بالضلال ما كانوا عليه في الدنيا، أو هلاكُهم، أو عقابُ ضلالهم تسميةً له باسم سببه. وهو خلافُ الظاهر كما لا يخفى، وكذا ما قيل من جوازِ كونِهِ من كلام النذير للكَفَرة حَكَوه للخَزَنة.

وفي «الكشف»: هذا الوجهُ فيه تكلُّف بَيِّن، فإمَّا أن يكون مقولَ قولٍ محذوفٍ يستدعيه «قد جاءنا نذير»، كأنه قيل: بلى قد جاءنا نذيرٌ قال: إن أنتم إلا في ضلالٍ كبير، فكذَّبنا وقلنا. وقُدِّم «فكذَّبنا وقلنا» تنبيهاً على أن التكذيبَ لم يكن مقصوراً على قولهم هذا، وإمَّا أن يكون التكذيبُ واقعاً على الجملة، أعني: «إن أنتم»، وقوله سبحانه: «وقلنا ما نزَّل الله من شيء» عطفٌ على «كذَّبنا»، قُدِّم على صِلَته

(١) في الأصل: المنذر، والمثبت من (م).

(٢) الجريض: الغُصَّة، من الجَرَض: وهو الريق يغص به، والقريض: الشِّعر، وهو مثل يضرب للأمر يُقدر عليه أخيراً حين لا ينفع. مجمع الأمثال ١/ ١٩١.

(٣) جاء في حاشية الأصل ما نصه: ولم يجعل جمعاً كالعبيد؛ قيل: لأنه لا يعرف له مفرد يصلح أن يكون هذا جمعاً له، ونظر فيه، فتأمل. اهـ منه.

ليجريَ مجرى الاعتراض، مؤكِّداً لحكم التكذيب، ودالًّا على عدم القصر أيضاً، والأولُ أَولى. انتهى.

واستدلَّ بالآية على أنه لا تكليفَ قبل البعثة، وحَمْلُ النذير على ما في العقول من الأدلَّة ممَّا لا يقبلُه منصفُ ذوي العقول.

﴿وَقَالُواْ﴾ أيضاً معترفين بأنهم لم يكونوا ممن يسمَعُ أو يعقل، كأنَّ الخَزَنة قالوا لهم في تضاعيف التوبيخ: ألم تسمعوا آياتِ ربِّكم، ولم تعقلوا معانيها؟! فأجابوهم بقولهم: ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ﴾ كلاماً ﴿أَوْ نَعْقِلُ﴾ شيئاً ﴿مَا كُنَّا فِىٓ أَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١٠﴾﴾ أي: في عِدادِهم ومن جملتهم.

والمراد بهم؛ قيل: الشياطينُ؛ لقوله تعالى: (وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ ٱلسَّعِيرِ).

وقيل: الكفَّار مطلقاً، واختصاصُ إعداد السَّعير بالشياطين ممنوعٌ؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا﴾[1] [الفتح: ١٣] والآيةُ لا تدلُّ على الاختصاص. وفيه دغدغةٌ لعلَّكَ تعرفُها مما يأتي - إن شاء الله تعالى - قريباً، فلا تغفل.

ونفيُهم السماعَ والعقلَ لتنزيلهم ما عندَهم منهما - لعدمِ انتفاعهم به - منزلةَ العدمِ، وفي ذلك مع اعتبار عمومِ المسموع والمعقولِ ما لا يخفى من المبالغة. واعتبرهما بعضُ الأجلَّة خاصَّين، قال: أي: لو كنَّا نسمعُ كلامَ النذير فنقبلُه جملةً من غير بحثٍ وتفتيش، اعتماداً على ما لاح من صدقِهِ بالمعجِز، أو نعقِلُ فنفكِّرُ في حكمه ومعانيه تفكُّرَ المستبصرين، ما كنَّا.. إلخ. وفيه إشارةٌ إلى أنَّ السماعَ والعقلَ هنا بمعنى القَبول والتفكُّر. و«أو» للترديد؛ لأنه يكفي انتفاءُ كلٍّ منهما لخلاصهم من السعير، أو للتنويع، فلا ينافي الجمعَ. وقيل: أُشير فيه إلى قسمَي الإيمان التقليديِّ والتحقيقيِّ، أو إلى الأحكام التعبُّدية وغيرِها.

واستَدَلَّ بالآية - كما قال ابنُ السَّمعانيِّ في «القواطع»[2] - مَنْ قال بتحكيم

---

(١) في (م): ﴿إِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَلَٰسِلَاْ وَأَغْلَٰلًا وَسَعِيرًا﴾ [الإنسان: ٤]، والمثبت من الأصل وحاشية الشهاب ٨/ ٢٢٠، والكلام منه.

(٢) قواطع الأدلة ٢/ ٤٦.

العقل. وأنتَ تعلمُ أن قُصارى ما تشعر به أن العقلَ يُرشد إلى العقائد الصحيحة التي بها النجاةُ من السَّعير، وأمَّا أنها تدلُّ على أن العقلَ حاكمٌ كما يقول المعتزلةُ فلا. واستُدلَّ بها أيضاً ـ كما نقل عن ابن المُنير[1] ـ على أنَّ السمعَ أفضلُ من البصر. ومن العجيب استدلالُ بعضهم بها على أنه لا يُقال للكافر: عاقل.

﴿فَٱعْتَرَفُواْ بِذَنۢبِهِمْ﴾ الذي هو كفرُهم وتكذيبُهم بآياتِ الله تعالى ونُذُرِه عزَّ وجل ﴿فَسُحْقًا لِّأَصْحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ ﴿١١﴾﴾ أي: فبُعداً لهم من رحمته تعالى، وهو دعاءٌ عليهم.

وقرأ أبو جعفر والكسائيُّ: «فسُحُقاً» بضمِّ الحاء[2]. والسُّحقُ مطلقاً: البعد، وانتصابُه على أنه مصدرٌ مؤكد، أي: سَحَقَهم الله تعالى سُحْقاً. قال الشاعر[3]:

يجولُ بأطرافِ البلاد مغرِّباً ... وتسحقُه ريح الصَّبا كلَّ مَسْحَقِ

وقيل: هو مصدرٌ إمَّا لفعلٍ متعدٍّ من المزيد بحذف الزوائد، كما في قوله:

وإن أهلِكْ فذلك كان قدري[4]

أي: تقديري، والتقدير: فأسحقَهم الله سُحْقاً، أي: إسحاقاً، أو بفعلٍ مرتَّب على ذلك الفعل، أي: فأسحقَهم الله تعالى، فسُحِقوا سُحقاً، كما في قوله:

وعضَّةُ دهرٍ يا ابنَ مروان لم تَدَعْ ... من المال إلا مُسْحَتٌ أو مجلَّفُ[5]

---

(١) الانتصاف ٤/ ١٣٧.

(٢) التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٢١٧.

(٣) هو امرؤ القيس، والبيت في ديوانه ص١٧١.

(٤) عجز بيت ليزيد بن سنان فيما رجحه محققا المفضليات ص٧٠، وصدره:

فإن يبرأ فلم أنفِثْ عليه

ونسبه صاحب المفضليات إلى رجل من عبد القيس حليف لبني شيبان، وأورده ابن الشجري في أماليه ٢/ ١١٠ من غير نسبة. وفي المصادر: يهلك، بدل: أهلك.

(٥) البيت للفرزدق، وله روايتان: إحداها التي ذكرها المصنف، والثانية: ... إلا مسحتاً أو مجلفُ، وفي توجيه إعرابها كلام طويل، انظر: الشعر والشعراء ١/ ٤٨٠، والأغاني ٢١/ ٣٠٨، وخزانة الأدب ٥/ ١٤٤ وما بعدها وسلف ٣/ ٣٧٠.

والمجلف: الذي ذهب معظمه وبقي منه شيء يسير، والمسحت: المستأصل الذي لم يبق منه بقية. الخزانة ٥/ ١٥٢.

أي: لم تَدَع فلم يبقَ إلا مسحت، وإلى أول الوجهين ذهب أبو عليٍّ الفارسيُّ والزجَّاج[1]، وبعد ثبوت الفعل الثلاثي المتعدِّي كما في البيت ـ وبه قال أبو حيان[2] ـ لا يحتاج إلى ما ذُكر.

واللامُ في «لأصحاب» للتبيين، كما في: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾ [يوسف:٢٣]، و: سُقْياً لك.

وفي الآية ـ على ما قيل ـ تغليبٌ، ولعلَّ وجهَه عند القائل هو[3] أنَّ السَّوق يقتضي أن يقال: فسُحقاً لهم ولأصحاب السعير؛ فإنه تعالى بيَّن أولاً أحوالَ الشياطين حيث قال سبحانه: (وَأَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابَ السَّعِيرِ)، ثم بيَّن أحوالَ الكفَّار حيث قال عزَّ وجل: (وَلِلَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ)، والأوفقُ بقراءة النصبِ والأبعدُ من شبهة التكرار أن يُراد بالموصول غيرُ الشياطين، ثم قال تعالى شأنُه: (فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ)، فكان السَّوق يقتضي: فسُحْقاً لهم ولأصحاب السعير، لكن لم يقل كذلك؛ لأجل التغليب؛ حيث أطلق «أصحاب السعير» على الشياطين والكفار جميعاً.

ولا يضرُّ في هذا دلالةُ غير آيةٍ على عدم اختصاصِ أصحابِ السَّعير بالشياطين، بل يُطلقُ على سائر الكَفَرة أيضاً؛ لأنه يكفي في التغليب الاختصاصُ المتبادرُ من السَّوق هنا، ولا توقُّفَ له على عدم جواز إطلاق ذلك على غيرِ الشياطين في شيءٍ من المواضع.

على أنه يمكنُ أن يقال: لا حاجةَ إلى التزام اختصاص أصحاب السَّعير بالشياطين أصلاً ولو بحسب السوق، بل يكفي لصحَّة التوجيه كونُهم أصلاً[4] في دخول السَّعير، والكفَّار ملحقين بهم؛ كما يُشعر به قولُه تعالى: (مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ)، بمعنى: في عِدادِهم وجملتهم، فحينئذٍ يكونُ الداخلُ في السعير

---

(١) الحجة للفارسي ٦/ ٣٠٧، ومعاني القرآن للزجاج ٥/ ١٩٩.

(٢) في البحر المحيط ٨/ ٣٠٠.

(٣) في (م): وهو، وهو تصحيف.

(٤) في الأصل و(م): أصيلاً. والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٠، والكلام فيه بنحوه.

قسمين، وكان مقتضى الظاهر ذكرُهما معاً في الدعاء عليهم بالسُّحْق؛ كما يشهد به سِياقُ الآية، لكنَّه عدَلَ وغلَّبَ «أصحاب السعير» الدالَّ على الأصالة على غيره من التوابع. وذُكِرَ أن في هذا التغليب إيجازاً، وهو ظاهر، ومبالغةً، أي: في الإبعاد؛ إذ لو أُفرد كلٌّ من الفريقين بالذِّكر لأمكن أن يُتوهَّم تفاوتُ الإبعادَين، بأن يكون إبعاد الكَفَرة دون إبعاد الشياطين، على ما يُشعر به جعلُهم الشياطين أصلاً[1] وأنفسَهم ملحَقةً بهم، فلما ضُمُّوا إليهم في الحكم به دلَّ على أن إبعادَهم لم يقصر عن إبعاد أولئك. وأيضاً لمَّا غلَّب سبحانه وتعالى أصحابَ السَّعير - وهم الشياطين - على الكفار فقد جعل الكفَّار من قَبِيل الشياطين، فكأنَّهم هم بأعيانهم، وفيه من المبالغةِ ما لا يخفى. وتعليلاً، فإنَّ ترتُّبَ الحكم على الوصف، وكذا تعلُّقَه به يُشعر بعِلِّيته له، فيُشعر ذلك بأن الإبعاد حصَلَ لهم لأجل كونهم أصحابَ السعير.

وقيل في توجيه التغليب وما فيه من الأمور الثلاثة غيرُ هذا، وقد عُدَّ ذلك من المشكلات، وغَدَا معترَكاً لعلماء الرُّوم وغيرهم من العلماء الأعلام، ولعلَّ ما ذكرناه أقربُ إلى الأفهام، وأبعدُ عن النزاع والخِصام، فتأمَّل، والله تعالى وليُّ الإفهام.

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَخۡشَوۡنَ رَبَّهُم بِٱلۡغَيۡبِ﴾ أي: يخافون عذابَه غائباً عنهم، أو غائبين عنه، أو عن أعينِ الناس غيرَ مرائين، أو بما خفي منهم، وهو قلوبهم، ﴿لَهُم مَّغۡفِرَةٞ﴾ عظيمةٌ لذنوبهم ﴿وَأَجۡرٞ كَبِيرٞ ١٢﴾ لا يُقادَرُ قَدْرُه. وتقديمُ المغفرة على الأجر لأنَّ درءَ المضارِّ أهمُّ من جلب المنافع. والجملة المؤكَّدة[2]؛ قيل: استئنافٌ بيانيٌّ.

وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّواْ قَوۡلَكُمۡ أَوِ ٱجۡهَرُواْ بِهِۦٓ﴾ خطابٌ عامٌّ للمكلَّفين كما في قوله تعالى أولاً: «ليبلوكم» عُطِفَ على مقدَّر. قال في «الكشف»: أصلُ الكلام: وللذين كفروا منكم أيُّها المكلَّفون المبتلَون، وللذين يخشون منكم. فقَطَع هذا الثاني جواباً عن السؤال الذي يقطر من بيان حال الكافرين، مع أنَّ ذِكْرَهم بالعَرَض، وهو: ماذا حالُ من أحسَنَ عملاً، ومَنْ خرج ممحَّصاً عند الابتلاء؟ فأُجيب بقوله تعالى: «إن

---

(١) في الأصل و(م): أصيلاً. والمثبت من حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٠، والكلام فيه بنحوه.
(٢) يعني جملة: «إن الذين يخشون» إلخ، ينظر حاشية الشهاب ٨/ ٢٢١. ووقع في (م): المذكورة.

الذين يخشون» إلخ، فأثبت لهم كمال العلم: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨] وكمال التقوى؛ لقوله تعالى: «بالغيب». وفي هذا القَطْع ترشيحٌ للمعنى المرموزِ إليه في قوله تعالى: «أيكم أحسن عملاً» أي: ليبلوَكم أيُّكم المتَّقي، تخصيصاً لهم بأنهم المقصودون، ولو عطف لدلَّ على التساوي. ثم قيل: فاتَّقوه في السرِّ والعَلَن، ودُوموا أنتُم أيُّها الخاشعون على خشيتكم، وأَنيبوا إلى الخَشية والتقوى أيُّها المغترُّون، واعتقدوا استواءَ إسرارِكم وجهرِكم في علم ربِّكم، فكونوا على حذرٍ، واخشَوه حقَّ الخَشية، فقوله تعالى ذلك عطفٌ على هذا المضمَر.

وجَوَّز أن يُجعل قولُه تعالى: «إن الذين» إلخ، استطراداً عَقِيب ذِكْر الكفَّار وجزائهم، وقوله سبحانه: «وأسروا» «أو اجهروا» على سبيل الالتفات إلى «أصحاب السَّعير»؛ لبُعْد العهد، وزيادةِ الاختصاص، عطفاً على قوله تعالى: «وللذين كفروا»، كأنه قيل: وللكافرين بربِّهم عذابُ جهنم، ثم قيل: مِنْ صفتها كيتَ وكيت، وإسرارُكم بالقول وجهرُكم به أيُّها الكافرون سيَّان، فلا تَفُوتونَنا، جهرتُم بالكفر والبغضاء أو أبطنتُموهما، فهو من تتمَّة الوعيد.

ثم قال: والأولُ أملأ بالقَبول. انتهى.

ويظهرُ لي بُعْدُ الأول، ويؤيِّد الثاني ما رُوي عن ابن عباس أنه قال: نزلت ﴿وَأَسِرُّوا۟﴾ إلخ في المشركين، كانوا ينالون من النبيِّ ﷺ، فيُوحَى إليه عليه الصلاةُ والسلام، فقال بعضُهم لبعض: أسرُّوا قولكم كيلاً يسمَعَ ربُّ محمد. فقيل لهم: أسرُّوا ذلك أو اجهروا به؛ فإن الله تعالى يعلمُه.

وتقديمُ السرِّ على الجَهْر للإيذان بافتضاحهم ووقوعِ ما يَحْذَرونه من أول الأمر، والمبالغةِ في شمولِ علمِه عزَّ وجلَّ المحيطِ بجميع المعلومات، كأن علمَه تعالى بما يُسِرُّونه أقدمُ منه بما يجهرون به، مع كونهما في الحقيقة على السَّوية، أو لأن مرتبةَ السرِّ متقدِّمة على مرتبة الجَهْر؛ إذ ما من شيء يُجهَرُ به إلا وهو أو مَباديه مضمَرٌ في القلب غالباً، فتعلُّق علمِهِ تعالى بحالته الأولى متقدِّمٌ على تعلُّقه بحالته الثانية.

وقوله تعالى: ﴿إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٣﴾﴾ تعليلٌ لما قبله، وتقريرٌ له، وفي صيغةِ الفعيل، وتحليةِ «الصُّدور» بلام الاستغراق، ووصفِ الضمائر بصاحبتها، من

الجَزَالة ما لا يخفى، كأنه قيل: إنه عزَّ وجلَّ مبالغٌ في الإحاطة بمضمَرات جميع الناس، وأسرارِهم الخفيةِ المُسْتكِنَّة في صدورهم بحيث لا تكاد تفارقُها أصلاً، فكيف لا يعلم ما تُسرُّونه وتجهرون به؟

ويجوز أن يراد بـ «ذات الصدور»: القلوب التي في الصدور، والمعنى: إنه تعالى عليمٌ بالقلوب وأحوالها، فلا يخفى عليه سرٌّ من أسرارها.

وقولُه تعالى ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ﴾ إنكارٌ ونفي لعدم إحاطة علمِهِ جلَّ شأنُه، و«مَن» فاعلُ «يعلم»، أي: ألا يعلم السرَّ والجهرَ مَن أَوْجَدَ بموجب حكمته جميعَ الأشياء التي هما من جملتها؟!

وقولُه تعالى: ﴿وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ﴿١٤﴾﴾ حالٌ من فاعل «يعلم» مؤكِّدةٌ للإنكار والنفي، أي: ألا يعلمُ ذلك والحالُ أنه تعالى المتوصِّلُ علمُه إلى ما ظهَرَ من خلقه وما بطن؟ وقيل: حالٌ من فاعل «خلق». والأول أظهرُ.

وقُدِّر مفعول «يعلم» بما سمعتَ، ولم يُجعل الفعلُ من باب يُعطي ويمنع؛ لمكان هذه الحال على ما قيل؛ إذ لو قلتَ: ألا يكونُ عالماً مَنْ هو خالقٌ وهو اللطيفُ الخبير؟ لم يكن معنًى صحيحاً؛ لاعتماد «ألا يعلمُ» على الحال، والشيءُ لا يوقَّتُ بنفسه، فلا يقال: ألا يعلمُ وهو عالمٌ، ولكن: ألا يعلمُ كذا وهو عالمٌ كلَّ شيء؟

وأُورد عليه أنَّ «اللطيفَ» هو العالمُ بالخفيَّات، فيكونُ المعنى: ألا يكون عالماً وهو عالمٌ بالخفيَّات؟ وهو مستقيمٌ.

وأُجيب بأنَّ «لا يعلم» من ذلك الباب، وهو على ما قرَّره السَّكاكيُّ[1] مستغرقٌ في المقام الخطابيِّ، و«اللطيف الخبير»: مَنْ يُوصِلُ علمه إلى ما ظهر من خلقه وما بطَنَ، فهما سواءٌ في الاستغراق والإطلاق.

وتُعقِّب بأن الاستغراقَ غيرُ لازم كما ذكره الزمخشريُّ في قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا وَرَدَ مَآءَ مَدْيَنَ﴾ الآية [القصص: ٢٣] ولو سُلِّم فالوجه مختلفٌ؛ لأن العمومَ المستفادَ

(١) مفتاح العلوم ص٢١٦.

من الثاني ليس العمومَ المستفادَ من الأول؛ فإن اللطفَ للعلم بالخفايا خاصَّة، ويلزمُ العلم بالجلايا من طريق الدلالة، ثم إن الغزاليَّ[١] اعتبر في مفهوم «اللطيف» مع العلم بخفايا الأمور سلوكَ سبيل الرِّفق في إيصال ما يُصلحُها، فلا يتكرَّر مع «الخبير» بناءً على أنه العالمُ بالخفايا أيضاً.

والوجهُ في الحاجة إلى التقدير ـ كما قال بعضُ الأئمة ـ أن قولَه تعالى: «ألا يعلم» تذييلٌ بعد التعليل بقوله سبحانه: «إنه عليم بذات الصدور»، فربطُ المعنى أن يقال: ألا يعلمُ هذا الخفيَّ؟ أعني: قولَكم المُسَرّ به، أو: ألا يعلمُ سرَّكم وجهرَكم مَنْ يعلم دقائقَ الخفايا وجلائلَها، جُمَلَها وتفاصيلَها؟! ولو قيل: ألا يكون عالماً بليغ العلم مَنْ هو كذا، لم يرتبط، ولكان فيه عِيٌّ وقصور.

وجُوِّز كونُ «مَن» مفعولَ «خَلَق»، واستظهره أبو حيَّان[٢]، أي: ألا يعلم مخلوقَه وهذه حالُه؟! ورُجِّح الأولُ بأن فيه إقامةَ الظاهر مقام الضمير الراجعِ إلى الربِّ، وهو أدلُّ على المحذوف، أعني: السرَّ والجهر، وتعميم المخلوق المتناول لهما تناولاً أوليّاً، ولهذا قدَّروا: مَنْ خلَقَ الأشياءَ؛ دلالةً على أن حذفَ المفعول للتعميم.

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا﴾ غيرَ صعبةٍ، يسهُلُ جدّاً عليكم السلوكُ فيها، فهو فعولٌ للمبالغة في الذلّ، من ذُلّ بالضمِّ ويُكسر: ضدُّ الصعوبة، ويُستعمل المضمومُ فيما يقابل العزَّ كما يقتضيه كلامُ «القاموس»[٣]، وقال ابنُ عطية[٤]: الذَّلول فَعول بمعنى مفعول، أي: مذلولة، كرَكوب وحَلوب. انتهى.

وتُعقب بأن فعلَه قاصرٌ، وإنما يُعدَّى بالهمزة أو التضعيف، فلا يكون بمعنى المفعول، واستُظهر أن مذلولة خطأ.

---

(١) المقصد الأسنى ص١٠١.
(٢) في البحر المحيط ٨/ ٣٠٠.
(٣) ونص كذلك على أن المكسور يستعمل في هذا المعنى. القاموس: (ذل).
(٤) المحرر الوجيز ٥/ ٣٤١.

وقال بعضُهم: يقولون للدَّابة إذا كانت مُنقادَةً غيرَ صعبةٍ: ذلول، من الذِّل بالكسر، وهو سهولةُ الانقياد. وفي الكلام استعارةٌ، وقيل: تشبيهٌ بليغ(١).

وتقديمُ «لكم» على مفعولَي الجَعْل مع أن حقَّه التأخُّر عنهما؛ للاهتمام بما قُدِّم، والتشويق إلى ما أُخِّر؛ فإن ما حقَّه التقديمُ إذا أُخِّر، لاسيَّما عند كون المقدَّم مما يدلُّ على كون المُؤخَّر من منافع المخاطبين تبقى النفسُ مترقِّبةً لوروده، فيتمكَّن لديها عند ذِكْره فَضْلَ تمكُّن.

والفاءُ في قوله تعالى: ﴿فَٱمْشُواْ فِى مَنَاكِبِهَا﴾ لترتيب الأمر على الجَعْل المذكور، وزعم بعضُهم أنها فصيحةٌ. والمراد بـ «مناكبها» ـ على ما رُوي عن ابن عباس وقتادة وغيرِهما ـ جبالُها، وقال الحسن: طرقُها وفجاجُها.

وأصل المَنْكِب: مجتمَعُ ما بين العَضُد والكتِفِ، واستعمالُه فيما ذُكر على سبيل الاستعارة التصريحيَّة التحقيقيَّة، وهي قرينةُ المكنيَّة في «الأرض»؛ حيث شُبِّهت بالبعير، كما ذكره الخَفَاجيُّ. ثم قال: فإن قلتَ: كيف تكونُ مكنيَّةً وقد ذُكر طرفُها الآخرُ في قوله تعالى: «ذلولاً»؟ قلتُ: هو بتقدير: أرضاً ذَلولاً، فالمذكورُ جنسُ الأرض المطلَق، والمشبَّهُ هو الفرد الخارجيُّ، وهو غيرُ مذكورٍ، فيجوزُ كونُ «ذلولاً» استعارةً، والمكنيةُ حينئذ هي مدلولُ الضمير، لا المصرَّح بها في النظم الكريم، والمانعُ من الاستعارة ذِكْر المشبَّه بعينه لا بما يصدُقُ عليه(٢)، فتأمَّل ولا تغفل.

وفي «الكشاف»(٣): المشيُ في مناكبها مَثَلٌ لفرط التذليل ومجاوزتِهِ الغايةَ؛ لأن المنكبَين وملتقاهُما من الغارب أرقُّ شيء من البعير وأنباهُ عن أن يطأه الراكبُ بقدمِهِ ويعتمِدَ عليه [فإذا جعلها في الذل بحيث يُمشى في مناكبها] لم يترك بقيَّةً من التذليل.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: وزعم بعضهم ـ وكُتب فوق كلمة بعضهم: سلمان بن أحمد الكليسي. اهـ منه ـ أن «ذلولاً» إما مفعول بمعنى فاعل، أي: متذللة، وهو مجاز مرسل عن التحمل وعدم المدافعة بعلاقة اللزوم، أو صفة مشبهة بمعنى: لينة، فهو حقيقةٌ، وأن هذا وجه، وهو كما ترى. اهـ منه.

(٢) حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٢.

(٣) ٤/ ١٣٨، وما سيرد بين حاصرتين منه.

والمراد أنه ليس هنا أمرٌ بالمشي حقيقةً، وإنما القصدُ به إلى جعله مَثَلاً لفرط التذليل، سواءٌ كانت المناكبُ مفسَّرةً بالجبال أو غيرها، وسواءٌ كان ما قبلُ استعارةً أو تشبيهاً.

﴿وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ﴾ انتفعوا بما أنعمَ جلَّ شأنه، وكثيراً ما يعبّر عن وجوه الانتفاع بالأكل؛ لأنه الأهمُّ الأعمُّ. وفي «أنوار التنزيل»[(١)]: أي: التمسوا من نِعَمِ الله سبحانه وتعالى، على أنَّ الأكلَ مجازٌ عن الالتماس، من قَبِيل ذِكْر الملزوم وإرادةِ اللازم. قيل: وهو المناسبُ لقوله تعالى: «امشوا».

وجوَّز بعضٌ إبقاءَه على ظاهره، على أنَّ ذلك من قَبِيل الاكتفاء، وليس بذاك.

واستُدلَّ بالآية على نَدْب التسبُّب والكَسْب، وفي الحديث: «إن الله تعالى يحبُّ العبد المؤمنَ المُحْتَرِفَ»[(٢)]. وهذا لا يُنافي التوكُّل، بل أخرج الحكيمُ الترمذيُّ[(٣)] عن معاويةَ بن قُرَّة قال: مرَّ عمرُ بنُ الخطّاب رضي الله عنه بقوم، فقال: من أنتم؟ فقالوا: المتوكِّلون. قال: أنتم المتأكِّلون، إنما المتوكِّلُ رجلٌ أَلقى حبَّه في بطنِ الأرض، وتوكَّل على ربِّه عزَّ وجل. وتمامُ الكلامِ في هذا الفصل في محلِّه.

والمشهور أنَّ الأمر في الموضعين للإباحة، وجُوِّز كونُه لمطلقِ الطَّلب؛ لأن من المشي وما عُطِف عليه ما هو واجبٌ كما لا يخفى.

﴿وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ أي: المرجعُ بعد البعث لا إلى غيرِه عزَّ وجلَّ، فبالِغُوا في شكرِ نعَمِه التي منها تذليلُ الأرض، وتمكينُكم منها، وبثُّ الرزقِ فيها.

وممَّا يُقضى منه العجبُ جواز عَوْد ضمير «رزقه» على «الأرض» باعتبار أنها مبدأٌ، أو عنصرٌ من العناصر، أو ذلول، وهو يستوي فيه المذكَّر والمؤنَّث، والإضافة لأدنى ملابسةٍ، أي: من الرزق الذي خُلِقَ عليها، وكذا ضميرُ «إليه» أي:

---

(١) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٣.
(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٨٩٢٩)، وابن عدي في الكامل ١/ ٣٦٩ وقال ابن الجوزي في العلل ٢/ ٥٨٩: لا يصح.
(٣) نوادر الأصول ص١٢٣.

وإلى الأرض نشورُكم ورجوعُكم، فتَخرجون من بيوتكم وقصورِكم إلى قبوركم.

وجملةُ «إليه النشور»؛ قيل: عطفٌ على الصلة بعد ملاحظةِ ما ترتَّب عليها، وقيل: حال مقدَّرة من ضمير المخاطبين المرفوع، فتدبَّر.

﴿ءَأَمِنتُم مَّن فِي ٱلسَّمَآءِ﴾ وهو الله عزَّ وجل، كما ذهب إليه غيرُ واحدٍ، فقيل على تأويل: مَنْ في السماء أمرُه سبحانه وقضاؤه، يعني: أنه من التجوُّز في الإسناد، أو أن فيه مضافاً مقدَّراً، وأصلُه: مَنْ في السماء أمرُه، فلما حُذف المضافُ، وأُقيم المضافُ إليه مقامَه ارتفَعَ واستتر. وقيل: على تقدير: خالق مَنْ في السماء. وقيل: «في» بمعنى «على»، ويُراد العلوُّ بالقهر والقدرة.

وقيل: هو مبنيٌّ على زعم العرب، حيث كانوا يزعمون أنَّه سبحانه في السماء، فكأنه قيل: أأمنتُم مَن تزعمون أنه في السماء، وهو متعالٍ عن المكان؟ وهذا في غايةِ السَّخافة، فكيف يُناسب بناء الكلام في مثل هذا المقامِ على زَعْم بعض الجَهَلة كما لا يخفى على المُنصِفِ؟

أو هو غيرُه عزَّ شأنُه، وإليه ذهب بعضُهم، فقيل: أُريدَ بالموصول الملائكةُ ـ عليهم السلام ـ الموكَّلون بتدبير هذا العالَم. وقيل: جبريلُ عليه السلام، وهو المَلَكُ الموكَّل بالخَسْف.

وأئمةُ السَّلف لم يذهبوا إلى غيرِه تعالى، والآيةُ عندهم من المتشابه. وقد قال ﷺ: «آمِنُوا بمتشابهه»[١]، ولم يقل: أوِّلوه، فهم مؤمنون بأنه عزَّ وجلَّ في السماء على المعنى الذي أراده سبحانه مع كمال التنزيه، وحديثُ الجارية[٢] من أقوى الأدلَّة لهم في هذا الباب، وتأويلُه بما أوِّل به الخَلَفُ خروجٌ عن دائرة الإنصاف عند أُولي الألباب.

وفي «فتح الباري» للحافظ ابن حَجَر[٣]: أسند اللَّالَكائيُّ[٤] عن محمد بن

(١) هو قطعة من حديث طويل، سلف ٤/ ٣١.
(٢) سلف ١١/ ١٢١.
(٣) فتح الباري ١٣/ ٤٠٧.
(٤) شرح أصول الاعتقاد (٧٤٠).

الحسن الشَّيباني قال: اتَّفَقَ الفقهاءُ كلُّهم من المشرق إلى المغرب على الإيمان بالقرآن والأحاديث التي جاءت بها الثِّقات عن رسول الله ﷺ في صفة الربِّ من غير تشبيهٍ ولا تفسير. وأسند البيهقيُّ[1] بسندٍ صحيحٍ عن أحمد بن أبي الحَوارِي، عن سفيان بن عُيينة: كلُّ ما وصَفَ الله تعالى به نفسَه في كتابه فتفسيرُه تلاوتُه والسكوتُ عنه. وهذه طريقةُ الشافعيِّ وأحمدَ بن حنبل.

وقال إمامُ الحرمين في «الرسالة النظامية»: اختلفت[2] مسالكُ العلماء في هذه الظواهر: فرأى بعضُهم تأويلَها، والتزَمَ ذلك في آي الكتاب وما يصحُّ من السُّنن، وذهب أئمَّةُ السلف إلى الانكفاف عن التأويل، وإجراءِ الظواهر على مواردِها، وتفويضِ معانيها إلى الله عزَّ وجلَّ. والذي نرتضيه رأياً، وندينُ اللهَ تعالى به عقيدةً اتِّباعُ سَلَفِ الأمة؛ للدليل القاطع على أنَّ إجماع الأمة حجَّة، فلو كان تأويلُ هذه الظواهر حتمًا لأوشك أن يكون اهتمامُهم به فوقَ اهتمامهم بفروع الشريعة، وإذا انصَرَمَ عصرُ الصحابة والتابعين على الإضراب عن التأويل كان ذلك هو الوجه المتَّبع. انتهى كلامُ الإمام.

وقد تقدَّم النقلُ في ذلك عن أهل العصر الثالث، وهم فقهاءُ الأمصار، كالثوريِّ، والأوزاعيِّ، ومالكٍ، والليثِ ومَنْ عاصَرَهم، وكذا مَنْ أخذ عنهم من الأئمَّة، فكيف لا يُوثَقُ بما اتفقَ عليه أهلُ القرون الثلاثة وهم خيرُ القرون بشهادة صاحب الشريعة عليه الصلاة والسلام؟ انتهى كلامُ الحافظ على وجهِ الاختصار.

ونقلُ نصوصِ الأئمَّة في إجراء ذلك على الظاهر مع التنزيه من غير تأويل يُفضي إلى مزيدِ بسطٍ وتطويل، وقد أُلِّفت فيه كتبٌ معتبرةٌ مطوَّلة ومختصَرة.

وفي «تنبيه العقول» لشيخ مشايخنا إبراهيم الكُورانيِّ: أن إجماعَ القرون الثلاثة على إجراء المتشابهات على مواردها مع التنزيه بـ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] دليلٌ على أنَّ الشارع صلوات الله تعالى وسلامُه عليه أراد بها

(١) الاعتقاد ص٧٢-٧٣.
(٢) في الأصل و(م): اختلف، والمثبت من فتح الباري.

ظواهرَها، والجزمُ بصدقه ﷺ دليلٌ على عدم المُعارِض العقليِّ الدالِّ على نقيض ما دلَّ عليه الدليلُ النقليُّ في نفس الأمر، وإن توهَّمه العاقلُ في طَوْر النظر والفكر، فمعرفةُ الله تعالى بهذا النحو مِن الصفات طورٌ وراءَ ذلك. انتهى.

وأنا أقولُ: في التأويل اتِّباعُ الظنِّ، وقولٌ في الله عزَّ وجل بغير علمٍ، وإلا لاتَّحد ما يَذْكُرونه من المعنى فيه، مع أن الأمرَ ليس كذلك؛ حيث يذكرون في تأويل شيء واحد وجوهاً من الاحتمالات، وفيما عليه السلفُ سلامةٌ من ذلك، ويكفي هذا في كونه أحسنَ المسالك:

وما عليَّ إذا ما قلتُ معتقدي دعِ الجَهُول يظنُّ الجهلَ عُدْوانا[1]

وقرأ نافع: «أامنتم» بتحقيق الهمزة الأولى وتسهيل الثانية، وأدخل أبو عَمروٍ وقالونُ بينهما ألفاً، وقرأ قُنْبُل بإبدال الأولى واواً لضمِّ ما قبلَها وهو راء «النشور»، وعنه وعن وَرْش غيرُ ذلك أيضاً[2].

وقوله تعالى: ﴿أَن يَخْسِفَ بِكُمُ ٱلْأَرْضَ﴾ بدلُ اشتمالٍ من «من»، وجُوِّز أن يكون على حذف الجارِّ، أي: من أن يخسف، ومحلُّه حينئذٍ النصبُ أو الجرُّ، والباءُ للملابسة، و«الأرض» مفعولٌ به لـ «يخسف»، والخسفُ قد يتعدَّى. قال الراغبُ[3]: يقال: خسَفَه الله تعالى، وخسَفَ هو، قال تعالى: ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ [القصص: ٨١] أي: أأمنتُم من أن يُذهب الأرضَ إلى سُفْل ملتبسةً بكم.

وزعم بعضُهم لزومَ لزومِهِ، وأن «الأرض» نصب بنزع الخافض، أي: أن يَخسِفَ بكم في الأرض، وليس كذلك.

﴿فَإِذَا هِىَ﴾ حين الخَسْف ﴿تَمُورُ ﴿١٦﴾﴾ ترتجُّ وتهتزُّ اهتزازاً شديداً. وأصلُ المَوْر: التردُّد في المجيء والذهاب.

﴿أَمْ أَمِنتُم مَّن فِى ٱلسَّمَآءِ أَن يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا﴾ إضرابٌ عن الوعيد بما تقدَّم إلى

---

(١) سلف عند تفسير الآية (٨٣) من سورة الكهف.

(٢) التيسير ص٢١٢، والنشر ١/ ٣٦٣، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٢.

(٣) في مفردات ألفاظ القرآن: (خسف).

الوعيد بوجهٍ آخر، أي: بل أأمنتُم مَنْ في السماء أن يرسل.. إلخ. وقد تقدَّم الكلامُ في الحاصب.

والوعيدُ بالخسف أولاً لمناسبة ذِكْر الأرض في قوله تعالى: (هُوَ الَّذِى جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا)، وقد ذَكَر المِنَّة في تسهيل المشي في مناكِبِها، وذَكَر إرسالَ الحاصب ثانياً، وهذا في مقابلة الامتنان بقوله تعالى: (وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِۦ)، ألا ترى إلى قوله تعالى: ﴿وَفِى السَّمَآءِ رِزْقُكُمْ﴾ [الذاريات: ٢٢] قاله في «الكشف».

وفي «غرَّة التنزيل» للراغب في وجهِ تقديمِ الوعيد بالخَسْف على التوعُّد بالحاصِبِ أنه لمَّا كانت الأرضُ التي مهَّدها سبحانه وتعالى لهم لاستقرارهم يعبدون فيها خالقها، فعبدوا الأصنامَ التي هي شجرُها أو حجرُها خُوِّفوا بما هو أقربُ إليهم، والتخويفُ بالحاصب من السماء التي هي مصاعدُ كَلِمِهم الطَّيبة، ومَعَارجُ أعمالهم الصالحة؛ لأجل أنهم بدَّلوهما بسيِّئات كفرِهم، وقبائح أعمالهم. ولعلَّ ما أُشير إليه أولاً أولى.

﴿فَسَتَعْلَمُونَ كَيْفَ نَذِيرِ ۝١٧﴾ أي: إنذاري، فـ «نذير» مصدر، مثله في قول حسَّان:

فأُنذِرُ مثلَها نُصْحاً قريشاً ... من الرحمن إنْ قبلَتْ نذيري[(١)]

وهو مضافٌ إلى ياء الضمير، والقرَّاء مختلفون فيها؛ فمنهم مَنْ حَذَفها وصلاً وأثبتَها وقفاً، ومنهم مَنْ حَذَفها في الحالين اكتفاءً بالكسرة.

والمعنى: فستعلمون ما حالُ إنذاري وقدرتي على إيقاعِهِ عند مشاهدتكم للمنذَر به[(٢)]، ولكن لا ينفعُكم العلمُ حينئذٍ.

وقُرِئ شاذًّا: «فسيعلمون» بالياء التحتانية[(٣)].

---

(١) البيت في ديوانه ص٢٨٠، من أبيات يذكر فيها بني قريظة وما حلَّ بهم، وقبله:

تركناهم وما ظفروا بشيء ... دماؤهمُ عليهم كالعبير

فهم صرعى تحوم الطير فيهم ... كذاك يُدان ذو الفَنَد الفَخور

(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: لا حاجة إلى تعيين المنذر به، فلا تغفل. اهـ منه.

(٣) الكشاف ١٣٨/٤.

﴿وَلَقَدْ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي: من قبلِ كفَّار مكة من كفَّار الأمم السالفة، قومِ نوح وعادٍ وأضرابِهم. والالتفاتُ إلى الغَيبة لإبراز الإعراض عنهم.

﴿فَكَيْفَ كَانَ نَكِيرِ ﴿١٨﴾﴾ أي: إنكاري عليهم بإنزالِ العذاب، أي: كان على غاية الهَول والفَظَاعة، وهذا هو موردُ التأكيد القَسَمي، لا تكذيبُهم فقط. والكلامُ في «نكير» كالكلامِ في «نذير».

وفي الكلامِ من المبالغة في تسليةِ رسول الله ﷺ، وتشديدِ التهديد لقومه، ما لا يخفى.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ أغفلوا ولم ينظروا ﴿إِلَى ٱلطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَٰٓفَّٰتٍ﴾ باسطاتٍ أجنحتهنَّ في الجوِّ عند طيرانها؛ فإنهنَّ إذا بسَطْنها صففنَ قوادِمَها[1]، أعني: ما تقدَّم من ريشها صفًّا. ونصب «صافَّات» على الحال من «الطير»، أو من ضميرها في «فوقهم»، وهو في موضعِ الحال، فتكونُ الحال متداخلةً. وجُوِّز أن يكون ظرفاً لـ «صافات»، أو لـ «يروا»، ومفعولُ «صافات» على الاحتمالات محذوفٌ كما أشرنا إليه. وناسَبَ ذِكْرُ الاعتبار بالطَّير ذِكْرَ التوعُّد بالحاصب، لاسيَّما إذا فُسِّر بالحجارة؛ إذ قد أهلك الله تعالى بذلك أصحابَ الفيل حينما رمتهم به الطير، ففي ذلك إذكارُ قريش بتلك القصَّة.

﴿وَيَقْبِضْنَ﴾ ويضمُمنَ أجنحتهنَّ إذا ضربنَ بها جنوبهنَّ، والعطفُ على «صافات»؛ لأن المعنى: يصفُفنَ ويقبِضن، أو صافَّات وقابضات، وعطفُ الفعل على الاسم في مثله فصيحٌ شائع، وعكسُه جائز حسن، إلا عند السهيليِّ؛ فإنه عنده قبيح، نحو قوله:

باتَ يُعَشِّيها بعَضْبٍ باترِ يقصِدُ في أَسْوُقِها وجائرِ[2]

فإنه أراد: قاصد وجائر.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: هي عشر، وما دونها من مقدم الجناح خوافي. اهـ منه.

(٢) أورده ابن الشجري في أماليه ٢/ ٤٣٧ و٣/ ٢٠٥، والبغدادي في خزانة الأدب ٥/ ١٤٠ من غير نسبة.
وضمير المؤنث للإبل، والعضب: السيف. والبيت في وصف كريم بادر يعقر إبله لضيوفه. الخزانة ٥/ ١٤١.

ولما كان أصلُ الطيران هو صفّ الأجنحة؛ لأنَّ الطيران في الهواء كالسباحة في الماء، والأصلُ فيها مدُّ الأطراف وبسطُها، وكان القبضُ طارئاً على البسط[١]؛ للاستظهار به على التحرُّك = جيء بما هو طارٍ غيرُ أصلٍ بلفظ الفعل، وبما هو أصلٌ بلفظ الاسم، على معنى أنهنَّ صافّات، ويكون منهنَّ القبضُ تارةً بعد تارة، ويتجدَّد حيناً إثرَ حين، كما يكون من السابح.

﴿مَا يُمْسِكُهُنَّ﴾ في الجوِّ عند الصفِّ والقبض، على خلاف مقتضى طبيعة الأجسام الثقيلة من النزول إلى الأرض والانجذاب إليها ﴿إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ الواسع رحمتُه كلَّ شيء، حيث بَرَأهنَّ عزَّ وجلَّ على أشكالٍ وخصائص، وألهمهنَّ حركات قد تأتَّى منها الجريُ في الهواء. والجملةُ مستأنفة، أو حالٌ من الضمير في «يقبضن».

وقرأ الزهريُّ: «ما يُمَسِّكُهنَّ» بالتشديد[٢].

﴿إِنَّهُۥ بِكُلِّ شَىْءٍۭ بَصِيرٌ ﴿١٩﴾﴾ دقيقُ العلم، فيعلم سبحانه وتعالى كيفيةَ إبداع المبدَعات، وتدبيرَ المصنوعات، ومِنْ هذا خلقُه عزَّ وجل للطير على وجهٍ تأتَّى به جريُه في الجوِّ مع قدرته تعالى أن يُجْريَه فيه بدون ذلك، إلا أنَّ الحكمةَ اقتضت ربطَ المسبَّبات بأسبابها.

وليس فيما ذكرنا نزوعٌ إلى ما يضرُّ من أقوال أهل الطبيعة؛ لأن كونَ طبيعةِ الأجسام الثقيلة ما سمعتَ أمرٌ محسوس، لا يُنكره إلا من كابَرَ حِسَّه، ومثله كونُ الإمساكِ بالسبب السابق، وكونُه سبباً من آثار رحمته تعالى الواسعة، وأبى ذلك أبو حيان[٣] توهُّماً منه أنه نزوعٌ إلى ما يضرُّ من أقوال أهل الطبيعة، وقال: نحن نقول: إن أثقلَ الأشياء إذا أراد الله سبحانه إمساكَه في الهواء، واستعلاءه إلى العرش، كان ذلك، وإذا أراد جلَّ شأنُه إنزال ما هو أخفُّ سُفلاً إلى منتهى ما ينزل كان أيضاً، وليس ذلك لشكلٍ، أو ثقل، أو خفَّة.

---

(١) جاء في هامش الأصل ما نصه: حاصله أن الغالب هو البسط، فكأنه هو الثابت، فجيء بالاسم، والقبضُ متجدِّدٌ، فعبِّر عنه بالفعل. اهـ منه.

(٢) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٣.

(٣) البحر المحيط ٨/ ٣٠٣.

ونحن لا ننكر أن الله تعالى على كلِّ شيءٍ قدير، وأنه سبحانه فعَّال لما يريد، وأنه لا يتوقَّف فعلُه عزَّ وجل على السبب عقلاً، بيد أنَّا نقول: إنه تعالى اقتضت حكمتُه في هذا العالم ذلك الربطَ، وهو أمرٌ عاديٌّ اختارَه تعالى حكمة وتفضُّلاً، ولو شاء جلَّ وعلا غيرَه لكان كما شاء.

وتقديمُ «بكلِّ شيء» على «بصير» للفاصلة، أو للحصر، ردّاً على مَن يزعمُ عدمَ شمولِ علمه تعالى شأنُه.

﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ جُندٌ لَّكُمْ يَنصُرُكُم مِّن دُونِ ٱلرَّحْمَٰنِ﴾ متعلِّقٌ عند كثير بقوله سبحانه: (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى ٱلطَّيْرِ) فقال في «الإرشاد»(١): هو تبكيتٌ لهم بنفي أن يكون لهم ناصرٌ غير الله تعالى، كما يلوِّح به التعرُّض لعنوان الرَّحمانية، ويعضُدُه قولُه تعالى: (مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا ٱلرَّحْمَٰنُ)، أو ناصرٌ من عذابه تعالى، كما هو الأنسبُ بقوله تعالى بعدُ: (إِنْ أَمْسَكَ رِزْقَهُۥ)، كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] في المعنيين معاً، خلا أنَّ الاستفهام هناك متوجِّهٌ إلى نفسِ المانع وتحقُّقه، وهنا متوجِّه إلى تعيين الناصر؛ لتبكيتهم بإظهار عَجْزِهم عن تعيينه.

و«أم» منقطعةٌ مقدَّرة بـ «بل»؛ للانتقال من توبيخهم على تَرْك التأمُّل فيما يشاهدونه من أحوال الطير المُنْبِئة عن تعاجيب آثار قدرةِ الله عزَّ وجل، إلى التبكيت بما ذُكر. والالتفاتُ للتشديد في ذلك، ولا سبيل إلى تقدير الهمزة معها؛ لأنَّ بعدها «مَنْ» الاستفهامية، والاستفهامُ لا يدخل على الاستفهام(٢) في المعروف عندهم، وهي مبتدأ، و«هذا» خبرُه، وفي الموصول هنا(٣) الاحتمالاتُ المشهورة في مثله، وجملة «ينصركم» صفة لـ «جند» باعتبار لفظه، و«من دون الرحمن» على الوجه الأول إمَّا حالٌ من فاعل «ينصركم»، أو نعت لمصدره، وعلى الثاني متعلِّق بـ «ينصركم» كما في قوله تعالى: ﴿مَن يَنصُرُنِى مِنَ ٱللَّهِ﴾ [هود: ٣٠] فالمعنى: [بل] مَنْ

---

(١) تفسير أبي السعود ٨/٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.
(٢) جاء في هامش الأصل ما نصه: و: هل مَن يُعير جناحه. «مَنْ» فيه موصولة مبتدأ، والخبر محذوف، أي: موجود. اهـ منه.
(٣) لفظ: هنا، لم يرد في الأصل، وأثبتناه من (م).

هذا الحقيرُ الذي هو في زعمكم جندٌ لكم ينصرُكم متجاوزاً نصرَ الرحمن، أو ينصرُكم نصراً كائناً من دون نصره تعالى، أو ينصرُكم من عذابٍ كائنٍ من عند الله عزَّ وجل.

وقوله تعالى ﴿إِنِ ٱلْكَٰفِرُونَ إِلَّا فِى غُرُورٍ ﴿٢٠﴾﴾ اعتراضٌ مقرِّرٌ لما قبلَه ناعٍ عليهم ما هم فيه من غايةِ الضلال، أي: ما هم في زعمهم أنهم محفوظون من النوائب بحفظِ آلهتهم لا بحفظِهِ تعالى فقط، وأنَّ آلهتَهم تحفظُهم من بأس الله تعالى، إلا في غرورٍ عظيم وضلال فاحشٍ من جهة الشيطان، ليس لهم في ذلك شيء يُعتدُّ به في الجملة. والالتفاتُ إلى الغَيبة للإيذان باقتضاء حالهم الإعراضَ عنهم، وبيان قبائحهم للغير. والإظهارُ في موضع الإضمار لذمِّهم بالكفر، وتعليل غرورهم به.

والكلامُ في قوله تعالى: ﴿أَمَّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى يَرْزُقُكُمْ إِنْ أَمْسَكَ﴾ أي: الله عزَّ وجلَّ ﴿رِزْقَهُۥ﴾ بإمساك المطر وسائرِ مباديه = كالذي مرَّ.

وقوله تعالى: ﴿بَل لَّجُّوا۟﴾ إلخ، منبئٌ عن مقدَّر يستدعيه المقامُ، كأنه قيل إثرَ [تمام] التبكيتِ والتعجيز: لم يتأثَّروا بذلك، ولم يُذعِنوا للحقّ، بل لجُّوا وتمادَوا ﴿فِى عُتُوٍّ﴾ في عنادٍ واستكبارٍ وطغيان ﴿وَنُفُورٍ ﴿٢١﴾﴾ شراد عن الحقِّ؛ لِثقَله عليهم.

وجَعَلَ ناصرُ الدين: «أم مَنْ هذا الذي هو» إلخ عديلاً لقوله تعالى: «أولم يروا» على معنى: ألم ينظروا في أمثالِ هذه الصنائع من القبض، والبَسْط، والإمساك، وما شاكَلَ ذلك مما يدلُّ على كمال القدرة، فلم يعلموا قدرتَنا على تعذيبهم بنحوِ خسفٍ، وإرسال حاصبٍ؟ أم لكم جندٌ ينصرُكم من دون الله إن أرسَلَ عليكم عذابَه؟ وقال: إنه كقوله تعالى: ﴿أَمْ لَهُمْ ءَالِهَةٌ تَمْنَعُهُم مِّن دُونِنَا﴾ [الأنبياء: ٤٣] إلا أنه أُخرج مخرجَ الاستفهام عن تعيين مَنْ ينصرُهم؛ إشعاراً بأنهم اعتقدوا هذا القسم. وجعل قوله تعالى: «أم مَنْ هذا الذي يرزقكم» إلخ، على معنى: أم مَنْ يُشار إليه، ويقال: هذا الذي يرزقُكم(١)؟ فقيل: إنه ـ عليه الرحمةُ ـ جعل في الأولى «أم» متصلةً، و«مَن» استفهامية، وجعل في الثانية «أم» منقطعة، و«من» موصولة،

---

(١) تفسير البيضاوي مع حاشية الشهاب ٨/ ٢٢٤.

و«هذا الذي» مبتدأ وخبرٌ واقعٌ صلةً على تقدير القول، وقُدِّر لاستهجان أن يُقال: الذي هذا الذي يرزقُكم، ويجعل «هذا» قائماً مقامَ الضمير الراجع إلى الموصول الأول، و«مَنْ»: قيل: مبتدأٌ، خبرُه محذوفٌ، أي: رازق لكم، وكأنه أشار بذلك إلى صحَّة كلٍّ من الأمرين في الموضعين.

وحديثُ لزوم اجتماع الاستفهامين في بعض الصُّور، ودخول الاستفهام على الاستفهام؛ قيل عليه: إنه ليس بضائرٍ؛ إذ لا مانعَ من اجتماع الاستفهامين إذا قُصِدَ التأكيدُ، وقد نقل ابنُ الشَّجَريِّ[1] عن جميع البصريين أنَّ «أم» المنقطعة أبداً بمعنى «بل» والهمزة، أي: ولو دخلت على استفهامٍ نحو: ﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ [الرعد:١٦] و﴿أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [النمل:٨٤] ومذهبُ غيرهم أنها قد تأتي بمعنى الاستفهام المجرَّد، ورُوي ذلك عن أبي عُبيدة، وأنها قد تأتي للإضراب المجرَّد، وقد تتضمَّنه والاستفهامَ الإنكاريَّ أو الطَّلَبيَّ.

والزمخشريُّ قال في الموضعين[2]: أم مَنْ يُشار إليه ويُقال: هذا الذي؟ وجَوَّز في «هذا» أن يكونَ إشارةً إلى مفروضٍ، وأن يكون إشارةً إلى جميع الأوثان؛ لاعتقادهم أنهم يُحفظون من النوائب، ويُرزقون ببركة آلهتهم، فكأنهم الجندُ والناصر والرازق.

والآيةُ على هذا ليست متعلِّقة بقوله تعالى: «أولم يروا» على ما حقَّقه صاحبُ «الكشف»، قال بعد أن أوضَحَ كلامَه: إذا تقرَّر ذلك فاعلم أنَّ الذي يقتضيه النظمُ على هذا التفسير أن يكون قولُه تعالى: «أم مَنْ هذا الذي هو جند» متعلِّقاً بحديث الخسف، وقولُه سبحانه: «أم مَنْ هذا الذي يرزقُكم» بحديث إرسال الحاصب على سبيل النَّشْر، كأنه لما قيل: أأمنتم مَنْ في السماء أن يخسف بكم الأرضَ، فتضطربَ نافرةً بعد ما كانت في غاية الذِّلَّة، عقَّبَ بقول: أم آمَنكم الفوج الذي هو في زعمكم هو جندٌ لكم يمنعُكم من عذاب الله تعالى وبأسِهِ؟ على أنَّ «أم» منقطعةٌ، والاستفهام تهكُّمٌ، وكذلك لمَّا قيل: أأمنتُم مَنْ في السماء أن يُرسل

---

(١) في أماليه ٣/ ١٠٨ ونقله المصنف عنه بواسطة ابن هشام في المغني ص٦٦.
(٢) الكشاف ٤/ ١٣٩.

عليكم حاصباً، بدل ما يُرسل عليكم رحمَته؟ ذنَّبَ بقول: أم آمنكم الذي تتوهَّمون أنه يرزقكُم؟!

وأما قوله تعالى: «ولقد كذَّب الذين من قبلهم» فاعتراضٌ يشدُّ من عَضُدِ التحذير، وأن في الأمم الماضين المخسوفَ بهم، والمرسَلَ عليهم الحواصبُ، إلى غير ذلك من أنواع عذابه عزَّ وجلَّ، ما يسلُبُهم الطمأنينة والوقارَ لو اعتبروا.

وكذلك قولُه سبحانه: «أو لم يروا» تصويرٌ لقدرته تعالى الباهرة، وأنَّ مَنْ قدر على ذلك كان الخسفُ وإرسالُ الحاصبِ عليه أهونَ شيء. وفيه: كما أنه بعظيم قدرته وشمولِ رحمته أمسَكَ الطيرَ، كذلك إمساكُه العذابَ، وإلا فهؤلاء يستحقُّون كلَّ نكالٍ.

وفي الإتيان بـ «هذا» من التحقير الدالِّ على تسفيهِ رأيهم، وتقدير القول الدالِّ على الزَّعم، والتأكيد بالموصولين الدالِّ على تأكُّد اعتقادهم في ذلك الباطل، إن كان إشارةً إلى الأصنام، أو كمالِ التهكُّم بهم كأنهم محقَّقون معلومون إن كان إشارةً إلى فوجٍ مفروض؛ لأن حالَهم في الأمن يقتضي ذلك، وهذا أبلغُ، ولذا قدَّمه الزمخشريُّ = ما يقضى منه العجبُ، ويَلُوحُ الإعجاز التنزيليُّ كأنه رأيُ العين.

ثم قال: فهذا ما هُدِيت إليه مع الاعتراف بأنَّ الاغتراف من تيَّار كلامِ الله تعالى له رجالٌ ما أَبْعَدَ مثلي عنهم، ولكن أتسلَّى بقول إمامنا الشافعيِّ: أُحبُّ الصالحين ولستُ منهم. انتهى.

ولَعَمْري لقد أبدع، وتبوَّأَ ما قالَه من القَبول عند ذوي العقول المحلَّ الأرفع:

ويُعجبني طرف تدرُّ دموعُه ... على فضله العالي فلِلّه دَرُّه

وظاهره أن «من» في الموضعين فاعلٌ لفعلٍ محذوف دلَّ عليه السياق، أعني: أَمِنَكُم، لا مبتدأ خبرُه محذوف كما قيل فيما سبق.

وقد جُوِّز في الآية غيرُ ما تقدَّم من أوجه الإعراب، وهو أن يكون «مَن» خبراً مقدَّماً، و«هذا» مبتدأ، ورُجِّح على ما مرَّ من عكسه بأنه سالمٌ عمَّا فيه من الإخبار

بالمعرفة عن النكرة؛ فإنه غيرُ جائزٍ عند الجمهور، وجوازُه مذهبُ سيبويه[١] إذا كان المبتدأ اسمَ استفهامٍ، أو أفعلَ تفضيل.

وقرأ طلحةُ في الأولى: «أَمَن» بتخفيف الميم، وشدَّد في الثانية كالجماعة[٢].

وقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَمْشِي مُكِبًّا عَلَىٰ وَجْهِهِۦٓ أَهْدَىٰٓ أَمَّن يَمْشِي سَوِيًّا عَلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٢٢﴾﴾ مَثَلٌ ضُرب للمشرك والموحِّد؛ توضيحاً لحالَيهما في الدنيا، وتحقيقاً لشأن مذهبيهما.

والفاءُ لترتيب ذلك على ما ظهر من سوءِ حال الكَفَرة، وخُرورهم في مهاوي الغُرور، وركوبهم متنَ عَشْواء العتوِّ والنفور؛ فإنَّ تقدُّمَ الهمزة عليها صورةً إنما هو لاقتضاء الصَّدارة، وأما بحسب المعنى، فالمعنى بالعكس على ما هو المشهور، حتى لو كان مكانَ الهمزة «هل» لقيل: فهل مَنْ يمشي.. إلخ؟

و«من» موصولةٌ مبتدأ، و«يمشي» صلتُه، و«مكبّاً» حالٌ من الضمير المستتر فيه، و«على وجهه» ظرفٌ لغو متعلِّق بـ «مكبّاً»، أو مستقرٌّ حال، والأولُ أولى، و«أهدى» خبر «مَن»، و«مَن» الثانية عطفٌ على الأولى، وهو من عطفِ المفرد على المفرد، كما في قولك: أزيدٌ أفضل أم عمرو، وقيل: مبتدأ خبرُه محذوفٌ؛ لدلالة خبر الأولى عليه، ولا حاجة إلى ذلك؛ لما سمعتَ.

والمكبُّ: الساقطُ على وجهه، يقال: أكبَّ: خَرَّ على وجهه، وهو من باب الإفعال. والمشهورُ أنه لازمٌ وثلاثيُّه متعدٍّ، فيقال: كبَّه الله تعالى، فأكبّ، وقد جاء ذلك على خلاف القياس، وله نظائرُ يسيرةٌ، كـ : أَمْرَت الناقةُ: درَّت، ومَرَيتُها، وأشنَقَ البعير: رفعَ رأسَه، وشنقتُه، وأقشع الغيم، وقشَعَتْه الريحُ، أي: أزالته وكشَفَته، وأنزفَت البئرُ ونزَفْتُها: أخرجتُ ماءها، وأنسل ريشُ الطائر ونسلتُه.

وقال بعضُهم: التحقيق أنَّ الهمزة فيه للصَّيرورة، فمعنى أكبَّ: صار ذا كبٍّ ودخل فيه، كما في ألأمَ: إذا صار لئيماً، وأنفض: إذا صار نافضاً لما في مِزْوَدَته،

(١) الكتاب ١/ ٣٢٨-٣٢٩.
(٢) القراءات الشاذة ص١٥٩، والبحر المحيط ٨/ ٣٠٣.

وليست للمطاوَعَة، ومطاوع كبَّ إنما هو انكبَّ، وقد ذهب إلى ذلك ابنُ سِيْدَه في «المحكم» تبعاً للجوهريِّ[(١)] وغيره، وتبعه ابنُ الحاجب[(٢)] وأكثرُ شرَّاح «المفصَّل»، إلا أن كلامَ بعض الأجلَّة ظاهرٌ في التسوية بين المطاوَعة والصيرورة.

وحكى ابنُ الأعرابيِّ: كبَّه الله تعالى وأكبَّه بالتعدية. وفي «القاموس»[(٣)] ما هو نصٌّ فيه، وعليه لا مخالفة للقياس، والمعنى: أفمن يمشي وهو يعثُرُ في كلِّ ساعةٍ، ويخرُّ على وجهه في كلِّ خطوةٍ؛ لتوعُّر طريقه، واختلاف أجزائه بانخفاضِ بعضٍ وارتفاعِ بعضٍ آخَرَ، أهدى وأرشَدُ إلى المقصدِ الذي يؤمُّه، أم مَنْ يمشي قائماً سالماً من الخَبْط والعِثَار على طريق مستوي الأجزاء لا اعوجاجَ فيه ولا انحراف؟ ولم يُصرَّح بطريق الكافر بل أُشير إليه بما دلَّ على توعُّره وعدمِ استقامته ـ أعني: «مكبّاً» ـ للإشعار بأنَّ ما عليه لا يليقُ أن يُسمَّى طريقاً.

وفسَّر بعضُهم السويَّ بمستوي الجهة قليلِ الانحراف، على أنَّ المكبَّ: المتعسِّف الذي ينحرفُ هكذا وهكذا، وهو غيرُ مناسبٍ هنا؛ لأن قولَه تعالى: «على صراط مستقيم» يصير كالمكرَّرِ، وأفعل هنا مثلُه ـ على ما في «البحر» ـ في قولك: العسل أحلى من الخلِّ[(٤)].

والآيةُ ـ على ما رُوي عن ابن عباس ـ نزلت في أبي جهلٍ عليه اللعنةُ، وحمزةَ رضي الله عنه، والمرادُ العموم كما رُوي عن ابن عباس أيضاً، ومجاهد، والضحَّاك.

وقال قتادة: نزلت مخبرةً عن حال الكافر والمؤمن في الآخرة، فالكفَّارُ يمشون فيها على وجوههم، والمؤمنون يمشون على استقامةٍ، ورُوي أنه قيل

---

(١) في صحاح الجوهري (كبب): كبه الله لوجهه، أي: صرعه، فأكب على وجهه، وهذا من النوادر أن يقال: أفعلتُ أنا، وفعلتُ غيري. . . وأكب فلان على الأمر يفعله، وانكب، بمعنى.

(٢) ينظر شرح الشافية ٢/ ٨٨-٨٩.

(٣) القاموس: (كبب).

(٤) البحر ٨/ ٣٠٣ ومعنى المثل: أن العسل في الأصناف الحلوة أميز من الخل في الأصناف الحامضة.

للنبيِّ ﷺ: كيف يمشي الكافرُ على وجهه؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «إنَّ الذي أمشاهُ في الدنيا على رجليه قادرٌ على أن يُمشيه في الآخرةِ على وجهه»(١). وعليه فلا تمثيلَ.

وقيل: المرادُ بالمُكِبِّ: الأعمى، وبالسَّويِّ: البصير، وذلك إمَّا من باب الكناية، أو من باب المجاز المرسَل، وهو لا يأبى جعلَه بعدُ تمثيلاً لمن سمعت، كما هو معلومٌ في محلِّه.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ﴾ أي: القلوب ﴿قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٢٣﴾﴾ أي: تلك النعم، كأنْ تستعملوا السمعَ في سماع الآيات التنزيلية على وجهِ الانتفاع بها، والأبصارَ في النظر بها في الآيات التكوينية الشاهدةِ بشؤون الله عزَّ وجلَّ، والأفئدةَ بالتفكُّر بها فيما تسمعونه وتشاهدونه.

ونصب «قليلاً» على أنه صفةُ مصدرٍ مقدَّرٍ، أي: شكراً قليلاً، و«ما» مزيدةٌ لتأكيد التقليل، والجملةُ حالٌ مقدَّرة، والقلَّة على ظاهرها، أو بمعنى النفي إن كان الخطابُ للكَفَرة. وجُوِّز في الجملة أن تكون مستأنفةً، والأول أولى.

﴿قُلْ هُوَ ٱلَّذِى ذَرَأَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: خلقَكم وكثَّركم فيها، لا غيرُه عزَّ وجلَّ ﴿وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ للجزاء لا إلى غيره سبحانه، اشتراكاً أو استقلالاً، فابنوا أمرَكم على ذلك.

﴿وَيَقُولُونَ﴾ مِنْ فَرْط عتوِّهم ونفورِهم: ﴿مَتَىٰ هَٰذَا ٱلْوَعْدُ﴾ أي: الحشرُ الموعود، كما يُنبئُ عنه قولُه تعالى: «وإليه تحشرون».

﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٢٥﴾﴾ يخاطبون به النبيَّ ﷺ والمؤمنين حيث كانوا مشاركين له عليه الصلاة والسلام في الوعد وتلاوةِ الآيات المتضمِّنة له. وجوابُ الشرط محذوفٌ، أي: إن كنتُم صادقين فيما تخبرونه من مجيء الساعة والحَشْر فبيِّنوا وقتَه.

(١) أخرجه أحمد (١٣٣٩٢)، والبخاري (٤٧٦٠)، ومسلم (٢٨٠٦) من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه.

﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْعِلْمُ﴾ أي: العلمُ بوقته ﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾ عزَّ وجلَّ لا يطَّلع عليه غيرُه عزَّ وجلَّ، كقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى﴾ [الأعراف:١٨٧] ﴿وَإِنَّمَآ أَنَا۠ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٢٦﴾﴾ أنذرُكم وقوعَ الموعود لا محالة، وأما العلمُ بوقت وقوعِه فليس من وظائف الإنذار.

والفاءُ في قوله تعالى ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾ فصيحةٌ معرِبةٌ عن تقدير جملتين، وترتيب الشرطية عليهما، كأنه قيل: وقد أتاهم الموعودُ فرأوه: فلمَّا رأوه، إلخ، وهذا نظير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا رَءَاهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُۥ﴾ [النمل:٤٠] إلا أن المقدَّر هناك أمرٌ واقع مرتَّب على ما قبلَه بالفاء، وهاهنا أمرٌ منزَّلٌ منزلةَ الواقع، واردٌ على طريقة الاستئناف.

وقوله تعالى ﴿زُلْفَةً﴾ حال من مفعول «رأوه» إما بتقدير المضاف، أي: ذا زلفةٍ وقرب، أو على أنه مصدرٌ بمعنى الفاعل، أي: مزدلفاً، أو على أنه مصدرٌ نُعِتَ به مبالغةً، أو ظرفٌ، أي: رأوه في مكانٍ ذي زلفةٍ. وفسَّر بعضُهم الزلفةَ بالقريب، والأمر عليه ظاهرٌ، وكذا على ما رُوي عن ابن زيد من تفسيره بالحاضر.

وقال الراغبُ: الزُّلفة: المَنْزِلةُ والحُظوة. وما في الآية قيل: معناه زلفة المؤمنين، وقيل: زلفةً لهم، واستعمل الزُّلفة في منزلة العذاب كما استُعملت البِشارة ونحوُها من الألفاظ[1]. انتهى. ولا زلفةَ في كلا القولين.

﴿سِيٓـَٔتْ وُجُوهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ ساءتها رؤيتُه، بأن غَشِيَتها بسببها الكآبةُ ورهقَها القَتَرُ والذِّلة، ووضع الموصول موضع ضميرهم لذَمِّهم بالكفر، وتعليلِ المساءة به.

وأَشَمَّ أبو جعفر، والحسنُ، وأبو رجاء، وشَيْبة، وابن وثَّاب، وطلحة، وابنُ عامر، ونافع، والكسائيُّ كسر سين «سيئت» الضمَّ[2].

﴿وَقِيلَ﴾ توبيخاً لهم وتشديداً لعذابهم: ﴿هَٰذَا ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تَدَّعُونَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: تطلبونه في الدنيا وتستعجلونه إنكاراً واستهزاءً، على أنه تفتعلون من الدعاء. والباءُ

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن (زلف).

(٢) التيسير ص١٢٥، والنشر ٢/ ٢٠٨. وقراءة الحسن، وأبي رجاء، وشيبة، وابن وثاب، وطلحة في البحر ٨/ ٣٠٣.

صلةُ الفعل، وقيل: هو من الدعوى، أي: تدَّعون أن لا بعثَ ولا حشرَ، فالباءُ سببيةٌ أو للملابسة باعتبار الذِّكر، وأُيِّد التفسيرُ الأول بقراءة أبي رجاء والضحَّاك والحسن وقتادة وابن يسار وعبد الله بن مسلم، وسلام، ويعقوب: «تَدْعون» بسكون الدال، وهي قراءةُ ابن أبي عَبْلة، وأبي زيد، وعصمة عن أبي بكر، والأصمعيِّ عن نافع[١].

وذكر الزمخشريُّ في «سورة المعارج» أن «يَدْعون» مخفَّفاً من قولهم: دعا بكذا: إذا استدعاه[٢].

وعن الفرَّاء[٣] أنه من دعوت أدعو، والمعنى: هذا الذي كنتُم به تستعجلون وتَدْعون الله تعالى بتعجيله، يعني قولهم: ﴿إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ﴾ إلخ [الأنفال: ٣٢].

ورُوي عن مجاهد أن الموعود عذابُ يوم بدر، وهو بعيد.

وأما ما قيل من أن الموعود الخسفُ والحاصبُ، وقد وقعا؛ لأنَّ المراد بالخسف الذلُّ، كما في قوله:

ولا يُقيمُ على خَسْفٍ يُراد به إلا الأذلَّانِ عَيرُ الحيِّ والوتِدُ[٤]

وبالحاصب الحصى، وقد رَمَى ﷺ به في وجوههم، كما في الخبر المشهور[٥]. أو لم يقعا، بناءً على ما عُرف أولاً من المراد بهما، ولا يضرُّ ذلك؛ إذ تخلُّفُ الوعيد لا ضيرَ فيه = فليس بشيء كما لا يخفى.

وكان كفارُ مكةَ يَدْعون على رسول الله ﷺ وعلى المؤمنين بالهلاك، فقال سبحانه له عليه الصلاة والسلام: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أَروني، كما هو المشهور، وقد

---

(١) قراءة يعقوب في النشر ٢/ ٣٨٩، والكلام من البحر ٨/ ٣٠٤.

(٢) الكشاف ٤/ ١٥٦ عند تفسير قوله تعالى: ﴿سَأَلَ سَآئِلٌ﴾.

(٣) معاني القرآن ٣/ ١٧١.

(٤) البيت للمتلمس الضبعي، وبعده كما في ديوانه ص٢٠٨-٢١١:

هذا على الخسف مربوطٌ برمَّته وذا يُشجُّ فما يرثي له أحدُ

والعَيْر: الحمار. أساس البلاغة: (عير).

(٥) سلف ١٠/ ٦٨.

مرَّ تحقيقُه ﴿إِنْ أَهْلَكَنِيَ ٱللَّهُ وَمَن مَّعِيَ﴾ أي: من المؤمنين ﴿أَوْ رَحِمَنَا﴾ أي: بالنُّصرة عليكم ﴿فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٢٨﴾﴾ أي: فمن يجيرُكم من عذاب النار. وأُقيم الظاهرُ مقام المضمَرِ المخاطَبِ دلالةً على أن موجِبَ البَوَار محقَّق؛ فأنَّى لهم الإجارة.

والظاهر أن جوابَ الشرط والمعطوفَ عليه شيءٌ واحد. وحاصلُ المعنى: لا مجيرَ لكم من عذاب النار؛ لكفركم الموجِبِ له، انقلبنا إلى رحمة الله تعالى بالهلاكِ كما تمنَّون؛ لأن فيه الفوزَ بنعيم الآخرة، أو [رُحِمْنا][1] بالنُّصرة عليكم والإدالَةِ للإسلام كما نرجو؛ لأن في ذلك الظَّفَرَ بالبُغيتين. ويتضمَّن ذلك حثَّهم على طلب الخَلاص بالإيمان، وأنَّ فيما هم فيه شغلاً شاغلاً عن تمنِّي هلاك النبيِّ عليه الصلاة والسلام ومن معه من المؤمنين. وهذا أوجَهُ أوجهٍ ثلاثةٍ ذكرها الزمخشريُّ[2].

ثانيها: أن المعنى: إن أهلكنا الله تعالى بالموت ونحن هُداتُكم، والآخذون بحُجزِكم، فمن يُجيرُكم من النار؟ وإن رحِمَنا بالغَلَبة عليكم وقتلكم، عكس ما تمنَّون، فمن يُجيرُكم؟ لأن المقتول على أيدينا هالكٌ في الدنيا والآخرة. وعلى هذا الجوابُ متعدِّدٌ؛ لتعدُّد موجبه. ورجّح الأول بأن فيه تسفيهاً لرأيهم؛ لطلبهم ما هو سعادةُ أعدائهم، ثم الحثَّ على ما هو أحرى، وهو الخلاصُ ممَّا هم فيه من موجِبِ الهلاك. وهذا فيه الأول من حيث إنهم يتمنَّون هلاكَ من يُجيرهم من العذاب بإرشاده. والسياقُ أدعى للأول.

وثالثها: أن المعنى: إنْ أهلكَنا الله تعالى في الآخرة بذنوبنا ونحن مسلمون، فمن يُجيرُ الكافرين، وهم أَولى بالهلاك؛ لكفرهم؟ وإن رحِمَنا بالإيمان فمَنْ يُجير مَنْ لا إيمانَ له؟ وعلى هذا الجوابُ متعدِّد أيضاً، والهلاكُ فيه محمولٌ على المجازِ دون الحقيقة كما في سابقه، والغرضُ الجزمُ بأنهم لا مُجيرَ لهم، وأن حالَهم إذا تردَّدت بين الهلاكِ بالذَّنب والرَّحمة بالإيمان وهم مؤمنون، فماذا يكون حالُ مَنْ لا إيمان له؟ وهذا فيه بعدٌ.

---

(١) ما بين حاصرتين زيادة يقتضيها السياق. ينظر الكشاف ٤/ ١٤٠.
(٢) الكشاف ٤/ ١٤٠.

﴿قُلْ﴾ أي: لهم، جواباً عن تمنِّيهم ما لا يُجديهم، بل يُرْدِيهم، معرِّضاً بسوءِ ما هم عليه: ﴿هُوَ ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ أي: الله الرحمن ﴿ءَامَنَّا بِهِۦ﴾ أي: فيجيرُنا برحمته عزَّ وجلَّ من عذاب الآخرة، ولم نكفُرْ مثلَكم حتى لا نُجارَ ألبتَّةَ.

ولمَّا جعَلَ الكفرَ سببَ الإساءةِ في الآية الأولى جعَلَ الإيمانَ سببَ الإجارةِ في هذه؛ ليتمَّ التقابُلُ، ويقعَ التعريضُ موقعَه. ولم يقدّم مفعول «آمنا» لأنه لو قيل: به آمنَّا، كان ذهاباً إلى التعريض بإيمانهم بالأصنام، وكان خروجاً عمَّا سِيْقَ له الكلامُ.

وحَسُنَ التقديمُ في قوله تعالى: ﴿وَعَلَيْهِ تَوَكَّلْنَا﴾ لاقتضاء التعريض بهم في أمرِ التوكُّل ذلك، أي: وعليه توكَّلنا، ونعم الوكيلُ، فنَصْرُنا لا على العَدَد والعُدَد كما أنتم عليه. والحاصلُ أنه لما ذكر فيما قبل الإهلاك والرحمة، وفُسِّر برحمة الدنيا والآخرة، أكِّد هاهنا بحصولها لهم في الدارين؛ لإيمانهم وتوكُّلهم عليه تعالى خاصَّة، وفي ذلك تحقيقُ عدم حصولها للكافرين؛ لانتفاء الموجبين، ثم في الآية خاتمةٌ على منوال السابقة، وتبيينُ أن أحسن العمل الإيمانُ والتوكُّل على الله تعالى وحدَه، وهو حقيقةُ التقوى.

وقوله تعالى: ﴿فَسَتَعْلَمُونَ مَنْ هُوَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٩﴾﴾ أي: في الدارين، وعيدٌ بعد تلخيص الموجِبِ، لكنه أُخرج مخرَجَ الكلام المنصِف، أي: مَنْ هو منَّا ومنكم في.. إلخ.

وقرأ الكسائي: «فسيعلمون»[1] بياء الغَيبة نظراً إلى قوله تعالى: (فَمَن يُجِيرُ ٱلْكَٰفِرِينَ).

وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾ أي: أخبروني ﴿إِنْ أَصْبَحَ مَآؤُكُمْ غَوْرًا﴾ أي: غائراً ذاهباً في الأرض بالكُلِّية، وعن الكلبي: لا تنالُه الدِّلاء. وهو مصدرٌ وُصِفَ به للمبالغة، أو مؤوَّلٌ باسم الفاعل. وأيّاً ما كان، فليس المرادُ بالماء ماءً معيَّناً، وإن كانت الآيةُ ـ كما روى ابنُ المنذر والفاكهيُّ عن ابن الكلبيِّ ـ نازلةً في بئر زمزم وبئر

(١) التيسير ص٢١٢، والنشر ٢/ ٣٨٩.

ميمون بن الحَضْرمي. ﴿فَمَن يَأْتِيكُم بِمَآءٍ مَّعِينٍۭ ۝٣٠﴾ أي: جارٍ، أو ظاهر سَهْلِ المأخذ؛ لوصول الأيدي إليه، وهو فَعِيل من مَعَنَ، أو مفعول من عين = وعيدٌ في الدنيا خاصَّة[١]، وأردف الوعيد السابق به تنبيهاً بالأدنى على الأعلى، وأنكم إذا لم تعبدوه عزَّ وجلَّ للحياة الباقية فاعبدوه للفانية.

وتُليت هذه الآيةُ عند بعض المستهزئين، فلمَّا سمع: «فمن يأتيكم» إلخ، قال: تجيءُ به الفؤوسُ والمعاوِلُ، فذهب ماء عينيه، نعوذ بالله تعالى من الجراءة على الله جلَّ جلالُه وآياتِهِ.

وتفسيرُ الآياتِ على هذا الطَّرْزِ هو ما اختاره بعضُ الأئمَّة، وهو أبعدُ مغزى من غيره، والله تعالى أعلمُ بأسرار كلامه.

---

(١) قوله: وعيد...، خبر لقوله قبلُ: وقوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾... إلخ.